الثقافة العربية : مهام ومسؤوليات

رئيس التحرير

إن نظرة واحدة الى امتنا العربية : تاريخاً وجغرافية ، ثقافة وحضارة ، لتجعل المرء يقف بكل اجلال ومهابة امام امة تحدت وما زالت تتحدى الموت رغم انها تخوض المعارك معه يوماً بيوم وساعة بساعة . فعبر التاريخ ظل هذا الوطن قلب العالم ومركز الاستقطاب فيه وعبر التاريخ ظل المصباح الذي ينير حلكة الظلام . ترى اليس وطننا ، بدءاً من بلاد الرافدين وحتى وادي النيل ، مهد حضارة الانسان وموطن نشوئه وارتقائه ؟ آلاف السنين ظلت هذه الارض منبع النور ومشعل المعرفة حتى غدت حلم كل ذي حلم وقدس كل ذي قبس .

نتج عن ذلك انه ما من امة وجدت في نفسها قوة ولنفسها شاناً إلا واتجهت الى قلب العالم هذا ومركز الاستقطاب فيه لكانما هي على يقين من انها تسيطر على العالم بسيطرتها على القلب ، وهكذا كانت غزوات الاغريق ، الفرس ، الرومان ، الغز ، التتار ، الصليبيين .. والقائمة تستمر حتى اليوم .. فالمصباح المنير يجذب دائماً الفراش والبعوض ، الحشرات والهوام لتنعكس عليه أذى وضرراً .

والحقيقة ، ان الهجمات التي استهدفت هذه الأمة في التاريخ لأكثر من أن تعد وتحصى ، والحروب التي ذاقت ويلاتها هذه الأمة ربما تشكل العمود الفقري لتاريخ البشرية وكلها كانت تستهدف انتزاع القلب منها اجتثاث حتى جذورها. يقول احد المؤرخين عن حصار قبائل الغز لدمشق في القرن الحادي عشر الميلادي : « وحاصر اتسز بن أوق مدينة دمشق ستة اشهر وكان فيها خمسمائة الف نسمة فلم يبق فيها سوى ثلاثة آلاف وكان فيها مائتان واربعون خبازاً فلم يبق فيها سوى خبازين وكانت الدار تباع بعشرة آلاف دينار فصار ينادى عليها بدينارين ولا يشتريها احد » .

ذلك مثال واحد من مئات بل ربما آلاف الأمثلة مما حاول الغزاة فعله للقضاء على هذه الأمة ، بعضهم استهدف مباشرة شخصيتها ووجودها فقام الأتراك بعمليات التتريك المريعة التي حاولوا من خلالها اجتثاث اللسان العربي وقتل التراث العربي وكل هدفهم ان يمسحوا بذلك الانسان العربي مسحاً تاماً . كذلك حاول الفرنسيون في الجزائر المحاولة ذاتها وقطعوا شوطاً بعيداً في فرنسة الانسان العربي في الجزائر مجتمعاً وفرداً كما جرت محاولات لأسبنة العربي في الصحراء الغربية وعبرنته في فلسطين والقائمة أيضاً تطول ...

رغم ذلك كله ، ظلت هذه الأمة حية صامدة تتحدى الفناء في كل مرة تضمد جراحها وتقف على رجليها مثبتة أنها الأقوى وانها الأبقى والأقدر على مجابهة الصروف وتجاوز النوائب ، فما السبب يا ترى ؟ لو كانت امة ضئيلة ، ضعيفة ، هامشية التاريخ والوجود لتلاشت إذن وامحت كما امحت امم كثيرة سواها ، لكنها شجرة هائلة القوة باسقة الفروع ، عميقة الجذور ، تقف ابداً في وجه الأعاصير . قد يتحطم منها غصن وقد تتناثر اوراق وقد تتقصف فروع ، لكنها سرعان ما تتماسك من جديد وتبعث اوراقاً جديدة وتنمي فروعاً جديدة ... إنها القدرة الهائلة على التجدد ومن أجدر بالحياة من امة تلك هكذا قدرة على التجدد ؟

هي عبر التاريخ تنتشر ، عبر الجغرافية تنتشر ، ونظرة واحدة إلى وجود هذه الأمة وانتشارها في بقاع الأرض وقاراتها ، جزرها ومحيطاتها تؤكد أنها الأوسع انتشاراً بين الأمم والأطول باعاً والأرفع هامة . الإرث الحضاري الذي تركته يعجز الدهر عن محوه ، التراث الثقافي الذي خلفته اعظم من ان يفنى ، ترى اليست هي في شرقي الأرض وغربيها ؟ إنها امة متميزة فريدة ، حضورها كوني وعظمتها شاملة . انى توجهت تجد لغتها ، قرآنها ، حروفها ، ارقامها . تجد فكرها وثقافتها إرثاً متوارثاً دهراً بعد دهر فكيف يمحى أو يزول ؟ هي كبيرة كبر العالم فكيف يريدونها ان تصغر ؟ لقد حسبوا أنهم بتمزيقها يفعلون ذلك والقاعدة الاستعمارية القديمة تقول : فرق تسد ، فانقضوا عليها تمزيقاً وتفريقاً : فريسة بين براثن الذئاب والنمور . من المحيط

الى الخليج راحت الانياب والمخالب تمزق : اسبانيا ، البرتغال ، إيطاليا، المانيا ، انكلترا ، فرنسا ... والقائمة ايضاً تطول والهدف واضح جلي: يريدون أن يجعلوا العملاق قزماً ليفعلوا بالقزم ما يشاؤون .

لقد حملت هذه الأمة رسالة حضارية عظيمة عبر التاريخ . حملتها بامانة وصدق ونشرتها بحماسة واندفاع حتى صارت خير أمة اخرجت للناس ، ذؤابة شرف وقبلة مجد ومحج فخار ، وذلك هو ، بالضبط ، ما ألب عليها الأعداء وأوغر صدور الحاسدين الحاقدين وجعلها هدفاً لكل ذي طمع وشنآن . فالحقيقة كما تستهدف ثروات هذه الأمة ، تستهدف رسالتها الحضارية ، وكما هم معنيون بموقعها الاستراتيجي معنيون بتراثها الثقافي ذاك الذي يشكل قوتها الحقيقية ، سر عظمتها وضمان استمرارها .

عن هذا التراث الثقافي علينا ان ندافع .. ومن اجل تلك الرسالة الحضارية ، علينا ان نجابه ونتحدى ، فحياتنا في رسالتنا ، وقوتنا في ثقافتنا . بغيرها ينتفي دورنا الحضاري ولا يمكن لهذه الثقافة وهذا الدور ان يستمرا إلا ونحن موحدون اقوياء ، فماذا فعلنا وماذا نفعل لكي نظل كلاً ثقافياً واحداً لا يتجزأ مثلما كنا عبر التاريخ ؟

إن مهمتنا صعبة لكنها غير مستحيلة ، ومسؤوليتنا كبيرة شاقة لكنها ممكنة ومتاحة . المهم المنطلق ومنطلقنا صحيح . فإرثنا الثقافي واحد ، ترى لمن يمت امرؤ القيس والمتنبي ؟ الكندي وابن رشد ؟ الخوارزمي وابن الهيثم ؟ إنهم لكل عربي من المحيط الى الخليج . كذلك نهج البلاغة ورسالة الغفران ، المقامات والأغاني ... هي ارث لكل العرب ، الإرث الذي نفاخر به ، والرسالة الحضارية التي حملنا في الماضي والتي تفرض علينا اليوم مهام تاريخية ومسؤوليات عظيمة ..

فهلا ادينا مهامنا كما يفرض الواجب علينا !! هلا وضعنا استراتيجية ثقافية واحدة ونفذناها تنفيذ الرجل الواحد كما يقضي بذلك تاريخنا وقيمنا ! قد يحول الأعداء بيننا وبين توحيد وطننا الممزق وتحرير ارضنا المغتصبة لكن ما إخالهم قادرين ، إن صح منا العزم ، على الحيولة بيننا وبين توحيد جهودنا الثقافية لنتابع دورنا الحضاري امة عظيمة ذات ثقافة واحدة ورسالة خالدة .

الدراسات والبحوث

الدراسات والبحوث

المادة والوعي
أو الطاقة وبقاء العالم

نبيل محسن

« كانت ظلمة ، وكان كل شيء في البدء يختبىء
تحت ستار ؛
ومن الظلمة العميقة ـ المحيط بلا خباء ،
برزت طبيعة واحدة ؛
واضيف الى الطبيعة الحبة ، الينبوع
الجديد للعقل ... »

رج فيدا

* نبيل محسن : باحث من القطر اللبناني ، عضو في الجمعية الكونية السورية ، له عدد من الدراسات في الدوريات العربية .

● البحث دراسة لكتاب ريمون رويه « عرفان برنستون » باللغة الفرنسية ، منشورات فايار ، عام ١٩٧٤

تعتبر رج فيدا ، وهي اقدم اسفار الفيدا الهندية ، اقدم اثر فلسفي عرفته البشرية ، وافضل محاولة لصياغة العلاقة القائمة بين المرئي واللامرئي والحق ، اننا نجد هذه المحاولة عند الشعوب القديمة عامة وفي الحضارة الاغريقية خاصة . وقد عرفت هذه الاخيرة كيف تسمو بهذه الاشكالية الى مستوى المبدأ . ولا نبالغ اذ نقول انها المحاولة ذاتها التي يتصدى لها انسان العصر الحديث وهو مزود بتقنياته ووسائل معرفته .

تشير العبارة السابقة الى ان العقل البشري يسعى ، من خلال كمون طبيعته ، الى تجاوز الوجود المرئي لكي يطل على ما يقع وراء ذلك المرئي ، دون ان تقف معرفته عند حدود رؤيته . وهذا يعني ان العقل البشري مصمم على مد تصوره الى اللامحدود بحيث انه ، كما يقول باسكال ، يتابع تصوره دون توقف معرفته . وهكذا ، كان اللامرئي يتراءى وراء عالم الكثافات المرئية ، المحدودة والمتحولة على نحو اكثر لطافة ، وحرية ، واطلاقاً وإشراقاً

يمكننا ان نقول ان اشكالية المادة والوعي قضية قديمة وحديثة في آن واحد . فقد اثارت عقل الانسان اذ وعى ذاته ووجوده قديماً ، واثارت بصيرة العلماء اذ بحثوا في العمق الكوني والشمولية حديثاً . وفي الوقت الحاضر ، يمتلك العلماء وسائل تمكنهم من الغوص الى اعماق المادة لاستجلاء اسرارها ، والوصول الى طبيعتها الجوهرية . والحق ، ان القيمة العليا للروح العلمية في عصرنا الحديث تتمثل في وحدة العلوم ووحدة الكون ، وفي تجاوز النظرة الدينامكية ، ولما كان عهد الاعتقاد بامكانية وصف الظواهر الطبيعية وصفاً موضوعياً بحتاً قد ولى ، فان الانسان الحديث بدأ يدرك بانه جزء متكامل مع ظواهر الطبيعة ، وان الوعي الذي احتكره لذاته هو ملكة كونية تتميز بـه الكائنات والاشياء وعلى هذا الاساس لم يعد الفصل بين المادة والوعي ، كما يتحدث عنه ديكارت ، فصلاً نهائياً يجعل المادة كتلة مسيرة على نحو يمكن حسابه والتنبؤ به . واذا العلم الحديث يشهد استمرارية ثنائية المادة والوعي فان اختلاف العلماء مع وجهة النظر الماضية يكمن في انهم توصلوا الى معرفة ان الوعي هو الذي يخلف المادة من خلال النموذج الذي يصوغه عنها . وهكذا يعترفون بان المادة لا توجد بدون وعي . ولئن كانت المادة لا تحمل الوعي ، لكنها تتميز بماهية عقلية وروحية تشير الى انها مشتقة من الوعي ، بحيث ان وجودها الموضوعي لا يخرج عن تمثل وعينا لهذه المادة .

البحث عن الوعي :

يقول بول فاليري : « لم نجد في الدماغ ما يدل على انه حالة نفسية ، هذا يعني ان الاحداث النفسية لا مرئية » والحق ، ان العلماء عاجزون حتى الآن عن تحديدها في اي مكان في الجسد . ولئن استطاع العلماء رصد بعض التبدلات الفيزيائية — الكيميائية او الكهربائية على مستوى النورونات او ملاحظة التبدلات في افرازات بعض الغدد ، لكن ذلك كله لا يشكل مصدراً للوعي ولا يشير الى وجود مركز للاحداث النفسية ، هذا ، لانها (اي التبدلات) من طبيعة جسدية ، نفسية تعود الى التأثير الذي يمارسه الوعي على الجسد .

تشير البحوث والدراسات الجارية لمعرفة طبيعة الوعي الى اننا لسنا كائنات تعي فحسب ، بل اننا نعي ونعلم اننا نعي . لذلك ، نستطيع ان نقول ان الوعي يعي ذاته .وهذا ما يميز الانسان الطبيعي عن الانسان الآلي والعقل الالكتروني . فالانسان قادر على الخروج من العالم بتفكيره ، ومراقبة الكون والاشياء ونفسه ، وبالاضافة الى ذلك يستطيع الانسان ان يتجاوز الزمن . فاننا كنا ننتقل من الماضي الى الحاضر والى المستقبل ونعجز عن العودة الى الماضي . لكننا نستطيع ان نعود الى الماضي السحيق بوعينا . هذا لان الزمن على مستوى الوعي ، عكوس وقابل للرجوع الى الوراء . وفي هذا الصدد نقول : ان الخلق والتفكير خاصتان اساسيتان للوعي ؛ ومن خلالهما يستطيع ان يستعيد معلوماته كلها ويبدع منها افكاراً جديدة ليست مجرد نتائج بسيطة للمعلومات السابقة او مكملة لها .

نخلص الى القول بان الوعي يتميز بخصائص رئيسية اربع :

١ — الوعي غير مرئي .
٢ — الوعي يعي ذاته .
٣ — الوعي يتجاوز الزمن .
٤ — الوعي يفكر ويخلق .

تتمثل عظمة الفيزياء الحديثة في قدرتها على اثبات وجود فضاء خاص يمتلك الخصائص الاربع للوعي . وقد تأكد العلماء من هذا الاثبات اثناء دراسة

المادة دون ان يكون الوعي قد وضع مسبقاً موضع دراسة الفيزيائيين . وقبل البدء بالحديث عن هذا الاثبات الرائع لا بد لنا من ذكر الفرق الاساسي بين المادة والوعي على مستوى الفيزياء . ولئن كانت المادة تسير الى الفناء بحسب قانون الانتروبي المتزايدة ، لكن هذه الانتروبي تنخفض باستمرار على مستوى الوعي. فالقانون الثاني للترموديناميك ينص على ان الانتروبي في العالم (المعزول) تنزع الى بلوغ قيمتها القصوى ، بحيث ان العمليات الفيزيائية في الطبيعة تزيد الطبيعة على نحو انتروبي مستمر ، الامر الذي يعني ان الكون يخسر حرارته وبالتالي ستكون درجة الحرارة ، في كل نقطة من نقاط العالم ، واحدة . ومن هذا نستنتج ان المادة منذورة للفناء طالما اننا لا نستطيع ، في وقت معين ، استخلاص اية طاقة من أي شيء مادي . ومع ذلك ، نجد ان اكتساب اية معلومة يؤدي الى لا انتروبي ، اي انتروبي سالبة ، والى مزيد من التنظيم . لذا ، نقول : ان الانتروبي السالبة تبقى ثابتة او تتزايد في الفضاء النفسي ، وذلك لان المعلومات المحفوظة في الوعي تبقى ثابتة او تتزايد دون نقصان .

وفي سبيل فهم ما تقدمه لنا الفيزياء الحديثة بشأن « فضاء الوعي » يتوجب علينا ان نستعيد مفهومي المكان والزمان وتطورهما بدءاً من اوائل هذا القرن ونتأمل الآراء التي تعرضها النسبية الخاصة والميكانيك الكوانتي والنسبية المعقدة .

النسبية الخاصة :

عام ١٩٠٥ افادنا اينشتاين بنظريته الشهيرة المعروفة بالنسبية . وانضوى البحث الاول الذي تقدم به عنوان « الديناميك الكهربي للاجسام المتحركة » .

اعتمدت نظرية اينشتاين على الفرضيتين التاليتين :

١ ـ تحتفظ القوانين الفيزيائية بصيغة ثابتة في جميع النطاقات المرجعية العطالية التي تختلف عن بعضها بسرعات ثابتة .

٢ ـ تحتفظ سرعة الضوء في الفراغ بقيمة ثابتة ومطلقة بالنسبة لجميع الراصدين ، ولا تعتمد سرعة الضوء على حركة المصدر الذي يبعث هذا الضوء .

تبدو هاتان الفرضيتان مقبولتين في الوقت الحاضر . وعلى الرغم من الانقلاب الفكري الذي احدثته النظرية النسبية والجدل والنقاش اللذين اثارتهما ، فان الاعتراف بهما على نحو بديهي قد توطد . والحق ، ان الفيزيائيين السابقين لاينشتاين كانوا يعتقدون بوجود زمان سكوني مطلق له معدل ثابت ويتخلل جميع انحاء الكون . وهذا يعني ان الفترة الواقعة بين حادثتين هي مقدار ثابت . وعلى غير ذلك لا يعتقد اينشتاين بوجود زمان مطلق ، بل يشير الى ان الفترة الزمنية الواقعة بين حادثتين تعتمد على الراصد الذي يجري القياس . وعلى هذا الاساس، تتأتى هذه النتيجة منطقيا من ثبات سرعة الضوء.

وفي سبيل ايجاد علاقة بين المكان والزمان والحركة النسبية ، تحدث اينشتاين عن حركة مراقبين يتحرك احدهما بالنسبة للاخر بسرعة ثابتة . وبالفعل ، عمم اينشتاين هذه النتيجة عام ١٩١٥ اذ جعل كلا من المراقبين يتسارع بالنسبة للاخر في النسبية العامة . واقام الدليل على ان الظواهر ليست نسبية للمكان والزمان بل هي تعبير عن ماهية واحدة هي الزمان — المكان ، اي الزمكان الذي يمكن تمثيله بخصائص هندسية . ولقد توصل اينشتاين الى هذه النتيجة بعد ان كشف عن تكافؤ التسارع والثقالة او تكافؤ الكتلة الثقالية والكتلة العطالية .

يعد موضوع الثقوب السوداء واحدا من التطبيقات النظرية العامة في مجال التجاذب بين الضوء والكتلة ، وهذا هو ما يحدث لنجم عندما تقترب نهايته فالنجوم ككل شيء في الكون ، تموت وتبعث من جديد . والواقع هو ان النجم يتقلص تدريجياً بفعل التجاذب الثقالي الذاتي حتى يبلغ حجمه درجة الصفر . فلو اننا تصورنا شعاعاً ضوئياً منطلقا من الكتلة المتقلصة لادركنا ان هذا الشعاع ينجرف ويعود الى داخل النجم المنطوي على ذاته . ولما كان هذا النجم غير قابل للرؤية بالطرق الضوئية المباشرة فقد سمي بالثقب الاسود وهكذا ينغلق الغطاء بشدة حول هذا النجم ، ويزداد انحناؤه بزيادة كتلة النجم . والواقع ان اختفاء النجم لا يعني انه اختبأ داخل فضائنا . هذا لان اختفاءه يعني انه قد غادرنا وانتقل الى فضاء آخر . ومن الاهمية بمكان ان نقول ان الزمان يسير بالاتجاه المعاكس اثناء تقلص النجم . وبناء عليه نقول : ان الزمان الذي يلازم الانتروبي في عالمنا المادي هو ذات الزمان الذي يعيد التنظيم داخل عالم الثقب الاسود . لذا تكون الانتروبي داخل الثقب الاسود انتروبي سالبة تتزايد باستمرار .

مبدأ الاحتمال :

يظهر التحليل الدقيق للظواهر على مستوى اللامتناهي في الصغر ، اي على مستوى الجزئيات الاولية ، انه يتعذر علينا الحصول على معلومات تتعلق بموقع الجزئي وسرعته وبالتالي يتعذر علينا الحديث عن مسار الالكترون لأنه لا يعقل تمثيل موقع وسرعة الالكترون على نظام مرجعي . هذا لان نسبية اينشتاين جعلت من مسار الالكترون منحنى شديداً واضحاً في الفضاء ، يتحرك فيه مع الزمن .

يمكننا ان نعبر عن القضية في المثال التالي : مراقب يقف على ضفة بحيرة انه يراقب الاسماك (وهي الجزيئات) التي تقفز بين حين وآخر الى الفضاء لتختفي من جديد تحت صفحة الماء . يضطر المراقب للاعتراف بان الاسماك تنتمي الى الوسطين : المائي والهوائي . اما العقبة التي تعترض المراقب فانها تكمن في كيفية متابعة مسار الاسماك وهي تعود للغوص تحت الماء .

يقف المراقب امام امرين :

١ ـ أن يقدم وصفاً لمسار السمكة الظاهري ، أي مسار السمكة في الهواء ، وذلك لأنه عاجز عن رؤية ما يحدث في الماء .

٢ ـ أن يتوقع احتمال ظهور السمكة في نقطة اخرى في لحظة معينة ، في المواضع التي تنطلق منها السمكة الى الهواء .

رأى كل من شرودنغر ده بروغلي وبلانك وغيرهم ان تستمر الفيزياء في تقديم صورة واضحة وموضوعية للطبيعة واشاروا الى أن التمثيل الاحتمالي لا يحقق كمال الطريقة التي تحدث فيها الظواهر الطبيعية وتتطور في المكان الزماني .

يرى ده بروغلي ان هنالك مظهرين هما : المظهر الموجي والمظهر الجسيمي اللذان يتآلفان على نحو مستمر . ويلاحظ ده بروغلي أن المشكلة تكمن في كيفية فهم وادراك هذه الثنائية على اكمل وجه . وعلى غير ذلك ، يفضل كل من بور وهايزنبرغ وصف ما تقدمه التجربة التي تشير الى ظهور كل من المظهرين على حدة .

هكذا نرى ان العلم يسعى باستمرار لاختراق الحجاب الذي يخفي الحقيقة عن الانسان ، وتجاوز الواقع المؤقت . هذا ، لان العلم يحاول تقديم صورة لما هو غير مرئي ؛ فالاكتفاء بوصف ما تراه العين المجردة حكم نهائي لايمكن للعقل ان يستشفه من وراء الحجاب . والحق ، ان المشكلة التي يعاني منها العلم في القرن العشرين تكمن في الطريقة التي تمكنه من تعميم النسبية العامة تعميما جديدا بحيث تشمل كل النتائج التجريبية التي لم تقدم لها مكانيكا الكم التفسير الكامل . لذا يتوجب على العلماء تاليف نسبية عامة مكممة . ويعد محمد عبد السلام ، الحائز على جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٧٩ والباحث في مركز الفيزياء النظرية في تريستا ، احد الباحثين الكبار العاملين في هذا المجال . ونذكر أيضا جون ويلر في جامعة برنستون، صاحب نظرية الديناميكا الهندسية، كذلك ريكامي وفريقه في مركز الفيزياء النظرية في كاتانا ــ صقلية ، وجان شارون وفريقه في المركز الوطني للبحوث العلمية في فرنسا . وقد ابدع هذا الأخير نظريته المعروفة بالنسبية العقدية او المركبة . وتنطوي هذه النظرية على صورة الفضائين المتماسين : الوسط المائي غير المرئي ، والوسط الهوائي المرئي .

النسبية العقدية :

تتلخص النظرية المذكورة كما يلي : اذا كان الفضاء غير المرئي موجوداً حقاً وكان لا بد من استخدامه في وصف الظواهر الطبيعية ، توجب علينا ان نفترض وجوده ، وعلى نحو فيزيائي ، يعني هذا الامر الانتقال الى حيز يسمح لنا بتحديد النقاط الموجودة في الوسط اللامرئي والتعبير عن صفات هذا الوسط . وهذا ما هدفت اليه النظرية النسبية العقدية ، فافترضت ما يلي :

١ ــ بوجود فضاء غير مرئي .

٢ ــ توسيع نطاق النسبية العامة لتشتمل على فضاء مزدوج يحتوي الظاهر المرئي والباطن اللامرئي الذي يختلف بطبيعته ويقع الى ما وراء قدرتنا على الرؤيــة .

في النسبية العامة اعتبر اينشتاين الزمن بعــداً تصورياً في الفضاء او الخلاء . والحق ، ان كلمة تصوري تحتمل معناها الرياضي . وهكذا ، قام

التمييز بين ما هو تصوري وما هو حقيقي . وقد أدى هذا التمييز الى احداث نوع من اللاتناظر بين المكان والزمان ؛ هذا لأن الأبعاد في المكان حقيقية في حين أن الزمان بعد تصوري .

وفي النسبية العقدية أعاد شارون التناظر الكامل بين المكان والزمان ، بحيث يكون الزمان والمكان تصوريين وحقيقيين . وهذا ما يدعوه الرياضيون بالأبعاد العقدية . وفي هذه النسبية العقدية ، يكون كل بعد من الأبعاد الاربعة التي تحدث عنها اينشتاين مضاعفاً بتميز بجانب حقيقي وآخر تصوري . ويكون القول بأن المكان الزماني يتصف بطبيعة عقدية أو مركبة شبيهاً بالقول بأن للمكان الزماني ظاهراً وباطناً . وبهذا الصدد نردد مع علماء برنستون : الكائنات والأشياء ، العالم المألوف الذي نتعامل معه يومياً ، والعالم الخارجي حصيلة ادراكاتنا الحسية التي لا تشكل الا ظاهر مكان وحيد وأساسي .

توصلت النسبية العقدية الى نتيجة هامة نعبر عنها بالطريقة التالية : يحتوي الالكترون على مكان زماني خاص يشكل مع مكاننا الزماني الذي عرضه اينشتاين الأبعاد العقدية . ويشبه هذا المكان الزماني الموجود داخل الالكترون المكان الزماني الخاص بالثقب الاسود اذ يتصف بانتروبي سالبة . لذا ، نستطيع ان نقول ان فضاء الالكترون اللامرئي يحتوي المزايا الأساسية للفضاء الخاص بالحوادث النفسية . ولئن كان الالكترون جزئياً ذا كتلة صغيرة جداً لكنه ليس صفراً . والحق ، ان حجمه يبقى ، في كل الاحوال ، مساوياً للصفر . لذا ، يعد الالكترون نقطة رياضية في عالمنا ويعتقد جان شارون أن هذا الالكترون ينتمي الى عالم آخر مختلف وغير مرئي بالنسبة لنا . ففي ذلك الفضاء لا يكون حجم الالكترون صفراً . وعلى غير ذلك ، يكون لحجم الالكترون في ذلك المكان نقطة تماس واحدة مع عالمنا تدرك رياضياً . ومن خلال هذه النقطة يفرض الالكترون شحنته وكتلته .

يمكننا ان نخلص الى القول بأن الالكترون لا ينتمي الى عالمنا . فلو كان ينتمي اليه لأصبح خاضعاً ، ككل جزئي ، لقوى ضغط كهرمغنطيسية قد تكون لا متناهية بسبب حجم الالكترون المعدوم ، وبالتالي لأدت هذه القوى الى انفجار الالكترون وانعدامه . والحق ، ان تماسك الالكترون دليل على عدم انتمائه الى عالمنا . وهكذا يشكل الالكترون كوناً مجهرياً بحد ذاته ، يلامس عالمنا المرئي دون أن ينفصل عنه تماماً .

الفضاء داخل الالكترون :

يتشكل الالكترون من التقاء فوتونين ويستفيد من طاقتهما ليكون ذاته . وفي اللحظة التي يتكون بها الالكترون ، تتحول الفوتونات الى غاز ضوئي داخل الالكترون دون أن يكون قادراً على مغادرته . وعلى هذا الأساس يدعوه العلماء « الاشعاع الوهمي » . وعلى الرغم من ذلك ، يحدث هذا الغاز التفاعلات بين الجزيئين الملتقيين . ولما كانت الفوتونات الداخلية عاجزة عن الخروج فان التفاعلات بين الفوتونات الخارجية والداخلية تكون ضمنية . وهذا يعني عدم وجود اتصال مباشر بين جزيئين لأن كل واحد منهما يشكل عالما مغلقا ومنفصلا . ومع ذلك ، يوجد تطابق بين حركات الفوتونات الداخلية والخارجية عن طريق التبادل . وفي سبيل توضيح أفضل نشبه هذا الوضع بما يحدث لنا ونحن نقف قبالة المرآة . فحين يرفع الشخص الحقيقي يده اليسرى يرفع الشخص الوهمي الموجود داخل المرآة يده اليمنى . وعلى الرغم من عدم وجود اتصال بين الشخصين لكن احدهما ينفذ ما يقوم به الآخر على نحو معكوس .

هكذا ، يصبح الالكترون جزيئاً لا متناهيا في الصغر وحياة لا نهائية اذ يحتوي الفضاء الخاص بالوعي . لذا ، نستطيع ان نقول بأن تاريخ عالمنا ليس الا المغامرة الروحية لهذه الجزيئات الاولية والابدية في الكون . والحق ، ان الفيزيائيين يعرفون هذه الجزيئات جيداً ويعترفون بخصائصها الفيزيائية ، ويتجاهلون الخصائص النفسية اللازمة والمرافقة . وفي عصرنا الحاضر ، اثبت بعض العلماء وجود هذه الخصائص النفسية المتمثلة بالتفكير ، والمعرفة ، والحب والتأثير . ولا نبالغ اذا قلنا ان ممارسة هذه الوظائف تسمح لكل جزيء بزيادة انتروبيه السالبة اي برفع وعيه . هذا لان الجزيئات المؤلفة لجسم الانسان تزود ذاتها بحواس اضافية تزيد من فاعلية الخصائص النفسية المذكورة . وها نحن ندرس كل خاصة على حدة :

١ ــ المعرفة : يتلقى الجزيء الحامل للوعي اشارات من العالم الخارجي فيلحق بها المعنى ويحفظها في فضائه الخاص . هذا لان الاشارات بحد ذاتها لا تحمل معنى . فهي تشبه بقعا متناثرة على لوحة معينة . والحق ، ان المعاني الملحقة بهذه الاشارات لا تستطيع بدورها ان تزودنا بمعرفة مطلقة للكون ، بل تقدم لنا وصفا يتمثل في معان اصطلاحية نسميها عادة « مسلمات » . لذا ،

فاننا نتلقى اي معرفة بشعور كامل بنسبيتها وذلك لاننا نصف الكون او المكان الذي نحتله فيه . فكل ما نستطيع قوله هو ان هذا الوصف هو حصيلة فكرية لما يراه العقل الذي يأخذ التصورات المسبقة والمسلمات بعين الاعتبار . وهكذا تصبح معرفتنا للكون مجموعة من المعاني ذات ماهية عقلية . وهكذا نخلص الى القول : ترتفع الانتروبي السالبة في المعرفة وذلك بتبادل « السبين » (اللف الذاتي) بين الفوتونات الخارجية والفوتونات داخل الالكترون .

٢ ـ الحب : يعد الحب بين كائنين اتصالا مباشرا بين وجدانين . اما على المستوى الجزيئي فيعد التبادل المباشر للوعي بين جزيئين ، اذ تتبادل الجزيئات المعلومات الموجود في مضمونها الامر الذي يؤدي الى ارتفاع الانتروبي السالبة في الجزيئين . والحق ، ان الحب على المستوى الجزيئي يدعونا الى ذكر ملاحظتين هامتين :

آ ـ في الحب تتكشف كلية وعي الجزيء للجزيء الاخر ليس على صعيد الوعي فحسب بل ايضا على صعيد اللاوعي الذي هو الذاكرة المكتسبة والذاكرة الفطرية .

ب ـ لا يتكشف وعي الجزيئين احدهما للاخر الا اذا اكتشف الجزيئان في بعضهما معاني متكاملة .

٣ ـ التفكير : يعد التفكير وعيا ممارسا على ذاته . ويؤدي التفكير الممارس على المعاني المختزنة الى توليد معان جديدة تنسق المعاني المختزنة في اطار فكري جديد . وهذا مايسمى بالتعميم . والحق ان التعميم ليس عملية تركيب جديدة او صياغة جديدة ، بل هو تقدم الوعي خطوة الى الامام وذلك من اجل اظهار وجهة نظر اعلى وفتح نافذة اخرى تصبح من خلالها المعاني المتعارضة في مظهرها متكاملة في جوهرها .

نخلص الى القول : التفكير تفاعل يتم ضمن فضاء الالكترون . وعلى هذا الاساس تتبادل الفوتونات التي تشكل الاشعاع الاسود في الالكترون «السبين» فيما بينها . وهذا يعني ان كل زوج من الفوتونات يتبادل الـ سبين كما لو ان كل فوتون يعكس الالكترون ، كما ذكرنا ، كون منغلق على ذاته . اما المظهر الاهم لتفكير الالكترون فيبدو في انحصار هذه العملية ضمن فضاء الالكترون دون تلقي اشارات خارجية .

٤ ـ التأثير : هو معلومة يرسلها الجزيء الحامل للوعي الى العالم الخارجي وتسمح هذه المعلومة بحركة الجزيء او باجراء بعض التفاعلات الكيميائية مع المحيط . واثناء عملية المعرفة يؤثر العالم الخارجي على الجزيء كما يؤثر على العالم الخارجي وذلك لان الجزيءهو الذي ياخذ المبادرة . وهكذا ، نقول لا يحصل اي تبدل للانتروبي السالبة .

المادة والوعي في الفلسفة :

في القرن السادس قبل الميلاد اكد طاليس ان الاشياء تمتلىء بالارواح ، واستطاع طاليس ان يوحد الآلهة ويجمعها تحت رئاسة زيوس . والحق ، ان تفكير طاليس يقر بوجود نفس تكمل المادة وتسير بها نحو الهدف الذي تعرفه الآلهة وحدها . وصرح هرقليطس بوجود اللوغوس ، وهو العقل السائد في الكون واعاد انباذوقليس البغض والحب الى طبيعة روحية واحدة تسود وتحرك كل مادة . اما انكساغوراس فقد انطلق من ان وجود الجزيئات هو الوجود الاصلي ، واعتبر وجودالمادة الناشئة عن الاشياء ثانويا . وقال ان الذرات الاولية تحتوي على الصفات الكيفية الموجودة في كل وجود وذلك لان التحول من شيء الى شيء آخر لا يتم الا اذا احتوى الشيء الاول صفات المتغير اليه . وارجع انكساغوراس الحركة والاختلافات الى علة غير مادية هي العقل الذي ينظم الوجود .

وفي القرن الثامن عشر الميلادي تحدث ليبنتز عن الموناد واعتقد ان كل الكائنات مكونة من جزئيات بسيطة ، فاعلة ، غير منقسمة تسمى الموناد . ولا تنتمي المونادات الى طبيعة مادية ، بل يمكن اعتبارها مراكز للطاقة او كينونات ذاتية الحركة . وعلى الرغم من استقلال كل موناد عن الآخر لكن الانسجام المنظم يوحدها . ويتفاءل ليبنتز اذ يقول ان كل شيء يتجه نحو الافضل في افضل العوالم الممكنة .

وفي القرن العشرين الح برغسون الى وجود العقل المحرم الذي عبر عنه بمصطلح الوثوب الحيوي او الدفع الحيوي . وفي اواسط هذا القرن اكد تيارده شاردان وجود نفس متحدة مع الجزئيات الاولية . وخلاصة القول ان تيارده شاردان اقر بالنفس الكائنة في الجسيم اللامتناهي في الصفر ،

واعترف ان دراسته ككل اوصلته الى الاعتقاد بتزايد الوعي مع تزايد التعقيد. والوعي في نظر تيارده شاردان يمر من عتبة الى اخرى دون وجود ربط بين المرحلتين . وهكذا يتم المرور من المادة المعدنية الى المادة العضوية ، الى الانسان فقدوم الفكر الى الكون . وفي النهاية يتطور الانسان تدريجياً حتى يصل الى مرحلة يتحول فيها الى كائن فوق عقلي ، ويبلغ نقطة اوميغا ، اي المرحلة الروحية الخالصة للكون .

ومن جانب آخر ، لا يعتقد جان شارون بتطور مفاجيء من مرحلة الى اخرى ؛ فالمرور من العقل الى العقل الفوقي لا يتحقق بدون تطوير الامكانات الكامنة للكفاءات النفسية . ولا يوافق شارون شاردان على قوله ان المادة تشكل بنى معقدة تهدف الى زيادة الوعي ، ويرفض أن يكون التطور من منشا مادي وذلك لان المادة تتطور انتروبيا بحسب القانون الثاني للترمودينامك . اذن ، فالتطور يغني وعي الجزيئات الاولية المشاركة في البنية المعقدة .

يعتبر شاردان الانسان ، مركز المغايرة الروحية للكون . فالانسان في نظره هو الكائن الذي ينطوي الكون على ذاته فيه وعليه . اما النسبة المعقدية فقد جعلت المغايرة تتمحور حول الجزيئات الاولية الابدية ، حاملة الوعي . فمن وجهة نظر علمية ومنطقية يعد الالكترون الاكثر قدرة على حمل القدر النفسي للكون خاصة وان لاشيء يسبب تراجع الاولي المكتسب ، وان موت البنية المركبة لا يؤدي الى تراجعه .

يمكننا ان نقول ان الجزيئات التي تشكل العضوية تمتلك خبرات مختلفة فهي تعبر عن هذه الخبرات من جهة ، وتضيف اليها من خلال العضوية التي تشارك في بنائها من جهة اخرى . لذا نشبه الجزيئات الحاملة للوعي في العضوية بالموسيقيين في فرقة موسيقية . اما القائد الذي يشرف على حسن اداء هذه الفرقة فهو الانا المنظمة التي تجد ذاتها امام مهمة توفيقية ثلاثية :

١ ـ التوفيق بين تصرف الجزيئات في سبيل احداث تصرف يمارس موضعيا ويجعل الجسم يعمل على نحو جيد في جميع نقاطه . وعندئذ ، لا تقدم الانا الشيء الكثير ، وذلك لان قائد الاوركسترا لا يعلم العازفين العزف بقدر ما يهتم بتنظيم المجموعة . والحق ، ان هذا هو بالضبط ما يحصل في جسم

الانسان على مستوى الوظائف المسماة انباتية او ودية التي لا تتدخل بها الارادة أو الانا مثل التنفس ، والهضم والدوران . الانا ، وهي قائد الاوركسترا لا تتدخل الا اذا حدث خلل ما ، اي اذا اصيب احد العازفين بمرض ما .

٢ ــ تعد العملية التوفيقية الثانية اصعب بقليل . وتمارس هذه العملية في الحالة التي يريد كل جزيء ان يظهر ، على نحو فردي ، الحكمة التي اكتسبها خلال فترات وجوده السابقة ، اي خلال ملايين السنين التي عبرها قبل ان يتجسد في العضوية التي ينتمي اليها اليوم . وتتمثل صعوبة التوفيق في الحديث الفردي الذي يقدمه كل جزيء بلغته الخاصة اذ يروي قصة مختلفة تعود لخبرة سابقة وخاصة . وهكذا ، لا تقوى الانا ، قائدة الاوركسترا ، الا على الاصغاء بانتباه لخليط الاحاديث الصادرة عن الجزيئات محاولةان تستشف من خلالها الحكمة الالفية لتستفيد منها هي من خلال عمل العضوية كلها .

٣ ــ ثمة نوع ثالث من التوفيق يتعلق باستماع قائد الاوركسترا للجزيئات حاملة الوعي فيما يختص بالاحداث المعاشة بعد الولادة ، اي بالرجوع الى الذاكرة المكتسبة . وفي هذه الفترة تكون معظم الجزيئات قد سايرت نفس الاحداث وهي تتحدث باللغة ذاتها . وفي هذا المجال ، يكمن دور الانا في اختيار وربط اصوات العازفين . ويتجلى هذا التوفيق من خلال افكار وتصرفات الانا . وفي سبيل انجاز هذا التوفيق بصورة جيدة ، يجب الا تتعامل الانا مع الذاكرة المكتسبة والفطرية للجزيئات المختلفة في آن واحد وذلك لان الذاكرة الفطرية تتألف من لغات مختلفة تكاد تكون غير مسموعة من قبل الذاكرة المكتسبة وهي تعبر عن ذاتها . هنا ، تلجأ الانا الى الانتقاء الزمني فتقسم حياة الجسم الى نوم ويقظة ..... تستمع الانا ، اثناء النوم ، الى الجزيئات وهي تحكي خبراتها السابقة ــ الذاكرة الفطرية ــ ، كما تستمع اثناء اليقظة، الى الذاكرة المكتسبة وهي تصم اذنيها عن الخبرات القديمة .

نتساءل : كيف تتصرف الجزيئات الحاملة للوعي لكي ترفع مستوىوعيها بانتظام متسارع ، نجيب : ان التطور هو الذي يغني وعي الجزيئات الاولية . لذا ، تظهر لنا الدراسة المتانية للتطور وجود قانونين يحكمان التطور :

أ ـ الوحدة في التنوع

ب ـ التمدد في المكان ـ الزماني .

١ ـ الوحدة في التنوع :

اذ تتشكل العضوية من جزيئات ذات خبرات مختلفة ومستويات عالية من الانتروبي السالبة تصبح أكثر حرية وأكثر قدرة على المبادرة والتصور والخلق . وهكذا ، فان الجزيئات تقترح على الانا حلولا متنوعة تساعد الانا على اختيار حل معين دون غيره من خلال فوضى الحلول المطروحة . لذا ، يجب ان يكون التنوع الذي يساهم في رفع مستوى الوعي مضبوطا باتجاه الوحدة ، اي بنظام مركزي ينظم الرسائل الآتية من الجزيئات الى الانا حتى تستطيع ان تختار التصرف الامثل .

بعد الولادة ، يصبح الطفل عاجزا عن التصرف على نحو نظري ازاء العالم الخارجي ، ذلك لان اناه تتلقى رسائل مختلفة ومتنوعة ، وقد تكون متناقضة ، من لا وعيه بسبب تنوع الخبرات السابقة للجزيئات . ولحسن الحظ ، تبقى الوظائف الداخلية ذاتية فطرية . اما التصرف ازاء العالم الخارجي فيتم ابتداء مما تسجله الذاكرة المكتسبة . وهكذا ، يصم الطفل ، ومن ثم الانسان البالغ ، اذنيه عما يبثه اللاوعي ويتصرف فقط بحسب ما يمليه عليه الوعي . وفي محاولة تجرى لملء الفراغ الذي يحدثه التجاهل التام لما يبثه اللاوعي ، يوسع الانسان ، بنسب كبيرة ، إرثه الفكري في المكان والزمان مشكلاً ما يسمى بالثقافة . هذه الثقافة حاملة لوصفات كيفية تتمثل في « كيفية حسن التصرف في كل الظروف والمناسبات » . والحق ، ان هذه الثقافة ليست أكثر من مجموعة موضعية من التصورات المسبقة والعادات التي تختلف من مكان الى مكان آخر في العالم ومن جيل الى جيل آخر ، وهي تؤطر الانسان اذ تدفعه للاعتقاد بأن عليه الا يسير وفقا لمقاييس هذه الثقافة حتى لو كانت تحتوي مضمونها . هذا ، لان صفاتها المتعددة ترتكز على سوء الفهم والعنف .

نتساءل : كيف يستطيع الانسان ان يشاهد الوحدة في تنوع الخبرات السابقة لجزيئاته ؟ نجيب : على الانسان ان يدرك انه مكون من جزيئات تتميز بمعرفة تفوق القدرة على تأمين التنفس والدوران والهضم ، وان تصرفه ازاء

العالم الخارجي حر لا تحكمه المعرفة الفطرية . ولكن ، لما كانت المعرفة الجزيئية معرفة تراكمت على مدى مليارات السنين فمن الخطأ ان نحرم انفسنا من هذه المعرفة التي تستطيع أن تصنع من الانسان انسانا جديدا .

وفي وقتنا الحاضر ، لا يستطيع الانسان ان ينطلق من جديد على طريق التطور ويتصل مع الامتداد النفسي للماضي البعيد ما لم يحسن العلاقة بين اناه القائدة والجزيئات الحاملة للوعي ، المتعلقة بالذاكرات الموروثة والفطرية ، اي بين الانا واللاوعي . وهكذا ، يسلك التطور الى الانسان الجديد طريقين :

آ ــ تاخذ الجزيئات الحاملة للوعي مبادرة التاثير على الانسان ليس فقط فيما يتعلق بالوظائف الداخلية وانما فيما يرتبط بعلاقة الانسان مع وسطه الخارجي ، وفرض ما يمكن أن تراه هذه الجزيئات صحيحا حتى لو تعارض مع المقاييس الثقافية السائدة .

ب ــ على الانا ان تبلغ حد الاتصال نفسيا مع الجزيئات الحاملة للوعي في الجسد بحيث تعيد على نحو نفسي التوازن في هذا النطاق أو ذاك من الجسد ، هذا التوازن الذي قد يكون مضطربا او ربما مفقودا بسبب الخلل الناجم عن تعامل الانسان المستمر مع العالم الخارجي .

٢ ــ التمدد المكاني الزماني :

يتمثل الطريق الثاني الذي يسمح بزيادة مستوى الوعي للجزيئات في التمدد المكاني ــ الزماني للعالم حيث تمارس الجزيئات الحاملة للوعي خصائصها الاربع : التفكير ، المعرفة ، الحب والتأثير . أما الموضوعات الجامدة فان علاقتها مع العالم الخارجي تقتصر على درجة تماسها مع هذا العالم . فالخلية ، على سبيل المثال ، تستطيع فقط ان تستكشف ما يجاورها . ويستطيع النبات ان يجذب الحياة الحيوانية الى محيطه . واذ يشكل مادة أساسية لحياتها فانه يسمح للحياة أن تغزو العالم والوعي حقاً . والحيوان ، القادر على الحركة ، فانه يستطيع استكشاف مناطق واسعة من كوكبنا . أما الانسان فقد توغل بعيدا في الفضاء ، وما زال مستمرا في تصميمه على استكشاف الكون حتى حدوده القصوى .

نخلص الى القول بأن التطور ليس عملية رفع لمستوى وعي الجزيئات فحسب بل عملية تجعل من شبكة الوعي الكوني شبكة متماسكة ، مترابطة تتبادل عبرها الجزيئات محتواها النفسي بالمحبة . والحق أن الانسان الجديد الذي يحقق اتصالا افضل بين اناه ولا وعيه سيحقق ايضا اتصالا افضل مع العالم الخارجي ، اي مع كلية الكون . ولا شك ، ان هذا الانسان يخطو خطوة جبارة في نطاق القلق المزدوج الذي يعاني منه في الوقت الحاضر . البحث عن الذات والبحث عن المطلق . واذا ما قام بهذه الخطوة ، فان شمساً جديدة تشرق على افق الوعي ويعم نور جديد .

الوعي واللاوعي :

نطلق مفهوم الوعي على الانا في فترة اليقظة اذ تتفاعل الانا مع المعلومات المتعلقة بالذاكرة المكتسبة . وبالتالي ، تكون الانا الواعية ذلك الجزء من الذاكرة الذي يتقاسمه كل من الالكترون في الجسد ، كما تكون الذاكرة المشتركة لكل الالكترونات .

نطلق مفهوم اللاوعي على الانا وهي في حالة النوم ، أثناء اصغائها للجزيئات المختلفة وهي تحكي خبراتها السابقة . وهكذا ، تكون الانا اللاواعية الذاكرة الفطرية التي تمتد جذورها قبل الولادة ، في ازمنة وامكنة الكون البعيدة . ولا نبالغ اذا قلنا أن الوعي واللاوعي ينفصلان عن بعضهما بحاجز حقيقي . فقد تكون هنالك ذاكرات منفصلة بحسب الترتيب الزمني ، ويعبر عنها تباعاً بتتابع اليقظة والنوم .

نخلص الى القول : ان الانا الفردية هي مجموع الذكريات الفطرية والمكتسبة للجزيئات على مستوى الفرد . والحق ، ان كريشنا مورتي أصاب الحقيقة اذ قال : الانسان حزمة ذاكرات . ففي حالة النوم ، يمكن لعناصر من الوعي أن تمتزج مع اللغة الغامضة للاوعي ؛ كما يمكن لعناصر من اللاوعي ان تطفو على سطح الوعي اثناء اليقظة ، ويؤدي هذا الامتزاج الى تشكيل مصدر هام للخيال والابداع . ومع ذلك ، لا يتحقق التبادل الايجابي بين الانا الواعية والانا اللاواعية ـ هذا التبادل الذي يسمو بالانسان ويضعه في مكانه اللائق على مستوى المجتمع والطبيعة والكون ـ الا بالتأمل .

الحيــاة والموت :

يشكل مجموع الجزيئات الواعية الموجودة في الجسد الحي العالم الذاتي للفرد . وتقيم هذه الجزيئات علاقة خاصة فيما بينها ؛ ومع ذلك تبقى علــى علاقة وثيقة مع العالم الخارجي حيث توجد أنا الآخرين والعالم المادي . وفي فترة الحياة ، يرفع كل جزيء في الجسد مستوى الانتروبيه السالبة بواسطــة التفاعلات النفسية الاربعة : التفكير ، المعرفة ، الحب والتأثير . وفي نهايــة الحياة تدخل الانا مرحلة الموت ، فيعود كل جزء الى الكوزموس ، وتصبح الانا حرة ، منعتقة من التعلقات الجسدية المحددة ، وتتحد في داخلها الذاكرة الكلية المكتسبة والفطرية اذ تصبح الحيوات الماضية كلها ماثلة امامها بما فيها الحياة الاخيرة . والحق ، ان تفكير الانا بذكرياتها يرفع مستوى الوعي ، ويقودها ، في نهاية فترة الموت ، الى اختيار حياة جديدة من خلال تجسد جديد . وإذا ما تساءلنا عن السبب الذي يدعو الانسان الى خشية الموت ، اجبنا : يخاف الانســان من الموت لانه يحس بعزلته في هذا العالم ، وبلمس الشرخ الذي يفصله عن التطور الطبيعي للكون ويشعر في داخله بانــه كائــن استثنائي يعيش حياة استثنائية ويحيا قدرا استثنائيا لا يشارك فيه الطبيعة والقدر الازلي للكون . والحق ، ان الانسان القادر على الاصغاء الى ذاكرته الفطرية وهي تعبر عن خبرات الجزيئات السابقة ، قادر ايضا على تجنب الخوف الذي تبديه الذاكرة المكتسبة . هذا ، لان من يجعل من شخصيته الارضية امتدادا لقــدر يمتد ملايين السنين في الماضي وملايين السنين في المستقبل ، لا يخشى الموت ... انه قد ولد في العالم من اجل حياة أبدية .

الانا على المقياس الكوني :

الانا مجموعة صغيرة من المخزون المعلوماتي الذي تمتلكه المادة الاولية الالكترونية الداخلة في تركيب الجسد . وقد تكون الانا مجموعة تحتية وذلك لان المجموعة النهائية الكبرى تتجلى في الانا الكونية . وليسـت نهاية الحيــاة الا عودة الانا الفردية الى الانا الكونية وذلك لكي تتصل مع انا الاجداد ومع انا الاجيال القادمة . أما تعددية انانا في الحياة الارضية فقضية تجعلنا نتأمل موضعنا الحقيقي في الكون . والحــق ، ان الانا الفردية ، بمعناها المألوف مفهوم زائف ذلك لأن الوجود الحقيقي هو وجود الانا الكلية اللازمة للوعي

الكوني الذي يشتمل على الكائنات والاشياء . لذا تعد الانا الجزئية ذاكرة جزئية موضعة ، وتعد الانا الكونية ذاكرة كلية ازلية ومطلقة . وبهذا الصدد يقول الحلاج :

انا عندي محو ذاتي — من اجلّ المكرمات
وبقائي في حياتي — من شنيع السيئات
سئمت روحي حياتي — في الرسوم الباليات

اذ تتحرر الانا من انثنائها بتقشع الضباب ، فتخرج الى النور لتكتشف جوهرها ولتشارك كل ما في الطبيعة من كائنات واشياء . وفي هذه الحالة ، تسقط عملية التطور الكونية الفرق بين الانا الفردية والانا الكونية تماما وعندئذ يتخلى الانسان عن خوفه وتعلقه بانانيته ومركزيته . وهذا ما اشار اليه الحلاج اذ المح الى محو الذات في سبيل المكرمات . لذا ، كانت الانا نقطة صغيرة تحفل بالمعنى الذي تكسبه اياها ؛ هنا ، لان الحقيقة الوحيدة الاساسية والنهائية تتمثل ، كما يقول علماء برنستون ، بالوعي الكوني . ولن يكون الانسان قادرا على الاتصال بهذا الوعي الكوني الا بالتأمل الذي يؤدي الى تحرير الانا من انثنائها وانطوائها وانغلاقها وانفلاتها .

البحث عن الذات :

يرى يونغ ان الذات بحث عن الوحدة ، عن الكيان وعن تكامل الشخصية . اذن ، فالبحث عن الذات هو ما يجب ان تقوم به الانا حتى تؤمن للجزيئات المكونة لجسد ممارسة الخصائص النفسية الاربع ، اي المعرفة ، التفكير ، الحب والتأثير ، وتهيئة افضل الظروف . وهذا ما يجعل الانا تواجه امرين : العالم الداخلي ، وهو الاستبطان ، والعالم الخارجي وهو خروج الانا الى العالم .

وعلى المستوى الشخصي ، تلتزم الانا بالقيام بترتيب الفوضى الداخلية التي تنجم عن ابتعاد الحياة عن الطبيعة والجوهر ، وانقذاف الانا في المجتمع . وقد يتحقق هذا التنظيم الداخلي اثناء النوم . وتستطيع الانا ان تحسن النظام الداخلي لبنيتها النفسية بالتأمل او ببعض الرياضات الروحية . وبالاضافة الى اهتمام الانا بعالمها الداخلي . فانها تتجه الى العالم الخارجي عن طريق الاسقاطات .

نستطيع ان نشبه الصورة النفسية لكل جزيء يدخل في تركيب جسدنا بالكلمات المتقاطعة التي تتطلب بعض الطول . فمن جهة ، قد تعمل بعض الجزيئات على تحقيق هذا المطلب . وهذا ما يحدث التوازن الداخلي الذي اتينا على ذكره . ومن جهة ثانية ، قد يتحقق هذا المطلب عن طريق الاتصال مع جزيئات العالم الخارجي ، جزيئات الاشياء والكائنات الاخرى والاشخاص. والحق ، ان مثل هذا التحقيق لا يكمل الا بالمحبة .

ركز يونغ على اهمية اسقاط الانا باتجاه الانيما ان كانت المراة هي الموضوع ، وباتجاه الانيموس ان كان الرجل هو الموضوع . فالرجل يسعى دائما لتحقيق ذاته باسقاط مطلب ذاته للتكامل مع شخصية انسانية انثوية - الانيما . ولكن هذه الانيما لا تبقى ثابتة الصفات موازية بذلك التطور النفسي لانا الذكر . وقد ميز يونغ مستويات اربعة او مراحل اربع لتطور الانيما : المرحلة الاولى : يتم الاسقاط باتجاه المراة التي يمكن ان يرمز اليها بحواء ، المراة البدئية التي تمثل العلاقات الغريزية الفطرية . المرحلة الثانية ، تجسد المستوى الرومانسي والجمالي حيث يختلط العديد من العناصر الجنسية البحتة . المرحلة الثالثة يرمز اليها بالسيدة العذراء التي تمثل المستوى الذي يصل فيها الحب والمحبة درجة التفاني الروحاني . المرحلة الرابعة ، هي مرحلة الحكمة التي يكون النقاء والقداسة المتمثلان بالموناليزا رمزين لها .

وبالطريقة ذاتها ، تسعى الانثى الى تحقيق ذاتها عبر الانيموس . ونستطيع ان نميز اربع مراحل لتطور الانيموس . المرحلة الاولى ، هي مرحلة الرجل المحارب الذي يمتلك القوة العظيمة ؛ المرحلة الثانية هي مرحلة الشاعر ؛ المرحلة الثالثة ، هي مرحلة الاستاذ الخطيب ؛ المرحلة الرابعة ، هي مستوى الحقيقة الروحية المؤدية الى الحكمة ويرمز اليها بالمعلم الحكيم .

نخلص الى القول بان البحث عن الذات ليس مهمة تقع على هامش الحياة. وعلى غير ذلك ، يعد هذا البحث الهدف الاساسي للحياة . فما ان نبلغ مستوى تحقيق ذاتنا حتى نشعر بالانسجام النفسي والجسدي في داخلنا ، الامر الذي يساعدنا على رفع مستوى الوعي .

التأمل :

يزود التأمل الانسان بقدرة تساعده على ردم الشرخ الحاصل بينه وبين طبيعته الجوهرية من جهة ، وبينه وبين الطبيعة الخارجية من جهة أخرى ، فتكون الحصيلة مشاركة الانسان الكائنات الأخرى وجودها وقدرها ، وارتقاءه معها سلم التطور الكوني .

نتساءل كيف تتم هذه المشاركة وذلك الارتقاء ؟

يسمح التأمل بتصور لغة رمزية تبعث الى وعينا النماذج البدئية الكامنة في لا وعينا . وفي هذا التصور والبعث ، يلج الانسان الى محراب التجربة الفطرية لجزيئات عضويتنا ...... تلكم هي الذاكرة الفطرية الغنية بالتجارب المعاشة مع الكون .

يسمح لنا التأمل بالتوغل الى داخل بنية الحياة اليومية ويتيح لنا امكانية تفهمها . وعندئذ ، نكتشف أن العالم ليس وهماً بل حقيقة ...... حقيقة تكون مرعبة للانسان الأناني الذي يعزل نفسه عن الآخرين ويتمركز في ذاته . وهكذا ، لا يعني التأمل رفضاً لحياتنا ، أو لعلومنا وثقافاتنا المكتسبة سعيا للعودة الى حياة فطرية ، وانما توظيف المعرفة الانسانية في خدمة عقل أعلى . هذا ، لأن العقل الفردي المركزي يعجز عن اكتساب الحقيقة لأنه يتعامل مع أجزاء هذه الحقيقة ، ومع صور مشوهة لها تحول دون اتصال الانسان بالمطلق . وبهذا الصدد يقول الحلاج :

من رامه بالعقل مسترشداً ... أسرحه في حيرة يلهو

وهكذا ، لا يستطيع العقل الفردي أن يدرك غير اسقاطاته . والحق ، أنه يتحرر بالتأمل ، ويصبح وعيا منفتحا ، ينسجم مع الحقيقة الجوهرية للانسان ، يعبر عنها ويتوق الى المطلق .

يجدر بنا أن نقول : يجب ألا نقصر حياتنا على السير والنظر خارج أنفسنا الى تلك الثقافات التي تدّعي أنها تحمل حلا جاهزا لكل شيء . فمن خلال مقاييسها نفرق بين الحسن والسيء ، بين المفيد والضار . علينا أن نعرف كيف

ننظر الى داخل انفسنا بالتركيز والتأمل حتى نتمكن من سماع صوتنا الداخلي وهو يهمس الينا ، ويؤكد المحبة الحقيقية باستمرار . والحق ، ان جميع العظماء المجددين الذين خدموا الانسانية خرجوا عن المقاييس المتداولة ، والتصورات المسبقة ، والحلول الجاهزة السائدة في مجتمع ما ، وقدموا ما قدموه لانهم كانوا اصدق من غيرهم في التعبير عن جوهر ذاتهم وجوهر وجودهم في المجتمع والطبيعة والكون . ومع ذلك ، يبقى التأمل في النهاية تجربة شخصية لانه تجربة تعنى بفتح الحوار بين الوعي واللاوعي الشخصي . والحق ، ان تجربة التأمل لا تقبل الفهم والترجمة الا من قبل صاحب التجربة نفسه . ومع ذلك ، يعد التأمل شكلا من اشكال الحكمة ، وذلك لان الرموز الناتجة عن التأمل حصيلة معرفة تراكمت عبر آلاف آلاف السنين ، وسايرت مجرى التطور السابق . ومن الضروري دائما ان نتذكر ان الحيز الذي نتوخاه من التأمل يتجسد في حدس او معرفة طبيعة الوعي ونقائه بحيث يتفتح شيئا فشيئا كزهرة اللوتس . وعلى هذا الاساس نتذكر قول كريشنا مورتي : ليس التأمل وسيلة لبلوغ غاية محددة ... التأمل هو الوسيلة والغاية معاً .

خلاصـة :

« اصبحنا نعرف كل شيء ، ولا ندرك قيمة اي شيء »

توجز هذه العبارة المأزق الذي تتخبط فيه مدنية القرن العشرين . هذا ، ليس لان علوم القرن عاجزة عن تقديم المعرفة بل لان الخلل كامن في كيفية توظيف هذه المعرفة .

اعترف ارسطو بوجود وسط لا مرئي هو الاثير يقع الى ما وراء العناصر الاربعة : الماء ، والنار والهواء والتراب . والحق ، ان تنوع العلوم نتج عن وضع تلك العناصر موضع الدراسة . ولم يختلف الهدف الذي سعى اليه الناس قديما وحديثا وهو الكشف عن طبيعة هذا الوجود . وفي وقت لاحق اشار ديكارت الى موضوع تنوع العلوم ، فكتب في تأملاته : « نشبه العلوم بشجرة : جذورها الميتافيزياء ، جذعها الفيزياء ، وفروعها العلوم المتنوعة » . وفي هذا القول يقر ديكارت بأن للفيزياء جذورا غير مرئية لا تحيا بدونها . وهذا يعني وجود عالمين : مرئي ولا مرئي ، ظاهر وباطن . وفي القرن العشرين ، يرسم

لنا تيار ده شاردان الصورة الكاملة للمرئي واللامرئي اذ يقول : « حان الوقت لنتبين بأن التفسير الايجابي والمقنع للكون لا يتوافر الا في تأليف باطن الأمور وخارجها او ظاهرها ، وتوفيق الوعي والمادة ... الفيزياء الحقة هي تلك التي ستتوصل يوما ما الى دمج الانسان الكلي في تمثيل متماسك للعالم » .

تحاول الفيزياء الحديثة التوفيق بين المرئي واللامرئي . ولا تخرج هذه المحاولة عن النطاق الحقيقي للفيزياء ، وبخاصة اذا علمنا ان كلمة فيزياء ، وهي في اليونانية فيزيس ، تعني جوهر الحقيقة او الصيغة النهائية للحقيقة . لذا ، لا نكتفي بفيزياء لا تعنى الا بوصف الظواهر واغفال الجوهر . وما يحصل في يومنا هذا هو ان الفيزيائيين يشعرون بوجود هذا الجوهر . لكنهم يتخوفون من التعامل معه . وقد تجاوز جان شارون هذه الاشكالية ، اذ تتخطى نسبيته العقدية التطبيقات الانتاجية والاستهلاكية للعلم انطلاقاً من آفاق انسانية رحبة تتبين عبرها اتجاه التطور وقوانينه وذلك من اجل تعبئة فاعليتنا كلها .

ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ، نرى ان العلم او العقل الانساني قد بدأ يلملم الاجزاء ويوحدها في كنف الكل حتى يتوحد الانسان مع المجتمع ومع كل ما في الطبيعة والكون . والحق : اننا نجد في الـ « رج فيدا » تعبيراً رائعاً عن هذا الموقف :

مشتركة فلتكن صلواتكم
مشتركة فلتكن نهايتكم
مشتركة فلتكن احكامكم
مشتركة فلتكن رغباتكم ؛
ففي اتحاد قلوبكم ونواياكم
تصبح الوحدة من خلالكم ، رائعة .

* * *

حرية الفكر والضمير في نطاق حقوق الإنسان

عبد الهادي عبّاس ★

مع بدايات العقد الأخير من القرن العشرين ، قرن المتغيرات الكبرى والمذهلة في تاريخ البشرية ، تتصاعد شعارات حقوق الانسان في جميع اصقاع الأرض يرفعها منتهكو سيادة الشعوب كما يرفعها الطغاة مغتالو الحريات ، وتطالب بالمزيد منها الشعوب التي وصلت الى الكثير من هذه الحقوق ، وترنو اليها الأفكار التحررية في البلدان المختلفة ..

★ عبد الهادي عباس : محام وباحث من القطر العربي السوري ، صدر له العديد من الكتب في القانون، كما صدر له العديد من الكتب المترجمة عن الفرنسية .

فما هي حقوق الانسان ، وما هي مضامينها ، في عصر ترنو فيه كافة الشعوب للتمتع بهذه الحقوق وضمانها للانسان ؟

في هذا البحث سنتناول حقا من هذه الحقوق ، هو حرية الفكر والضمير، لان فكر الانسان هو مبتدع الحق وهو الذي ربط بين الحق والحرية ، ولان رسالة الفكر والتفكير بحرية كانت ولا تزال على مدار البشرية هي في العمل على ضمان حرية الانسان وكرامته وعلى تقرير حقوق الانسان ورعايتها ، فانسانية الانسان تتميز وتتحقق بكونه الانسان المفكر العاقل (Homo Sapien) ومتى حرم من هذا الحق ومن حريته في التفكير ، يكون قد حرم من اكرم واسمى ما يسبغ عليه قيمته كانسان .

بيد انه قبل بحث رسالة الفكر وحريته كحق من حقوق الانسان لا بد من القاء بعض الضوء على بعض المفاهيم المتعلقة بهذا الموضوع والتي قد تبدو للوهلة الاولى واضحة الدلالة وسهلة الفهم ، ولكن ما ان تجرى المحاولة لتعريفها وتبسط مفاهيمها حتى يبدو التعقيد وتشابك الآراء في نزاع وتعارض .

كل انسان ينسب لنفسه تلقائيا حقا على شيء ما فيقول هذا كتابي وهذا بيتي وهذا اسمي وذلك رأيي ... الخ وكل انسان يقول عن نفسه انه حر في تمتعه بهذه الحقوق وغيرها ، ويطالب بحماية ما يعتقد انه حر في التمتع به... ولكن قلة هم من يستطيعون ادراك معاني ومضامين وانواع وحدود هذه الحقوق وهذه الحريات . واذا كان يستحيل في مقالة تحديد هذه الامور فان العمل بقاعدة ان ما لا يدرك كله لايترك جله تستدعي بعض الايضاحات الموجزة قبل الدخول الى لب الموضوع الذي اخترناه عنوانا .

١ ــ في الحقوق والحريات :

ان كلمة الحق وكلمة الحرية من اكثر الكلمات تداولا بين الناس ، وقد كانت ولاتزال في مضمونها ومداها والتعريف بها موضع خلاف كبير . واذا كان الفكر مع هذا الخلاف يعتبرها اسمى القيم الانسانية ... فانه لم يستطع تجنيب البشرية المصائب والالام الكبيرة التي جرها هذا الخلاف على البشرية فباسم الحق غزت شعوب قوية شعوبا ضعيفة ومنعتها من حريتها ، وباسم

الحق استعبد الانسان الانسان وتملك الطغاة الالوف من العبيد والرقيق وباسم الحرية حصلت المذابح في التاريخ وقتل آلاف الناس .... ولم ينفع ما ارساه الفكر النير باسم الدين والاخلاق من حكم وقواعد امثال : الناس سواسية كأسنان المشط ، ومتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ، الى آخر ما هنالك من اقوال مماثلة لم تستطع أن تلغي الرق ولا أن تلغي الطغيان ولا التعذيب والتنكيل والقتل . وهذا ما دفع بأحد رواد الحرية في عصر النهضة (روسو) الى القول : يولد انسان حرا ولكنه يعيش مكبلا بالاغلال ، وهو ما حدا بأحد المكافحين في سبيل الحرية لان يعلن وهو في طريقه الى المقصلة أيتها الحرية كم ارتكب باسمك من آثام .

ولندع الآن هذه الاقوال . . . ولننتقل الى محاولة التعريف بالحق والحرية بدئيا . ومدى العلاقة بينهما .

ان كلمة الحرية ، وكلمة الحق ، كلمة عامة مما يعرف بكلمات التذكير des mots d'énocation التي تتعدد فيها المعاني شأن كلمة العدل والصواب والحقيقة الخ ...وعلى خلاف ما يسمى بكلمات التحديد والتدقيق des mots des précisions امثال كلمات ، البيع ، التأمين ،... الاقتراع الخ التي تدل على وضع معين يمكن تحديده من قبل من له اطلاع على المصطلحات الحقوقية .

من هنا ومن صعوبة تحديد مفهوم الحق ومفهوم الحرية وصعوبة تحديد مصادرها انفسح المجال الواسع لاختلاف الآراء وتشعبها . واذا كان بحثنا لا ينصب على عرض النظريات والاراء وتباينها . فانه لابد من اجل المحاولة للاحاطة بمفهوم من المفاهيم ايراد بعض التساؤلات بدئيا .. وفي موضوعنا هذا يكون منطقيا جدا ان نضع بعض التساؤلات لنجيب عليها بشيء من الاختصار كمقدمة اولية لابد منها لمعالجة حرية الراي في نطاق حقوق الانسان . فما هي العلاقة بين الحق والحرية ؟ وما هي الحريات بالنسبة للحرية ؟ . وما الذي تعنيه الصفة / عامة / التي تطلق على الحريا تالعامة وما هو الذي يميز الحريات العامة وحقوق الانسان . ؟

ان تفحص العلاقة القائمة بين مفهومي الحق والحرية امر دقيق جدا ؛ وقد وجد من قال انه لا فرق بينهما ؛ ولكن ما هو هذا الفرق في حال وجوده .

عندما نتكلم عن حرية المنافسة التجارية وعن حرية التعاقد وعن الحرية الشخصية في المسكن وحرية التعبير عن الفكر بالكلام والكتابة الخ .. أفلا يبدو ان هنالك نموذجا من حق خاص يتوجب على السلطات العامة الممثلة للمجتمع ضمان الاحترام له ، مثل ما هو عليه الحال والواجب . في الحقوق الأخرى كحق الملكية مثلا ، أو الحق في الزواج وتكوين الاسرة الخ ؟؟ ..

ان مثل هذه المسألة لاتبدو موضع معالجة في كتب الحقوق المدرسية .. وقلما نرى بحثا وافيا عنها في المراجع العربية التي تقتصر في هذه المرحلة من التخلف الذي يعانيها المجتمع العربي على عرض المناهج الدراسية وسرد بعض النظريات والآراء العامة وشرح النصوص القانونية كما وضعها الحكام لضبط شؤون المجتمع والحياة طبقا لتصوراتهم وبغض النظر عن آفاق العصر وتطلعاته المتناسقة مع التطور العلمي والتكنولوجي الباهر ومع صبوة الشعوب الى الحرية والكرامة الانسانية .

ان العقل العلمي المعاصر والمتحضر لم يعد يكتفي بتكرار الآراء القديمة التي وجدت لغير هذا العصر ، وكما ان العقل المفكر قد اوجد التكنولوجيا الجديدة المذهلة ، وان المجتمعات قد تطورت بفضل العلم الى ما لم تكن تحلم به البشرية ، فإن هذا العقل لم يجمد على النصوص والنظريات القديمة ، ولم يعد يعتبر الافكار التي وردت في القرون الوسطى او بعدها والتي حكمت علاقات الناس وحقوقهم وحرياتهم ، صالحة لأن تحكم هذه الحقوق والحريات في العصر الحديث ... أما في البلدان المتخلفة التي تجمد فيها كل شيء فلازالت بعض القواعد العتيقة البالية تتحكم في مصير الناس وفي علاقاتهم طبقا لما كانت عليه هذه العلاقات في الزمن القديم ..... وتلك هي مشكلة كبرى لا يعلم أحد متى يمكن التخلص منها .

٢ ــ التمييز بين الحقوق والحريات :

ان الحقوق انواع كثيرة وتعاريفها عديدة كما ذكرنا وكذلك الحريات .... وبما ان بحثنا يدور في فلك حرية الانسان كشخص فاننا نكتفي هنا بعرض العلاقة بين الحريات ونوعي الحقوق : الشخصية وحقوق الانسان .

لقد كان ابرز من تصدى لبحث علاقة الحقوق بالحرية وحاول تأصيل المفاهيم القانونية في هذا ، الفقيه الفرنسي الكبير / جوسران / الذي اشار من طرف خفي في معرض دراسته لنظرية التعسف في استعمال الحقوق الى مسألة التمييز بين الحق والحرية . فهو يعارض من جهة الحقوق المسماة والمحددة التي سيكون من السهل تعريف هدفها ومن جهة اخرى « تلك الحقوق غير المسماة ولا المحددة والتي تشكل جزءا لا يتجزأ من السلالة العامة لكافة الحقوق »(١) .

ويستنتج من هذا انه لا يوجد تعارض بين الحق والحرية سوى أن الحق بالمعنى الأصلي للكلمة سيكون حقا محددا ومسمى له أصوله المقررة بدقة ، في حين ان الحرية ستكون بنوع ما حقا اكثر اتساعا ، وهي اصل كافة الحقوق وامتياز عام وواسع .

اما بالنسبة لنظرية اساءة استعمال الحق التي هي الموضوع الاصلي لمؤلف جوسران ، فانه لم يقم فرقا حقيقيا بين الحق والحرية : فكلاهما سيصبح في النهاية امتيازا قابلا لإساءة الاستعمال فقط ان اساءة الاستعمال سيكون من الاكثر سهولة التعرف عليها عندما يتعلق الأمر بحق عما لو تعلق بالحرية التي هي امتياز ذو اشعاع كبير ... « والتي يمكن ان تكون متنوعة الأسباب تبعا للمظاهر التي تمثل من خلالها وتبعا للمظاهر الاجتماعية التي تتحقق فيها »(٢)

لقد كانت ايضاحات جوسران وشروحه مهمة جدا عند الفقهاء وهي تتعلق بمادة لم تعالج من قبل ـ كما يجب ـ فصحيح أن الحرية والحق هما من منبع واحد ، حتى لو ان الحرية هي الاصل العام لكافة الحقوق فان هذه الفكرة تستحق ان تعمق كما اكد على ذلك بعض الفقهاء البارزين .(٢) الذين رأوا انه اذا كانت الحرية هي الأصل العام لكافة الحقوق ، فان هذا يرجع بكل وضوح الى واقعة ان كل الحقوق تهدف لأن توفر الأمن Securité الى اصحابها وان هذا الأمن القانوني يفترض حدا من الحرية المدنية والسياسية بالنسبة للافراد وكشرط لوجودهم ، ولهذا كان السبب الاساسي الذي قاد تطور النظام الحقوقي . ومن جهة نظر الصياغة الحقوقية ، فان وجود الحرية كمنبع لكافة الحقوق هو صحيح ايضا(٢) .

ان نظرة معمقة تلقى على اي حق لادراك وتفهم معناه ومضمونه ومداه وما يمنحه من امتيازات لصاحبه تؤكد على ان منشاه الأساسي ينطلق من الحرية ـ فعندما يقول اي انسان عن شيء ما يعود اليه ، هذا حقي Cést mon droit فان ما يستخلص بدئيا هو ان مواجهة الانسان للحقوق في المرحلة التي تأخذ فيها منشأها ، تظهر انها تنشأ موضوعا لاختيار حر . . . وتلك هي الحجة التي تمكن جوسران معها من التأكيد على ان الحرية هي الأصل المشترك لكافة الحقوق .

ولو استرسلنا في الأمثلة في جميع مناحي الحياة لوجدنا ان الحرية هي الاصل ، وان تهديدها هو الاستثناء . فلو اردنا تحديد الحقوق والواجبات المتولدة من الزواج الذي هو اللبنة الأولى في بنيان المجتمع ، فانه لابد من الاعتراف بوجود الحرية به او بعدمه عند انشائه من قبل الزوجين ...

وفي أي عقد كان ، ينبغي مبدئيا قبل تحديد الحقوق الناتجة عنه ، الاقرار بوجود حرية التعاقد او عدمه عند انشاء العقد ، وقبل تحديد الحقوق المتعلقة بالملكية ، لابد بدئيا من الاعتراف بوجود حرية التصرف والاكتساب ، وقبل تحديد الحقوق الناجمة عن وصية يبقى الاعتراف ايضا بوجود حرية في الايصاء وقبل تحديد الحقوق الناجمة عن براءة اختراع او علامة مميزة يتوجب بدئيا الاعتراف بوجود حرية في المزاحمة وفي الصناعة . وقبل تحديد حق الكاتب لابد من الاعتراف بوجود حرية التعبير بواسطة الكتابة .. الخ ..

وعلى ذلك يفهم كيف يمكن ادراك رجال القانون للحرية وكيف ان تعريفها القانوني ليس تماما كتعريفها المادي ، اذ ان الحرية من وجهة النظر المادية تقتضي نوعا من الاستقلال في التصرف المتناقض اصلا مع حالة الاسر العبودية وقد يمكن ان يكون مثل هذا التعريف مقبولا لدى الفقهاء ذاتهم كتعريف عام ، غير انه لا يوضح المحتوى الكامل للحرية في معناها القانوني . لأن الحريةالحقوقية والتي نسميها ايضا حرية مدنية ، هي الحق باجراء كل ماهو غيرممنوع بالقانون.

فالاصل هو الحرية . ولاعطائها المدلول الشامل نقول : انها امتياز يفتح للمرء اذا رغب بها مدخلا غير مشروط الى المراكز القانونية التي توضع في نطاق هذه الحرية . .(٤) التي هي من حيث المبدأ ايضا امتياز غير محدد أصلا وغير

مسبب من جهة اخرى ، في حين ان الحق يتعلق بامتيازات مشروطة اي مراكز قانونية لا يمكن اقامتها بشكل صحيح دون الاستجابة لبعض الشروط لوجودها ولصحتها .. فمن يريد اكتساب ملكية بطريق البيع لابد له من تطبيق الشروط الشكلية المطلوبة قانونا ..... الا انه قبل الوصول الى هذا لابد من التساؤل عن الحرية التي يتمتع بها الافراد عادة لاقامة مؤسسات قانونية من هذا النوع ؛ فمثلا ، قد يحصل ان تكون ازاء ملكية لا يمكن التصرف بهـا او ازاء اجنبي لا يستطيع اكتساب تسجيل علامة تجارية .... وهكذا تكون الحرية كما تبدو لازمة توضع على عتبة انشاء المركز القانوني ذاته .. وهكذا يؤدي التحليل للحرية مقابل الحق انها توضع في مرحلة تكوين المركز القانوني ، في حين ان الحق بمعنى الكلمة يضعنا في مرحلة آثار او مفاعيل هذا المركز(٥) . وبعبارة اخرى تبدو الحرية وكأنها تضعنا امام المبادهة المتروكة للافراد لانشاء مراكزهم القانونية ، فهي في اعلى سموها تسمح للافراد باعطاء هذا المحتوى او ذاك . وليس استقلال الارادة في العقود سوى الامتداد الاقصى للحرية . وبناء عليه ، يشير مصطلح الحرية في ذاته تحررا من بعض الشروط وليس كل الشروط لان الحرية لا تكون في الغالب تامة ، وبمقدار ما تتقلص الشروط ، يقال عن وجود تقدم للحرية . فالاطار المنشأ بواسطة كلمة (الحرية) على عتبة مركز قانوني يعني امتيازا لا ينبغي ان يتحمل شروطا اخرى غير تلك التي يفرضها القانون ...... ومن هنا كانت الحرية المدنية تقوم على مبدأ يسمح للانسان باجراء كل ما ليس ممنوعا قانونا .. وهذا ما يذكرنا بالقاعدة التي استخلصها الفقهاء المسلمون التي ورد عليها التعبير بالقول : ان كل ما لم يحظر فهو مباح . والمستمدة اصلا من الحديث القائل : ما احل الله فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلها على عافية فان الله لم يكن لينسى شيئا ، بل واكثر من ذلك : الحديث الذي يعتبر ان اكبر الذنوب عند الله هو ان يحرم على المسلم شيء لم يرد تحريمه في الكتاب والسنة .

اضافة الى كون الحرية امتيازا غير مشروط ــ كما أشرنا ــ فهي ايضا امتياز غير محدد وغير مسبب وذلك على خلاف الحق . ففي حين ان للحق خاصية ايجابية ، فان الحرية تتكون تحت مظاهر مختلفة الى ما لا نهاية ... وعلى سبيل المثال فان حرية الفرد في الايصاء والزواج وابداء الراي والتعبير عن الفكر .. الخ لها ايضا مظهر سلبي تحمل معه حرية الفرد في عدم الايصاء

او الزواج وفي الامتناع عن ابداء الراي واعمال الفكر .. الخ وعليه لا يمكن القول اذن ان الحرية تمتد كالحق نحو هدف محدد . بل انها تمثل مجموعة امكانيات وقدرات في كافة الاتجاهات حتى في امكانيات مناقضة مباشرة احداها للاخرى وفي هذا تتحقق المسؤولية الخلقية وفي هذا يشار الى فارق أساسي بين الحرية والحق : فالحق معرّف في اطاراته القانونية وقد أعطته قاعدة القانون حكما حيا يتيح الاعتراف به وبالموضوع الذي يهدف اليه ، أما بالنسبة الى الحرية كحرية الانتقال والسفر والتعاقد وغير ذلك من الحريات ـ . فانه يبدو من المستحيل اعطاءها اتجاها متسما بالدقة ومحددا ليمكن التكلم فيه عن التعسف بالمعنى الغائي كما هو الشان في الحقوق(٦) .

٢ ـ الحريات العامة وحقوق الانسان :

اذا كان تداخل المفاهيم وتقاربها بين الحقوق والحريات قد اثار ولا يزال يثير الكثير من الجدل والنقاش في النظريات وآراء الفقهاء ، فان كلمة الحرية ذاتها تحتمل ايضا تعريفات مختلفة وتقتضي اجوبة كثيرة على تساؤلات عن مفهوم الحرية وانواع من الحريات المعروفة باسم حقوق الانسان والتي تسمى ايضا بسبب ارتباطها الوثيق بالحرية بالحريات العامة . لقد قيل ان دراسة حقوق الانسان تتكون من تبصر الحق من وجهة نظر الحرية . لكن هذا يثير على الفور مسالة صعبة ، مسالة قديمة جدا : طرحناها آنفا ولم نجب عليها . انها مسالة : ما هي الحرية ؟ هذه الكلمة التي اعتورها ولا يزال يعتورها ابهام كبير لكثرة ماتنوعت تعاريفها ، ولكثرة ما راجت في مختلف الهيئات والميادين منذ اقدم العصور .. انها في اللغة اسم مؤنث مشتق من جذر يحتوي على / ح / ر / ر / مضعفة او : انها كلمة قديمة كل القدم تستعمل في الفلسفة واللاهوت والسياسة ويتناقش الناس حولها في المؤتمرات ... وهي ايضا من الكلمات الشعرية المحببة الى النفوس . ولكن من ظواهرها العجيبة ان نجدها تختلف في تعريفها ومدلولها باختلاف الزمان والمكان والمذهب ، ولم يكن ذلك الاختلاف يسيرا هينا بل كان كبيرا الى حد ان نجد نظاما يوصف في زمان او مكان ما ، او في مذهب ما بانه نظام حر فاذا بنا نجده في غيرذلك الزمان او المكان او المذهب يوصف بانه نظام غير حر نظام استبدادي .

اننا بتفحصنا للمؤلفات المكرسة لحقوق الانسان نجد انواعا من التعريفات والتساؤلات حول مفهوم الحرية وحقوق الانسان او الحريات العامة ... ولالقاء بعض الضوء على المفهوم ذاته لا بد من الجواب على بعض الاسئلة في هذا الشأن ، ما هي الحريات بالنسبة للحرية ؟ وما يعني الوصف للحريات بأنها عامة ؟ وهل هنالك تمييز بين الحريات العامة وحقوق الانسان ؟.

فقد يكون في الاجابة على هذه الاسئلة توضيح لبعض الغوامض يمكن التوصل معها لجلاء مفهوم الحريات العامة او حقوق الانسان .

بدئيا لا بد من الجواب عن التساؤل الذي طرحناه آنفا وهل يوجد تعريف للحرية : ؟ ان واضعي وثيقة حقوق الانسان سنة ١٧٨٩ عرفوا الحرية بانها « القدرة على عمل كل ما لا يضر بالغير » وبعبارة اخرى « انها مزاولة كل انسان لحقوقه الطبيعية بما لا حدود لها غير تلك التي تضمن لاعضاء الهيئة الاجتماعية الآخرين التمتع بنفس الحقوق »(٧) ويعرفها الفقيه الفرنسي الكبير / ريفيرو / متبنيا تعريف / ليتريه / بانها : « حالة الانسان الذي لا ينتمي لأي سيد » ، انها قدرة العمل او عدم العمل(٨) . وقد انتقد هذا التعريف لان له معنى ضيقا يقتصر على ان الحرية هي ضد العبودية والاسترقاق ، وعبارة لا ينتمي الى سيد اخذت بالمعنى المجازي ، والآن قلما يوجد انسان حر بهذا المعنى اذ ان كل واحد ينتمي الى سيد : الحاجة او الضرورة(٩) . وفي التعريف الثاني عرفت الحرية بانها القدرة على العمل او الامتناع عنه ولكن هذا يبقى ناقصا : فما هو الحال بالنسبة لحرية الفكر والتعبير ؟؟ ويعرفها /برتدند دي جوفنيل / بانها « السيادة المباشرة ، الحالة الملموسة للانسان على ذاته والتي تسمح له وتلزمه لبسط شخصيته واعطائها السيطرة والمسؤولية عن بصيرة » وفي هذا التعريف تفهم الحرية كظاهرة من الارادة يرجع في كثير منه الى المسيحية التي تضع على المستوى الاول الصراع مع الذات .. وهو متناقض احيانا نظرا لان السيادة تعني القسر كما يقول احد الفقهاء(١٠) . وبمجرد الاتجاه للتأمل في معنى حرية الارادة نرى انفسنا وقد تورطنا في متاهات متعددة من المشكلات والمتناقضات الماورائية .

وكيف كان الحال فان الفقهاء عندما يهتمون باعطاء تعريف للحرية ، لا يعلقون على ذلك اهمية تذكر ، وقلما يهتمون بتامين التماسك بين هذا

التعريف وبقية بحوثهم المنصبة على القانون الوضعي . انهم يتملصون في الواقع من المسألة بتركيزهم على مفهوم ذي ناحية قانونية : مفهوم الحريات العامة .

ان العبارات التي ترد تحت عنوان حقوق الانسان ، والحقوق الأساسية ، والحريات العامة انما تتخذ بصورة عامة وكأنها متماثلة .

وفي الواقع إنّ البحث في الحرية هو موضوع فلسفي بينما الكلام في الحريات العامة يدخل في موضوعات حقوقية . ولكن ماذا يعنيه الوصف الملازم وهي « العامة » . وقد لا يكون للمسالة اهمية اساسية في القانون الوضعي لان النصوص والاجتهادات قليلا ما تستعمل عبارة الحريات العامة . فالنقاش هو اذن فقهي على الاخص . وفائدته ان يظهر كم يجري التهرب من المسائل الحقيقية ، احيانا . . . فبعضهم يرى ان كلمة عامة تعني ان الحريات المقصودة ـ المعترف بها هي ضد الدولة ـ وذلك هو بصورة خاصة مفهوم الفقيه دوغيه الذي يقول : « توصف قوانين الحريات العامة كل القوانين التي لها هدف مزدوج من تحديد التزامات الدولة وتثبيت الضمانات لاكمالها(١١) . ومع ذلك يضيف بعضهم عنصرا مقيدا ويوضح بانه لا توجد حرية عامة الا اذا كانت كل اجهزة الدولة بما في ذلك البرلمان ملتزمة بها ، وبعبارة اخرى الا اذا كانت الحرية مكرسة بالدستور وليس بموجب قانون او مبدأ قانوني عام فقط .

ولكن ما يثيره هذا الراي من تعريف الحرية العامة من انقسام مصطنع لجهة تحديد مفهومها تجاه الدولة او تجاه الاشخاص الخاصة جعل فقهاء آخرين يأخذون بمفهوم واسع ، مفهوم الحرية العامة معتبرين ان كلمة عامة انما تعني فقط ان الدولة تتدخل من اجل حماية الحرية دون الاهتمام بمسالة معرفة ضد من هذه الحرية(١٢) مع ذلك فان هذه التعريفات وغيرها كثير . . لاقت من يوجه اليها سهام نقده ويقترح تعريفا جديدا يتعرض بدوره لسهام نقد غيره وهكذا دواليك . .

وهكذا وكما ان الحرية هي موضوع فلسفي كما ذكرنا ، وانها بهذا المعنى الفلسفي لم تكن موحدة في تعريفها لدى افلاطون وباسكال وفرويد وسارتر وماركس وهايك . . الخ فان الحريات العامة بمفهومها القانوني اصبحت تعرف اكثر ما تعرف بأنها الحريات التي تعترف بها الدولة ويكرسها نص قانوني ـ

دستور أو قانون . ويحميها القضاء . وهي بهذا انما ترتكز على مفهومين غامضين بعض الشيء ولهما أهميتهما التاريخية الكبيرة : دولة القانون ، والنظام المكتوب للحريات فدولة القانون تعني في آن واحد خضوع الدولة للقانون (خلاف الدولة البوليسية) وحكم المجتمع من قبل الدولة ، في نطاق قانوني . وفي هذه الحالة تصبح الدولة هي الضامن للحريات ، وتحدد نفسها ذاتيا ضد كل اغراء في تجنب رسالتها هذه والاعتداء على الحريات التي هي مكلفة بحمايتها قانونا بانها اذا استسلمت لهذا الاغراء واذا ابتعدت عن رسالتها ، فان خضوعها للقانون ، المنظم في جزاءات حقوقية او قضائية يجبرها الى العودة الى الطريق المستقيم كي تحترم الحريات التي تعتبر انها قد انشئت من اجل احترامها ، أو على الأقل انها في احترامها لها فقط تتحقق شرعيتها(١٢) .

ان جدلية الدولة والحريات العامة في بعض البلدان ــ كفرنسا مثلا ــ قد تبدو معقدة ومصطنعة ، فهي كدولة مكلفة في آن واحد لفرض احترام النظام العام ــ الذي بدونه لا توجد دولة ــ وهي (كدولة) ملزمة بان لا تمس بالحريات الا باضيق ما يمكن من ضروريات الحفاظ على النظام العام ، واذا حصل وافرطت او تجاوزت على ما هو ضروري ، فان آليات قانونية تستطيع الزامها لتجد وتتبع الخط الصحيح العادل وان توفق بين النظام والحريات . وهذا النظام المكتوب للحريات مثبت في الدستور والقوانين ... وذلك على خلاف ما هو عليه الحال في البلدان الانكلوسكسونية حيث العرف والقانون العرفي العام Commonlaw هو الذي يرتب الحماية لحقوق الانسان وللحريات العامة .. وهما عبارتان قريبتان لكنهما غير متماثلتين : فحقوق الانسان تناسب مفهوم القانون الطبيعي ، انها تنبع من الطبيعة ذاتها وانها مقدسة وغير قابلة للتقادم (Imprescriptible et saoré) كما يقول الدستور الفرنسي لعام ١٧٩٨ وبالمقابل فان الحريات العامة . لا توجد الا بالقانون الوضعي .

انها بالنتيجة ذات مضمون أكثر دقة ، لانها ترتبط بقائمة يحددها ويثبتها المشرع وتتغير في الزمان وفي المكان وبالتالي فان الحريات العامة تعتبر بالاول كحريات ذات صفة سياسية كقدرات (Facultes) ايضا .. اما حقوق الانسان وبخاصة منذ بروز الاشتراكية التي انتقدتها واغنت مفهومها ، فقد اصبحت تمتد الى حقوق اقتصادية واجتماعية والى التزامات للافراد والجماعات على المجتمع(١٣) .

واذا كان كثيرا ما يرد الحديث عن حقوق الانسان والحريات العامة في كثير من الكتب والمؤلفات والبحوث وكأنها شيء واحد ، فان المألوف والاكثر دقة الحديث عن الحريات العامة عندما يبحث عنها في بلد معين ، وعن حقوق الانسان عندما تعالج على نطاق المجتمع الدولي لأن التعريف الدقيق وتنظيم الحريات اكثر سهولة بكثير في نطاق الدولة عما هو في نطاق بين الدول(١٣) .

وعلى هذا ومن مجمل ما عرضناه يبدو لنا صحيحا الى حد كبير راي احد الباحثين : « انه في بلد معلوم ، وفي عصر معلوم ، تكون الحريات العامة ، هي سلطات تقرير المصير ذاتيا للشخصية البشرية (او الجماعات) التي تعترف بها السلطة العامة ، ويعترفها ويحددها ويضمنها القانون الوضعي المثبت لوجود هذه الحريات ، ولحدودها ، ولنظامها ، ولحمايتها »(١٤) .

٤ ــ حرية الفكر والتعبير او حرية الضمير :

عندما وصف (جورج اورول) في روايته التي تحمل عنوان (١٩٨٤)(١٥) عالما ديكتاتوريا ولا انسانيا محكوما بالقدرة الكلية غير المرئية (للأخ الكبير) Big Brother) وصور ما يرهب ويرعب في نظام استبدادي من اي نوع كان : فانه يكون من الحلم ان تدرك الانسانية هذه الاخطار على نطاق واسع للعالم ككل وليس ضمن نطاقها الضيق الذي تبدو عليه في هذا المكان او ذلك ، على حد قول برتراند رسل .

لقد وصف اورول بدقة في روايته تلك الآليات التي تنقب فيها الدولة المركزية في الافكار الاكثر صميمية لرعاياها وتمنع عنهم كل راي وحتى كل احساس غير مبرمج ، وهي توضح الحلم الكلي للانظمة الشمولية : معاقبة جريمة الراي وجريمة التفكير بشكل مستقل ومراقبة الادمغة لكي تفرض هيمنتها بشكل افضل على الافراد وعلى المجتمع . ومن الكابوس الى الحقيقة لا يوجد بعد كبير فيكفي التذكير في هذا الشان ببعض المؤلفات التي دونت عن حالات التعذيب والتسلط وفرض الراي على الناس وغسل الادمغة ، لمؤلفين ذاعت شهرتهم امثال هنريش مان ، ــ وتوماس مان وستيفان زفايج وافرويد زولا وجيدوبروست ، او ايضا بالرقابة الصارمة على الصحف ووسائل الاعلام والكتب في العديد من بلدان العالم وفي سياق ايقاعي شامل .

فليس هنالك ما يدهش اذن في ان تكون الحريات الفكرية وحرية التعبير هي المحك للصفة الديموقراطية لأي نظام ، ومن هنا كانت اهمية الضمانات الملموسة التي يقدمها القانون الوضعي لحماية هـذا الحق وفرض العقاب الجزائي الرادع على من يعبث بهـذا الحق ، واهمية الاتفاقات والمعاهدات الدوليـة .

٥ ـ مفهوم حرية الضمير ورسالة الفكر :

لقد فهمت حرية الضمير في فترات تاريخية ماضية بانها محدودة بالدين وهكذا فانه عندما صدر في فرنسا في ١٩٠٥/١٢/٩ القانون المتعلق بفصل الكنيسة عن الدولة اكد هذا القانون على ان « الجمهورية تكفل حرية الضمير » وكان ينبغي ان يفهم من ذلك فقط ان الدولة تحترم المعتقدات الدينية . لكن هذا المفهوم الضيق لم يعد واردا واصبحت كلمة حرية الضمير غير محدودة لا بالمعتقدات ولا بالاديان ولا بالآراء وهذا هو الحل الذي اخـذ به المجلس الدستوري الفرنسي بقرار واضح له (صادر في ١٩٧٧/١١/٢٥) بصدد حرية التعليم(١٦) . وعلى هذا يتسع مفهوم حرية الضمير لكل الآراء وبخاصة الآراء الخلقية والسياسية وهو لا يتكون فقط في ان يكون للانسان حرية راي ، وانما يشتمل ايضا على حرية التعبير وحرية اختياره لطريقه في الحياة وبهذا المعنى يوجد شيء من الالتقاء بين حرية الضمير والحق في الحياة الخاصة ، لكن هذا المفهوم الاخير اكثر ضيقا وهو يناسب « فلكا من الخصوصية » المدخلة في فلك خاص اكثر وغالبا ما يفرد له بحث مستقل ونصوص مستقلة في الدساتير والقوانين والانظمة الدولية(١٧) .

وفي هذا المعنى ، فان حرية الضمير هي شرط اساسي لوجود فلك خاص للفرد متميز عن الفلك العام .

مع ذلك ، واذا كان صحيحا تاريخيا ، ان المسالة الدينية كانت مركز الجدل حول الفصل بين السياسة والاخلاق ، فانه في اغلب المجتمعات ، كان للدين خاصية اساسية تؤكد على الايحاء بان الدين يحكم كل تفاصيل سلوك وتصرفات الفرد بل وحتى سلوك السلطة السياسية ، ولم تتوصل الدولة الحديثة في الغرب الى التحرر من وصاية الكنيسة الا بشكل تدريجي ، لعب

فيه فقهاء القانون منذ القرون الوسطى دورا رئيسا في التاكيد على استقلالية السلطة الزمنية وبخاصة في ظل حكم فيليب الجميل ملك فرنسا منذ سنة ١٢٨٥ الذي دعم السلطة الملكية وأنمى المؤسسات الادارية والقانونية بمساعدة وتأييد من رجال القانون . لكن الملكية بالرغم من انها لم تبال بالكنيسة ، فقد عمدت لاستخدامها ، وان استعمال محاكم التفتيش ، الادارة المستخدمة بامتياز في التدخل من الحياة الخاصة من قبل السلطة السياسية يوضح هذا التداخل في المصالح . ولم تنطو ارادة استقلال السلطة الزمنية عن السلطة الروحية لا على تعددية ولا على تسامح في أمور المعتقدات .

لقد لعب الاصلاح الديني دورا هاما في الفصل بين الدين والسياسة ، لكنه لم يؤكد مطلقا انتماء الافكار والاخلاق للفلك الخاص ، وبذلك كان لعلمانية الاخلاق مصدر آخر غير مصدر الاصلاح الديني يجد أساسه في الافكار المتحررة في عصر النهضة . فمنذ القرن السابع عشر اكد توماس هوبز (١٥٨٨ — ١٦٧٩) الفيلسوف الانكليزي انه « لا ينبغي لقانون بشري أن يخضع ضمير انسان وانما اعماله فقط » وانه « منذ ان يقوم الانسان بواجب الطاعة للملك ، فان على الملك ان لا يبالي بحياته الخاصة » .

لكن هذه الفكرة القائمة على اللامبالاة قانونا بحياة الافراد بعد اثبات الطاعة للملك وان كانت تعتبر تقدما في زمنها ، لم تجعل رواد الحرية يكتفون بهذا بل استمرت المطالبة بوجود قوانين تضمن منع الحاق الأذى بفرد بسبب معتقداته الراسخة ، وهذا ما جرى التاكيد عليه في المادة / ١٠ / من الاعلان الفرنسي لحقوق الانسان لعام ١٧٨٩ حيث اشارت الى عدم جواز تعرض إنسان للازعاج بسبب معتقداته وحتى الدينية منها .. وقد اصبح هذا النص مرجعا في تاريخ الحرية في شأن حقوق الانسان والمواطن ، ولم يكف فلاسفة عصر الانوار والمتنورون في كل العصور التالية عن تعميق هذا المفهوم وكان للحمية والايمان التي اظهرها رواد الحرية اكبر الدور في ارساء حرية الفكر وفي تقرير حرية الصحافة واستعمال هذا الحق الجديد وبصورة عامة اكثر ، حق كل شخص في ان يفكر كما يشاء وفي الحدود التي رسمها القانون كاطار لحماية هـذا الحق وفي أن يعبر عما يفكر به ، وكان ذلك احـدى الحريات السياسية الاساسية الأكثر اهمية(١٨) .

لقد ناضل الانسان طويلا للتوصل الى اقرار حرية الفكر ولزوم ايجاد الوسائل القانونية لحماية هذه الحرية ، واذا كان قد حقق الكثير في هذا الطريق، الا ان تطور الحياة والوسائل التي يبتدعها الفكر أيضا في اتجاه معاكس لحريته وبخاصة في نطاق تركز السلطة ، وسيطرة التكنولوجيا وتدخلها على نطاق واسع في دقائق حياة الانسان ، أوجب على هذا الفكر النيّر ان يبتدع الوسائل الاخرى للحيلولة دون الاعتداء على حريته ودون عقبات التطور التكنولوجي وقد كان لبروز اعلام كبار في هذا الشأن دورهم قديما وحديثا في هذه المسيرة باتجاه تعزيز الحرية . فمنذ مطالع القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر كان لرواد الحرية شأنهم الكبذ في هذا ، وقد أكد جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ — ١٨٧٣) الفيلسوف الانكليزي على عدم حق الحكومة اي حكومة مهما كانت مدعومة من الأكثرية في ان تمنع حرية الرأي ... واوضح مدى السيئات التي تتأتى من تدخل الجماعة في مسائل الرأي مؤكدا على ان كبت الرأي قد يضيع الحقيقة ، اذ ليس هنالك من أحد معصوم عن الخطأ ، وان الرأي الذي يظهر غير مألوف ، قد يثبت صدقه . وان الرأي حتى ولو كان غير صحيح ، فانه يخدم الحقيقة لانها تتجلى بتفنيد الخطأ ودحضه . وان العقائد التي لا تقوم على قاعدة من قناعة فكرية لا تكون راسخة وصوحا يكفي لتوجيه السلوك الانساني . وانه ليس بين الآراء ما هو صواب كله او خطأ كله ، فقد يكون رأي غير مألوف نافعا لأنه يتضمن جزءا من حقيقة . فحرية الرأي والفكر لا يسوغ لسلطة الجماعة ان تكبحها وحتى ان طغيان الأكثرية هو كأي أنواع الطغيان على حرية الرأي والفكر من أية جهة كان . فالفرد سيد على نفسه في عقله وفي جسمه ، وان الجزء الوحيد من سلوكه الذي يكون مسؤولا عنه تجاه المجتمع هو ذاك الذي يمس الغير قصدا بالأذى . انه لا يتأتى لأي انسان ان تكون احكامه حرية بالثقة ، الا اذا احتفظ بعقله مفتوحاً لكل الانتقادات الموجهة ضد آرائه وسلوكه. وان اي حكيم لم يكتسب حكمته الا بهذه الوسيلة ..... فكل حقائق العلم والأفكار التي عرفتها البشرية وعاشت عليها لم يعرف زيفها أو صحتها الا باخضاعها لحرية الرأي والنقاش حولها . وكم تدل احداث التاريخ الجسام على ارتكاب جيل ما خطيئات فظيعة تثير دهشة الخلف وسخطه حيث استعمل حكام سلاح القانون والبطش لاستئصال شأفة أفضل الرجال وانبل المذاهب ..... واذا كان قد تحقق بذلك القضاء على هؤلاء ، فان بعض المذاهب عاشت واصبح يستعان بها (وكم في هذا الأمر من سخرية) حتى في الدفاع عن سلوك مماثل تجاه من يخالفونها أو يخالفون تفاسيرها المسلم بها(١٩) .

وفي هذا قال / فرنكلين / : ان الذين انتقدوني كانوا كالسياط التي تلهب ظهري ، لكنهم كانوا لي المنارة التي تهديني لمحجة الصواب .

ان روح البحث التي كانت اساس الحضارة الحديثة والتي وصلت الى ما وصلت اليه قد اعتبرت في المحصلة امتيازا للانسانية ، التي لم تتلق الحقيقة من الفراغ ، بل تعمل جاهدة على كشفها وتوطيد دعائمها بنفسها ، وفي هذا يقول بول هازار : لو اننا لاحظنا خطر السلطة الزائدة عن الحد او الحرية الزائدة عن الحد لاخترنا الثانية طواعية اذا لم يكن بد من الخطر(٢٠) . وفي هذا العالم الذي يزداد تعقيدا لا يمكن ان تعيش امة حرة من غير ان تشعر بوجودها ويجب ان تهيأ كل وسائل التعبير فيها عن الراي العام لتحقيق ذلك . فالمجتمع الذي يشعر بوجوده هو الذي يعرف فيه كل فرد اهداف المجتمع ودوره فيه ، ويستطيع فيه الحصول على ما يشبعه عقليا وفنيا وروحيا ، ولا بد لهذا من حرية القول ، والنظام الدقيق الذي يحمي حرية الفكر .

ان حرية الفكر والتعبير لم تعتبر في نظر بناة الحضارات وقادة الشعوب مجرد حق للفرد يمارسه في اطار سياسة الدولة ، بل ان حرية الكلام بالمعنى الدقيق لا تكون الا اذا كانت هنالك حرية في تحدي القواعد ذاتها التي يرتكز عليها نظام الحكم القائم كما يقول / وليم دوجلاس / المشرع والقاضي الاميركي الشهير(٢١) . وان يكون الشعب هو في الحقيقة المرجع الاخير لجميع السلطات لان السيادة ما دامت محصورة في ايد طبقية وراثية او فئة خاصة او مجموعة مالية او اقطاعية الخ ... فلا يمكن ان تكون هنالك اية حرية للتعبير سواء اكان ذلك في الماضي او الحاضر لان هذه السلطة المحصورة في كل مكان ، تضيق بالبحث معتبرة انه يشكل خطرا على حقوقها الخاصة في الهيمنة والسيادة . ولهذا راى كما راى غيره من رواد الحرية ان حرية التعبير هي في الواقع واحدة من الحقوق السياسية الاخيرة التي يحصل عليها اي شعب من الشعوب ، وان حرية التعبير هي كالترشيح للانتخابات والتصويت جزء لا يتجزأ من حقوق السيادة(٢١) . ويجب أن تسيطر على المدارس والجامعات روح البحث الحر بحيث لا تتحول ، كما هو الحال في المانيا النازية ، الى مكبرات صوت للرجال الذين يمسكون باعنة السلطة السياسية(٢١) . فلا بد للراي العام وهو الاساس الذي يرتكز عليه المجتمع من ان يكون مسؤولا وفي وضع يمكنه من الاستجابة ولا بد له حتى يكون كذلك من ان يقوم على الانضباط والاطلاع بكل حرية ، لان

آفاق المواطن في الدولة الشمولية او النظام الموجه ضيقة محدودة بدرجة لايمكنه معها التجاوب بذكاء مع احداث العالم الجارية حوله . وقد بين الباحثون في التاريخ الحديث كيف ان حرية التعبير في جميع انحاء العالم ضرورية جدا اذا اريد ان يكون هنالك مجتمع عالمي قابل للحياة(٢١) .

من مثل هذه الافكار والآراء التي اصبحت حقائق مقررة جاءت المادة التاسعة من وثيقة حقوق الانسان للأمم المتحدة التي تقول : « لكل انسان الحق في حرية الرأي والتعبير ويشمل هذا الحق اعتناق الآراء ، دون تدخل ، وحرية السعي وراء المعلومات والافكار وتلقيها ونشرها بأية وسيلة دون اعتبار للحدود الجغرافيــة » .

وهكذا اصبح من المسلم به في العصر الحديث ان للفكر رسالة ، بل هو شهادة على العصر ، وتعني الشهادة كلمة الحق التي تفصل بينه وبين الباطل ، وهي حكم على واقع وكشف لحقيقة والمفكرون شهداء الحق ، أي هم الذين يشهدون على عصرهم ، وهم الذين قد يلقون الشهادة أي الاستشهاد جزاء على شهادتهم . فالمفكرون في العصر هم الشهداء كما يقول احد المفكرين العرب(٢٢) . وهكذا كان سقراط شاهدا على عصره وشهيدا له ، وكان ابن حنبل في محنته شاهدا على عصره وشهيدا . وكان جوردانو برونو الذي حرق علنا بأمر من محاكم التفتيش لايمانه بالعقل والعلم الجديد شاهدا على عصره وشهيدا له .

ان رسالة الفكر هذه لا بد من ان تقوم على كشف الواقع وتحليله وتطويره وليس على تسكين الواقع ، او تبرير الاوضاع القائمة ولا تفريغ طاقاتها المختزنة بمرور الزمن عن طريق الكلام المكرور واعلان النوايا وسماع الخطب ، او التعبير المكبوت والتذمر المكبوح في الحلقات الخاصة ثم الرضا الفاضح والموافقة العلنية في الواجهة الاجتماعية والحلقات العامة بما يعبر عن تعهر الفكر وازدواجه بين لغة خاصة ولغة عامة حسب المناسبة . ليس الفكر وظيفة ، انه رسالة ، وليس وسيلة للتكسب عن طريق النفاق والدجل وتزيين الاخطاء ، بل لكشف الاخطاء والفساد يؤديها المفكر في مجتمعه احساسا منه بمسؤوليته كمواطن مخلص بعيد عن اغراءات السلطة والمنصب والمال والشهرة . . .(٢٤) .

٦ ــ الاجراءات القانونية لحماية حرية الفكر والتعبير : لقد اصبح في منطق الدولة الحديثة ، أن من أولى الواجبات المترتبة على الدولة ، ان تحترم تنوع المعتقدات وهذا الواجب بالاحترام يفترض امتناع الدولة عن اعمال ينتج عنها الحماية السلبية لحرية الضمير وهي تتولد من عدم تدخل السلطة . بيد ان الاحترام لهذه الحرية لا يأخذ حتما شكل عدم تدخل فحسب ، بل يفترض في الكثير من الحالات الحفاظ على الحرية بحماية ايجابية من قبل الدولة ، وان كان خطر التدخل يبقى مغريا بالاساءة الى الحرية . وقد يحصل من جهة اخرى خروج الدولة عن تحفظها من اجل فرض احترام اخلاقي باسم حماية الآخرين أي الاكثرية ، وهنا تبدو المظاهر الثلاثة او بالاحرى الزوايا الثلاث : السلبية ، والايجابية ، والتدخل ، ولكل منها نطاقه واجراءات وضعه موضع التنفيذ . وهو يختلف من بلد لآخر . وفي كل النطاقات التي تبحث في اطار حرية الفكر بدءا من الحرية الدينية الى حرية الصحافة وحرية التعليم .

واذ كان تفصيل بحث هذا على ضوء القانون المقارن يضيق عنه نطاق هذا البحث كثيرا ، لذلك نقتصر على الاشارة بايجاز في ذلك الى نقطتين وبشكل عام هما : حرية التعبير بالكتابة والضمير وحالتها في البلدان المتخلفة .

أ ــ فحرية الضمير والتعبير ... اصبحت هي الحرية الغالية والثمينة بامتياز وينظر اليها من الفقهاء والعلماء بانها في حقيقتها حرية مقدسة ، بل انها وظيفة ذات فائدة اجتماعية لا يسوغ لاي سلطة ان تتنكر لها او تتمرد عليها طالما انها لا تخرج عن روح النظام الديموقراطي الذي يقوم في جوهره على تعددية الآراء سواء في السياسة او في الافكار ضمن الدولة ، وطالما انها لا تخرج عن الاطار الديموقراطي لتصبح تعسفية ، أي مولدة للمسؤولية[٢٥] . فمهما وجدت صعوبات جدية في تقرير وتمييز ماهية الدور الاجتماعي لتعيين مختلف الحقوق المتولدة من الحرية في التفكير وحرية الضمير ، وماهية روح النظام اللازم ، يمكن التأكيد ان مبدع او منشىء الأحاديث قد حرف هذه الامتيازات عن هدفها الاجتماعي وتعسف في استعمال الحق المرتب لمسؤوليته تجاه الآخرين . ومهما كانت هذه الصعوبات ، فان من المفترض تحديد المساءلة وفق احكام قانون للمطبوعات يعين ما يمثل في خاصيته ونوعه الفعل المؤثم ، كأن يكون جريمة شتيمة او قذف او تشهير الخ .. ففي حالات كهذه تقرر المسؤولية الجزائية المحددة قانونا الحدود لما يمكن التسامح فيه . اما خارج هذا فلا يوجد

ما يبرر منع النقد النزيه .... وعلى اي مستوى كان ..... وقد اصبح للقضاء ، في البلدان المتقدمة ، احكام كثيرة في هذا الشأن ، حول حرية الرأي ومدى مجانبة النقد للغرض الاجتماعي المقصود من حرية الرأي . وعلى سبيل المثال فان الاحكام القضائية الكثيرة الصادرة عن القضاء الفرنسي اعتبرت ان الاصل هو اباحة نقد الآراء والمذاهب والمخترعات والسياسات ولكن هذا يقيد في ان يكون في سبيل النفع العام وعلى قدر ما يقتضيه وان يكون مجردا عن الهوى وان لا يكون ارضاء لمصلحة خاصة وبقصد التعريض ..... وقد اعتبر القضاء موجبا للمسؤولية ما يرويه المؤرخ بلا تحرز من وقائع غير صحيحة . وكذلك ما يرويه القصصي من صفات مزرية عن شخصية مماثلة . ولمجرد استعارة اسم شخص في قصة اذا كان ذلك محلا للالتباس .. ومن يطبع صورة شمسية بغير اذن صاحبها اذا كان الغرض مسيئا او بقصد الضرر فان لم يكن ضرر يكتفى بوقف البيع الخ .(٣٦) .

اننا كثيرا ما نجد اشخاصا يخافون من المسؤولية او يتطلعون بتوزيع مدائح تدعو الى السخرية احيانا لتفاهتها ولكونها الضخمة المتنوعة وبدون اي مقياس منطقي ..... ومن البداهة بمكان ؛ انه من المخاطر الداعية الى الخوف توجيه الحياة العامة باتجاه قوالب مصاغة باشكال ضيقة جدا ، ويجعل النقد شيئا تستحيل ممارسته لسد كافة السبل في وجهه . وفي حين ان وظيفة النقد بالكتابة المطبوعة والكلام المعلن في ظل نظام يقر الحرية ويعتبرها وظيفة اجتماعية، وربما كانت اكثر اهمية من اي موضوع آخر ، قد يكون معترفا بها قانونا ومحروضا عليها من السلطة ، ولكن عدم تيسير السبل الى ممارسة هذه الحرية واغناءها يجعل هذا الاعتراف للحرية الفكرية بوظيفتها نوعا من الكلام الذي لا مضمون له . فالتكلم عن حق دون نفاذه لا يعني شيئا . والنص على الحرية بدون اباحة وتسهيل وسائلها يشبه الى حد قول ذلك الشاعر :

القاه في اليم مكتوفا وقال له اياك اياك ان تبتل بالماء

من هنا كانت حرية الفكر مرتبطة بحق الطباعة والنشر ..... ومن هنا ولعلاج الشطط اوجد المشرع ما يسمى بحق الرد الذي يسمى ايضا حق الجواب حيث ينص قانون المطبوعات على ان كل ما ينال شخصا مسمى او معينا في جريدة او مطبوعة دورية من اقوال تتعرض اليه ، يخول هذا الشخص حق

الرد ويتوجب معه على المسؤول عن الجريدة أو المطبوعة ادخال الرد مجاناضمن الشروط والمهلة والمساحة المحددة بعناية وفق النصوص المعتمدة ، وقد اعتبر هذا الحق امتيازا ثمينا فعلا ، لانه يضع حدا لاساءة الاستعمال التي يمكن ان تحصل . وقد أعطاه الاجتهاد القضائي اهمية واسعة جدا . وقد اضبح حق الرد هذا باطاراته وحدوده المعنية من الحقوق المسماة كحق الملكية وغيره من الحقوق المسماة وليس مجرد رخصة .

ب ــ سمات حرية الراي في البلدان المتخلفة . : ان البلدان المتخلفة التي تضم دولا كثيرة في قارات العالم تشعرك بسمات عدة في نطاق حقوق الانسان وحرية الراي واذا كان يهمنا بالدرجة الاولى من هذه البلدان بلدان امتنا العربية فاننا نجرؤ على القول ان حرية الراي في هذه البلدان تعاني ازمة كبرى وهي في محنة تتشابه كثيرا في هذه البلدان غربا وشرقا واذا كانت تختلف قليلا من حيث الكمية فهي لا تختلف من حيث النوع ، وقد طفحت تقارير الامم المتحدة ومنظمة العفو الدولية بالاشارة الى هذه الازمة وكل ما اشارت اليه هذه التقارير لا يعبر تمام التعبير عما يعرفه المواطن في بعض هذه البلدان .

ان نظرة تلقى على الاوضاع القائمة في هذه البلدان التي توصف بالمتخلفة ولو ان بعضها يمتلك بالنسبة لسكانه ثروة تجعله اغنى بلدان العالم ، تظهر ان هذه البلدان تخضع لانواع من انظمة الحكم وفق مروحة ينضوي فيها شعارات تتراوح بين الاسلام والديموقراطية والاشتراكية والشعبية و و ... الخ وقد توجد فيها دساتير تتضمن في نصوصها كل الاحكام التي اتت بها اعلانات حقوق الانسان او مواثيق الامم المتحدة كما توجد دساتير ترفع الاسلام شعارا او ترفع مبادىء مبتكرة أو لا توجد دساتير اصلا ... وفي جميع هذه البلدان لا يوجد مجال لحرية الفكر الآخر فالمعارضة تكاد تكون مفقودة واذا وجدت فهي مكبوحة مكبوتة ، وليس يعني ان هذه المعارضة هي احسن حالا من حيث النضال في سبيل حقوق الانسان وحرية الفكر ... بل انها وهي في المعارضة تركز همها على الحلول محل السلطة الحاكمة وتشدد اكثر على قمع الراي المعارض لرايها ..... ومما يلفت النظر ويدعو فعلا الى العجب والاستغراب ان الفئة ، في الحكم او المعارضة ، وهي ترفع الشعار الاسلامي المستمد من المبادىء الاسلامية السمحة الاولى في حرية الفكر والمعتقد والتي تقوم في شأن حرية الاديان والمعتقدات على مبادىء اربعة : ١) ــ حرية الاعتقاد الديني وتحريم الاكراه في الدين ،

٢) ــ حرية المناقشات الدينية ، ٣) ــ اشتراط اليقين والاقتناع في صحة الايمان ، ٤) ــ اباحة الاجتهاد في فروع الشريعة لكل قادر عليه ، وهي ما تمت ممارستها في صدر الاسلام بالنسبة للبلدان المفتتحة كما تشير الى ذلك معاهدة عمر بن الخطاب مع اهل بيت المقدس عقب فتحه لها وكما تشير الى ذلك نصوص اخرى ، ان هذه الفئات وهي ترفع هذه الشعارات تعمل بعكسها . ولا تقبل الرأي الآخر ولا تعددية الآراء .

وهكذا اذا نظرنا الى الاوضاع جميعها ، في القديم والحديث منها وموقفها من حرية المعتقد والضمير او حرية الفكر ، فاننا نجد النصوص القديمة المشار اليها بشأن الحرية وكذلك النصوص الدستورية الحديثة .،. كلها كانت ولاتزال في واد والممارسة العملية في تطبيقها في واد آخر ..

وقد اشارت الافكار النيرة في الماضي الى قمع حرية الفكر وجمود عقل المؤسسة الدينية التي وان لم تحكم مباشرة فان نفوذها لدى السلطة وفي المجتمع كان يوفر بها اداة للتأثير يمارس بها القمع ضد المخالفين . كما اشارت الى ان من اطلق عليهم اسم فقهاء السلطان استطاعوا ازاحة كل اجتهاد او فكر نير من طريق الاستبداد .. وما دمنا لسنا في معرض سرد الحوادث التاريخية المتمادية في هذا الشأن من الاضطهاد والتعذيب لاحرار الفكر ، فاننا نكتفي بايراد قول مثقف كبير في التاريخ العربي الاسلامي فيلسوف المعرة ابو العلاء (٩٧٣ ــ ١٠٥٨) مستنكرا الاضطهاد ومشيرا الى القتل على العقيدة :

قد يقتل الحر وما دينه في طاعة الله بمكلوم (مجروح)

وفي العصر الحديث لا نرى مظاهر للوحدة في بلدان الامة العربية في شيء بمثل ما هي قائمة في الاجماع على مصادرة حرية الفكر والضمير واعتبار النصوص شيء والممارسة شيء آخر ..،. ولو وجد بعض التباين احيانا .. فنصوص الدساتير سواء اكانت احكاما دينية ما ورائية مقدسة في العقل الديني او دستورية حديثة تنبع وتستوحى من فكرة حقوق الانسان الحديثة ، او بيانات الهامية لدنية خاصة .. سرعان ما تتغير طبيعتها على ايدي الناس الذين يطبقونها أو يرفعون شعارها . وبديهي ان النصوص مهما كان نوعها لا تحكم بذاتها ولا تطبق نفسها بنفسها وانما يطبقها بشر قانون لهم مصالحهم وأطماعهم

وشهواتهم وتكوينهم التاريخي والحضاري الذي غالبا ما بني في البلدان المقصودة على القمع والقسر وتشويه النصوص المشرقة انى كان مصدرها وكيفما كان مداها في نطاق حقوق الانسان . هذه النصوص الوضاءة كيفما كان نوعها ،' وكما عرف المواطن تطبيقها قديما وحديثا كانت دائما وأبدا سهلة الخرق المستمر . ولا عجب في ذلك فالحاكم الذي كان في الماضي خليفة الرسول يحكم بكل ثقل السلطة التي يستمدها من سلفه العظيم ، هو الذي كان بوصفه هذا يتولى تفسير النصوص التي هي على الاغلب عامة الى حد تقبل معه اتجاهات شتى ، ـ وكان من الطبيعي ـ اذا استثنينا حالات قليلة ـ ان تتحكم مصالحه الدنيوية في تحديد التفسير الذي يميل اليه ، كما يقول احد المفكرين العرب المحدثين(٢٩) . وليس هذا فحسب بل انه غالبا ما كان يزور او يرضى بتزوير المتملقين حتى للاحاديث القدسية ليصور وضعه انه احسن الأوضاع ، ومن ذلك على سبيل المثال ما تناقله التراث من حديث يخدم كل حاكم في عصره وهو : ان عهدي خير من الذي يليه والذي يليه خير من الذي يليه وهكذا الى قيام الساعة ..

وكما كان الحاكم القديم وبخاصة في عهد الدولة يطرب للشاعر / ابن حمديس / في الأندلس وهو يقول له :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار

فان بعض الحكام في العصر الحديث لم يخرج عن هذا الاطار معتبرا نفسه الكلي القدرة والكلي العلم والمعصوم وتتجمع حوله فئة او اكثر تضم خليطا من فقهاء السلاطين والمداحين والمتكلمين باسم الدين ومن الاجهزة القمعية والمنتفعين بالفساد ..... والنتيجة المستخلصة من هذا كله تلك العشوائية في الممارسة وتبريرها دينيا وفكريا وعدم السماح برأي مخالف ولو ادى ذلك الى تدمير الشعب والوطن كما حصل في ما يسمى بازمة الخليج الحديثة وموقف مسببها ونتائجها ، ان عدم وجود بناء تراكمي من الحقوق التي تكتسب مرة واحدة والى الأبد وترسخ في نصوص تطبق فعلا وقولا وبحزم ، ويشعر بها المواطن كجزء من كيانه وحياته ، ابقت وتبقي على الوضع الشاذ المتوارث ضد حرية الفكر ، وضد قبول التعددية والاصرار على القول القديم الجديد الذي ابتكر له فقهاء السلطان حديثا لاضفاء صفة القداسة عليه . وهو : انقسام اليهود

الى ٧٠ فرقة والمسيحية الى ٧٣ وستنقسم امتي الى ٧٥ كلها في النار الا ما انا عليه وجماعتي ،... الخ ... وهكذا تنحصر الحقيقة بمالك الامر في زمانه ، الأمر الذي يجعل كل فكر معارض بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ... ليس نار الآخرة فحسب وانما نار الاسلحة الحديثة والكيميائية والجلد ... كما نسمع كل يوم ...

وهكذا فإن حقوق الانسان وحرية الضمير والراي والتفكير التي اكتسبها الانسان في البلدان المتقدمة بعد كفاح طويل ضد استبداد الملوك ، والتي كانت في اول الامر مبدا قانونيا ، ثم اخذت تتحول بالتدريج الى مجموعة متشعبة من حقوق الانسان وتطورت من خلال التاثير المتبادل بين الحق النظري والممارسة لتصل الى حقوق ايجابية وضعية ، هذا التاثير المتبادل بين النظرية والتطبيق هو ما يفتقده تاريخنا قديما وحديثا ، هذا التاريخ الذي مهما حاولنا ان نضفي عليه من صور براقة مشرقة لها ملامحها احيانا ، يبقى مليئا بمتناقضات عبر الاجيال لا يقرها العقل ، ومنها تجاوز النصوص والاقوال عن كرامة الانسان وحريته الى جانب قصص القطعان من البشر التي امتلكها الخلفاء ، في عصور متعددة ، ومنها ما تعبر عنه قصص كثيرة لا تميز بين جيب الحاكم والدولة فهو خليفة الله الحاكم بتقليد منه (ابو جعفر المنصور) يفعل ما يريد ، وما تعبر عنه ابلغ تعبير قصة ذلك الحاكم الذي كان يامر بقطع راس اول وافد في يوم شؤمه واغناء اول وافد في سعده ، ومدحه الشاعر منافقا يقول :

لــه يوم بؤس فيه للناس ابؤس ويوم نعيــم فيــه للنــاس انعم
فيقطر يوم السعد من كفه الندى ويمطر يوم البؤس من كفه الدم

والآن لايزال هذا الاسلوب قائما على هذه الصورة او تلك لا فرق ما اذا كان هنالك دستور نظري مبني على الشريعة او العلمانية او لا دستور .. لأن الأصل العام المتحكم هو التناقض بين النص النظري والواقع الفعلي بين القول والعمل الذي حذر منه القرآن الكريم بالآية : يا أيها الذين امنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون .. ومع ذلك فان الخليل بن احمد الفراهيدي ، الذي وضع لنا قواعد اللغة مشكورا ... لم يكن مخالفا للمنطق السائد عندما قال :

انظر لقولي ولا تنظـر الى عملي ينفعــك قولي ولا يضرك تقصيري

ان حقوق الانسان وفي مقدمتها حرية الضمير والاعتقاد والفكر لم توجد بمعناها الأصيل وبعدها الحديث في البلدان الاسلامية لا قديما ولا حديثا .. واذا كانت قد ظهرت امارات وملامح لها محصورة ومشتتة في فترات معينة فانها لم تدم طويلا ولم تدخل في نسيج ثقافتنا ... وقد بقي المنطق السائد متواترا حتى عصرنا بحيث بقيت حرية الفكر والضمير غريبة ، ليس عند من يمارس السلطة فحسب ، وانما ايضا لدى من يتصدى للمعارضة .

وكما يقول المفكر العربي الذي اشرنا اليه : ان اية مقارنة بين قيمة الانسان الفعلية في كل ارجاء الرقعة الاسلامية الواسعة الممتدة من المحيط الهادي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، وبين قيمة الكائن البشري في بلد اوروبي أو اميركي يخضع لقوانين وضعها البشر وضمنت فيها حقوقهم ، تبرز ذلك الاهدار الدائم لحقوق الانسان وكرامته في الاغلبية الساحقة من البلدان الاسلامية .

ان وقوف السياف القديم الى جانب الحاكم ليمارس مهنته المخيفة ، لمجرد كلمة واحدة ـ على النطع الممدود ـ ان هذه الصورة المعروفة على مدار التاريخ ، لم تلغها النصوص المشرقة في الشريعة والادبيات المتواترة ولا الدساتير الحديثة .. وفي هذا كانت معاناة الجماهير العربية في ميدان حقوق الانسان وبخاصة حرية الضمير والفكر اشد من معاناة معظم شعوب الارض . والأخطر من ذلك ـ كما يقول ـ ان الخضوع المستمر للقمع افقد الانسان العادي الاحساس بحقوقه وبالتدريج اخذ انتهاك الحق القانوني يصبح شيئا طبيعيا واخذ الناس ينظرون الى هذه التصرفات على انها جزء من طبيعة الاشياء ، وبالتالي اخذت تقل قدرتهم على المطالبة بحقوقهم وهذا اكبر خطر يمكن ان يتعرض له مجتمع في ميدان حقوق الانسان ، عندما ينهزم من الداخل ويفقد القدرة على التمرد من اجل حقوقه المسلوبة ـ بل لا يشعر ـ من فرط الطغيان انه قد سلب شيئا .

ان الاتجاهات التسلطية هي التي تصبح لها الغلبة يوما بعد يوم والامر المؤسف ان التنمية القومية في بعض البلدان التي يبرزها فقهاء السلطان مبررا لاهدار الحقوق وسحقها ، لا وجود لها ... بل انها بكل اسف رهينة الفساد المتزامن والمتحالف مع الارهاب ومع التفاوت الطبقي المفرط في بعض البلدان . وهكذا يتآمر الماضي والحاضر ليحطما كل امل للانسان في اكتساب حقوقه

الانسانية . ولابد لتغييرهذا من تغيير شامل في منطـق السلوك وفي أساليب الحياة والتفكير وطريقة الممارسة في هذه المنطقة من العالم واعطاء مضمون الكلمة المأثورة « لا يجوز لأحد ان يسكت عن الخطأ » بعدها الكامل في حرية الـرأي والنقد والتعبير وازالة كل عائق يحول دون ممارسة هذه الحرية ، ووجـود التعددية وضمان حرية الصحافة والنشر .

منذ فترة قصيرة وبمناسبة الاحتفال بميلاد لينين لعام ١٩٩١ تميز هذا الاحتفال لأول مرة بالهجوم عليه بعد ان كان منذ ما يقرب من ثلاثة أرباع قـرن يعلو عن النقد وله صفة المعصوم . وقد كتب /فياتسيسلاف شوستولوفسكي/ عميد معهد الدراسات العليا التابعة للحزب الشيوعي :

« انه لشيء مدمر لأي مجتمع ان يكتشف الناس فيه ان اعظم اساطيرهم مبني لا على الحقيقة ، انما على الدعاية والخيال ، ولكن هذا ما نتعرض له الان في حالة لينين الثورة » .

ويكفينا بؤساً ان نقول : اننا عشنا هذه الاساطير قديما وفي القرن العشرين ولذلك لا بديل في رأينا عن حرية الفكر والضمير وحمايتها في ظل دولة القانون وبدون هذا ... سيبقى التخلف والتردي الى يوم القيامة .

المراجـع والحواشي

1 — L'Abus de droit (التعسف باستعمال الحق) باريز ١٩١٠ ص ٢٧٥ .
٢ — المرجع السابق ٢٨٠ .
٣ — بول روبييه — الحقوق الشخصية والمراكز القانونية — (بالفرنسية) ص ١٥٥ .
٤ — المرجع السابق ص ١٦٠ .
٥ — المراكز القانونية ومظاهرها في التشريع السوري — عبد الهادي عباس — دار الحكمة ٩١٨ ص ٢٥٠ — وما يليها .
٦ — الحقوق الشخصية والمراكز القانونية — بول روبييه — المرجع السابق .

٧ – تاريخ اعلان حقوق الانسان البير بابيه – ترجمة محمد مندور ص (٢٠)
٨ – الحريات العامة – ريفيرو جزء ١ ص ١٤ (بالفرنسية).
٩ – حقوق الانسان والمواطن (لوران ويتشر) بالفرنسية ص ٢٢٠ .
١٠ – حقوق الانسان والمواطن (لوران ويتشر) بالفرنسية ص ٢٢٥ .
١١ – القانون الدستوي – دوغيه – جزء ٢ ص ٢٣ .
١٢ – جان ريفيرو – المرجع السابق .
١٣ – الحريات العامة في فرنسا والعالم – جان بول كوستا – بالفرنسية ص ٢٤٠ .
١٤ – الحريات العامة في فرنسا والعالم – جان بول كوستا – ص ١٦٠ .
١٥ – عبد الكريم ناصيف – ١٩٨٤ ترجمة .
١٦ – الحريات العامة – جان مورانج ص ٦٤ (بالفرنسية).
١٧ – حقوق الانسان والمواطن – المرجع السابق – ويتشر ص ٢٦٧ .
١٨ – حقوق الانسان والمواطن – المرجع السابق .
١٩ – بحث في الحرية – جون ستيوارت – ترجمة دار اليقظة دمشق ١٩٥٧ .
٢٠ – الضمير الاوروبي – بول هازار ترجمة طه حسين ص ٩٩ .
٢١ – في كتابه (حقوق الشعب) ترجمة مكرم عطية ومحمد كيالي بيروت ١٩٦٢ .
٢٢ – في كتابه (حقوق الشعب) ص ٢٢ .
٢٣ – الدكتور حسن حنفي – في كتابه – في فكرنا المعاصر ص ١٢ .
٢٤ – الدكتور حسن حنفي – في كتابه – في فكرنا المعاصر ص ٤١ .
٢٥ – جوسران – المرجع السابق .
٢٦ – المسؤولية المدنية – حسين وعبد الرحيم عامر ص ٢٦ .
٢٧ – د. فؤاد زكريا – في كتابه الصحوة الاسلامية في ميزان العقل ١٩٨٥ .
٢٨ – دار التنوير – بيروت ص ١٠٣ وما يليها .
٢٩ – المرجع السابق .
٣ – المرجع السابق .

★ ★ ★

حول التأثر الثقافي بين العرب والأمم الغربية

حافظ الجمالي*

من المعروف ان الأمة العربية برزت في التاريخ بروزا مفاجئا ، بدءا من منتصف القرن السابع ، أو قبل ذلك بقليل ، ومع ان هذا البروز كان عسكريا في البداية فانه سرعان ما اصبح حضاريا . وفي وسعنا التاكيد بان الفترة الزمنية التي امتدت بين حكم معاوية بن ابي سفيان (٦٦٠ ــ ٦٨٠ م) وبين نهاية عصر المأمون الخليفة العباسي السابع (٨١٣ ــ ٨٣٣ م) .

* حافظ الجمالي : كاتب من القطر العربي السوري ، يكتب مقالات ودراسات حول الواقع العربي وآفاقه المستقبلة . له عدد من المؤلفات والترجمات ، مثل (الثورة الفرويدية)

كانت كافية لكي تصبح اللغة العربية ، لغة الثقافة العامة في منطقتي الشرق الادنى والاوسط .وفي المغرب العربي كله . ولهذا استطاع ماسينيون المستشرق الفرنسي المشهور ان يقول : « ان هذه اللغة اصبحت اداة التواصل الدولي في العلوم والتقنيات المختلفة »(١) والحقيقة ان بروز هذه اللغة قضى على لغتين ساميتين مشهورتين في الشرق الادنى ، هما الآرامية والسريانية(٢) ، على كونه استفاد منهما ، وخاصة من الاخيرة ، فائدة كبيرة . ذلك ان الثقافة جملة ، اصبحت في المرتبة الاولى من سلم القيم السائدة لدى جميع الناس ، من رجال الحكم الى العامة ، ويروى عن البيروني (٩٧٣ — ١٠٤٨) انه قال : لا ينبغي لعلمك ان يكون كاللباس الذي ترتديه ولا يجوز ان يغسل عنك بماء حمامك .

لكن هذه الثقافة لم تكن من مبتكرات العرب وحدهم ، بل انها اخذت من الامم السابقة لهم ، ويروى ان معاوية ، اول خلفاء الأمويين ، كان يقضي الثلث الاخير من الليل بقراءة سير الملوك ،وحروبهم ، واسرار سياساتهم . وطبيعي ان اخبار هؤلاء ، نقلت الى العربية من اللغة السريانية خاصة ، وربما نقل بعضها عن الاغريقية . ويروى ان « خالد بن يزيد » حفيد معاوية كان يملك مكتبة عامرة بالكتب ، وكان له اهتمام خاص بالكيمياء او السيمياء (كما كانت تسمى آنئذ) وليس من الممكن الاعتقاد بانه كان وحيدا بين الناس .

ولكن الترجمة لم تقتصر على ما كان متداولا في المنطقة السورية ، بل انها امتدت ، وسرعان ما امتدت ، الى الفارسية ، والهندية ، ومن المعروف ، بصورة عامة ، بين الناس ان ابن المقفع ، الاديب المشهور والذي عاش في عهد المنصور الخليفة العباسي الثاني هو الذي ترجم كتاب كليلة ودمنة(١) ، كما ان البيروني الذي سبق ذكره هو الذي نقل جزءا غير ضئيل من علوم الهند ، وحِكَمِها ، وفلسفتها .

---

(١) Les Arabes, œuvre collective, MARC/BERGER, P : 320 Editions Lidis, Paris.

(٢) وحتى اللغة الفارسية أصابها الضمور ، ولم تعد اكثر من لغة محلية .

١ كتاب كليلة ودمنة ، الفه براهمان هندي عاش بين القرنين الرابع والسادس للميلاد ، وفي كشمير على اصح الاحتمالات.وكانت اللغة الاصليةهي السنسكريتية ويبدو ان ابن المقفع اضاف الى الاصل بعض الاضافات ، منها الفصل الثاني من الاصل العربي ، وكذلك اضافت الترجمة الفارسية ، سبعة فصول ، وقد ترجم الكتاب العربي ، الى اللغة الكاستيلية حوالي عام ١٢٥١ .

ومن جهة اخرى ، فان الترجمة لم تبق عند حدود المتطوعين لها من عامة الناس كابن المقفع ، أو البيروني ، بل أصبحت احدى المهام الرسمية للدولة .

وكان المنصور (٧٥٤ ــ ٧٧٥) م أول من فهم ضرورة الترجمة . جمع في بلاطه جماعة من المنجمين ، والأطباء ، والأدباء ، وكان على رأس أطبائه ، ذلك الطبيب المشهور نوبخت الذي أسلم على يديه . ويقال انه هو الذي أمر ابن المقفع بترجمة كتاب كليلة ودمنة ، وأمر الفزاري بترجمة كتاب « السند هند » وهو الكتاب الأساسي في الفلك ، كما أمر بترجمة كتب مختلفة لأرسطو في المنطق ، والماجسطي لبطليموس ، وكتاب اقليدس في علوم الهندسة والحساب ، ومجموعة كبيرة من الكتب القديمة الاخرى ، نقلت عن الاغريقية ، والبيزنطية ، والبهلوية الفارسية والسريانية .

وعندما يطلع الانسان اليوم على ما ترجمه المترجمون ، كما أحصاه جرجي زيدان في كتابه عن « التمدن الاسلامي » فانه لا بد له من القول : انه لم يبق بين كتب اليونان العظام ، شيء لم يترجم ، ما عدا كتب الشعر والمسرحيات ، لأن اليونان كانوا يتحدثون فيها عن آلهتهم الوثنية ، مما كان المسلمون لا يتقبلونه . وعلى سبيل المثال نذكر من المترجمين :

آل بختيشوع		من القرن ٨ ــ ١٠	
آل نوبخت		من القرن ٨ ــ ١٠ أيضا	
الفزاري	وقد ترجم	السند هند	(القرن ١٠)
سرجيوس بن اليا	وقد ترجم	الفلاحة الرومية ، الغذاء لبقراط والترياق لجالينوس ، حوالي عام ٨٣٧ م	
ابن وحشية	وقد ترجم	الفلاحة النبطية (القرن ٩)	
وآل قرة		القرن (٩ ــ ١٠)	

وقد ترجموا عددا كبيرا من الكتب ، حتى ليمكن القول ان المثقف العربي في القرن الثاني والثالث الهجريين ، وما بعدهما أيضا ، لم يكن تنقصه المراجع الهامة المعروفة لدى الاغارقة[1] ، وكان هؤلاء بالقياس الى غيرهم من الامم ،

(1) الاغارقة : هم اليونانيون .

كالفرس او السريان ، او الهنود ، هم اللذين احدثوا اكبر الاثر في الثقافة العربية . ومع إن العرب لم يطلعوا على الادب اليوناني ، فانهم مع ذلك اطلعوا على ما كتب في النقد الادبي . ويعد قدامة بن جعفر (توفي عام ٩٤٨) م أول من تأثر بنظريات النقد الادبي (وبخاصة لدى أرسطو) في كتابيه نقد الشعر ، ونقد النثر .

ومن الغريب ان الفلسفة اليونانية ، حلت في الصدارة من الاهتمامات العربية . ولا شك ان الفارابي ، المعلم الثاني ، كان من اغزر الناس اطلاعا على المؤلفات اليونانية ، ولولا ذلك لما كتب كتابه « آراء اهل المدينة الفاضلة » كما ان ابن حزم تأثر بأفلاطون ، وتأثر اخوان الصفا بافلوطين بالتأكيد . اما رسائلهم في العلوم الاخرى ، فانها بالتأكيد متأثرة تأثرا كبيرا بكتب اليونانيين .

اما الموضوع الثاني الذي استأثر بالاهتمام ، فقد كان الطب ، بسبب الحاجة الماسة اليه . وهنا نجد اسماء آل بختيشوع ، وابن ماسويه في كتابه عن النوادر الطبية ، والحميّات ، والطبري في (منابع الاطعمة) ، وحنين بن اسحاق في كتبه « عشر مقالات في العين » ، (والمدخل في الطب) ، والجرجاني في كتابه : (المئة في الطب) (توفي عام ١٠١٠) وابن سينا ، وعلي بن عيسى وابن جزلة والزهراوي وكل هؤلاء اخذوا ما يعرفونه عن الطب من كتب اليونان ، ولكن التجربة والذكاء الشخصي ، اضافا الى علوم اليونان معارف أعمق وأوسع .

ونظن ان العرب تأثروا كذلك في معارفهم الجغرافية بما ترجم عن الاغارقة ايضا ، لاننا لا نعرف لهم مراجع اخرى . ومما يذكر ان اساتذة مدرسة (جند يسابور) الطبية التي كانت تدرّس مواد نظرية واخرى عملية في العهد السابق للاسلام (وكانت تدرّس باللغة الآرامية ، على الرغم من ان مؤسسها احد ملوك فارس ، واسمه سابور) ، هؤلاء كان لهم اثر كبير في حركة الترجمة والتأليف .

وغني عن البيان ان الانفتاح على الثقافة العالمية بهذه الصورة الواسعة لم يكن ممكنا لولا ان الدين الاسلامي حضّ على العلم اكبر الحض ، ولولا ان العقل العربي لا يحسن الانغلاق بقدر ما يحسن الانفتاح(١) .

(١) انظر في هذا كله المرجع المشار اليه سابقا : Les Arabes

وفي وسعنا ان نقارن عهد النهضة العربية الاولى ، بالعهد الجديد الذي تم او يتم فيه الانفتاح العربي اليوم على الامم كافة بل إن الترجمة من الفرنسية والانجليزية والالمانية والروسية والبلغارية ، والاسبانية ، تفوق في هذه الأيام كل عهد سابق ، لكن الفرق الكبير بين الحاضر والماضي ، هو ان العرب ورثوا حضارات انقطع انتاجها ، كالحضارة اليونانية ، او قلّ انتاجها ، كالحضارة الفارسية او الهندية ، فتمّ لهم ما أرادوه ، اما الآن ، فان الترجمات كثيرة ، ولكنها لا تستطيع أن تواكب الانتاج الغربي ، ولا أن تدانيه ، وفي هذا ضعف سببه الاول ضعف الثروات العربية او تخلف الدول العربية ، الذي يردّ بالدرجة الاولى الى اسباب اقتصادية . ذلك ان البلاد الغربية واحات كبيرة ، فيها صحارى صغيرة اما البلاد العربية ، فانها واحات صغيرة جدا في صحارى كبيرة جدا . وعلى سبيل المثال فان كل المساحة الصالحة للزراعة في مصر لا تزيد عن ٣٥٠٠٠ كم٢ من أصل مليون كم٢ ، هي مساحة مصر .

لكن العرب لم يقتصروا على تملك الثروات الثقافية للأمم السابقة لهم ، ولا سيما الغربيــة منها ، بل انهم كانوا واسطة انتقال للثروات العقليــة ، والثقافية ، والزراعية ، والصناعية ، الى اوروبا . فلقد نقلوا الحرير والخزف والبارود ، والملح الصخري والورق ، الى اوروبا ، وكان اول مصنع للورق قد انشىء في بغداد حوالي العام ١٨٤ هـ (او ٧٥٢ م)(١) ، وكذلك نقلوا انتاج الحرير ، وزراعة التوت والقطن وقصب السكر . وشجرة النيلة وفي الاندلس حسن العرب نظام الري ، وأدخلوا زراعة الارز والبرتقال والليمون والمشمش والباذنجان والخرشوف .

وادخل العرب الى اوروبا صناعة البلاط ، وصورة طلائه وصبغ البلور الصخري (الكريستال) بأسلوب اكتشف في قرطبة في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة . وفي القرن الرابع كانت مجوهرات قرطبة تضاهي مجوهرات بيزنطة . وزادوا على هذا فادخلوا الى اوروبا انواعا كثيرة من الاقمشة ، فدخل

(١) كان ذلك ، اول الامر ، في مدينة سمرقند ، حيث قام بعض الاسرى من الصين . بانشاء مصنع للورق . (في عهد المنصور عام ٧٥١ م) ، ثم انشىء مصنع آخر في بغداد عام ٧٩٤ ، في عهد هرون الرشيد ، وانشىء مصنع ثالث في دمشق ، منها انتقلت الصناعة الى المغرب فاسبانيا ، لتدشن دخولها الى العالم الاوروبي .

معها كثير من الكلمات العربية المقابلة لها ، وتحتفظ الانجليزية بكلمات مثل Gauze اي القز" و Tabbi اي الحرير العتابي ، نسبة الى حي العتابية في بغداد والـ Mohair ، نسيج الوبر ، « المحيّر » وموسلين Muslin (نسبة الى الموصل) و Damask (نسبة الى دمشق) و Cotton « القطن » ، فضلا عن ان العرب هم الذين ادخلوا الابتلين الذي هو العنصر الاساسي في تركيب الاصبغة الى البلاد الاوروبية .

ومن يطالع كتاب قصة الحضارة ، ويتمعن في الجزء الخاص بالعرب او يطالع كتاب « العرب ... Les Arabes » الذي نستشهد به في حديثنا هنا ، او يطالع كتاب محمد كرد علي الذي عنوانه : « الاسلام والحضارة العربية » ولا سيما الفصل المتعلق « بثروة العرب وعلومهم » او كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » للمستشرقة زيغريد هونكه الالمانية ، يجد ما يسد" حاجته الى معرفة ما اخذ العرب عن الغربيين اليونان ، ثم ما ردّوه اليهم فتوسعوا فيه او تعمّقوا في معرفته .

والملاحظة الوحيدة التي نختم بها حديثنا هذا ، هو ان العرب درسوا لغتهم ، ودينهم ، وفقههم ، بأنفسهم ، دون ان يحتاجوا الى مقارنتها بغيرها كما ان آدابهم ، من شعر ونثر من ارقى الآداب العالمية . وليس من المبالغة في شيء ان نقول : ان الشعر العربي قفز الى مستويات عليا ، ربما قل" مثيلها في العالم .

★ ★ ★

ونصل الآن الى القسم الثاني ، من حديثنا ، اي الى القسم المتعلق بتأثير العرب والثقافة العربية (او الاسلامية) في الغرب ، ولنتساءل هل استطاع العرب أن يردوا الى الغرب ما استدانوه منه ، من العلوم والمعارف ؟

وطبيعي ، ولا ريب ، ان تكون الأندلس ، اي اسبانيا ، هي المكان الذي تزاوجت فيه الحضارتان العربية والغربية والمهد الذي ربّي فيه المترجمون الاسبان ، الذين نقلوا الكثير من الكتب العربية الى لغتهم او الى اللغة اللاتينية . يشهد على ذلك ان « الفارو » اسقف قرطبة ، قال مرة : « كثيرون

من أبناء ديني يقرؤون أشعار العرب وأساطيرهم . ويدرسون ما كتبه علماء الدين وفلاسفة المسلمين ، لا ليخرجوا عن دينهم . وانما ليتعلموا كيف يكتبون اللغة العربية ، مستخدمين أساليبها البلاغية . فأين نجد اليوم مسيحيا عاديا يقرأ النصوص المقدسة باللغة اللاتينية ؟ من منكم يدرس اليوم الكتاب المقدس أو ما قاله الرسل ؟ ان كل الشباب النابه منصرف الآن الى تعلم اللغة والادب العربيين ، فهم يقرؤون ويدرسون بحماسة بالغة ، الكتب العربية ، وينفقون اموالهم في اقتناء الكتاب ويتحدثون في كل مكان بأن الادب العربي جدير بالدراسة والاهتمام . واذا حدثهم احد عن الكتب المسيحية اجابوه بلا اكتراث: « بان هذه الكتب تافهة لا تستحق اهتمامهم »(١) .

وحقا فقد كانت الاندلس تلك الارض التي تم فيها اكبر الاختلاط بين الغربيين والعرب . ولم يكن غريبا ان يتحالف بعض الأمراء الاسبان مع بعض الأمراء العرب ، ضد أمراء آخرين من دينهم ينازعونهم السلطان . وأدّى هذا الاختلاط الى اطلاع كل فريق على ما عند الآخر . ولما كانت الثقافة العربية هي الارقى والأزهى فانها هي التي احتلت المقام الاول في اهتمامات الغربيين . تعلما ونقلا ، وهكذا فان مظاهر الحضارة العربية المختلفة ، حتى الادب والفنون والعمارة والغناء والرقص ، انتقلت هي أيضا بحكم هذا الاختلاط . ولكن آثار هذا كله لم تنحصر في الأندلس ، بل تجاوزتها الى أوروبا كلها ، لا سيما وان المسلمين احتلوا بعض المناطق في جنوب فرنسا . وجنوب ايطاليا وصقلية ، وكثيرا من الجزر المجاورة ولا يمكن أن نفهم قرب اللغة المالطية من اللغة العربية ، الا عن طريق هذا الاختلاط المتطاول ، وشيوع آثاره لا في اسبانيا وحدها . حيث كثرت الترجمات عن العربية ؛ بل في كل مكان آخر في اوروبا ، مما جعل العلم « العالمي » علما عربيا بالدرجة الاولى ، كما ان العلم الآن « غربي — امريكي » بالدرجة الأولى .

ولكن الحروب الصليبية (١٠٩٥ — ١٢٩١) م التي دامت قرنين كاملين مع ما تبعها من حروب ، واتصالات جانبية ، وانتقال للأسرى من مكان الى

---

(١) كتاب شمس العرب تسطع على الغرب ، ص : ٥٢٩ ، وقد قرأت هذا النص ذاته في كتاب « قصة الحضارة » في الجزء الخاص بالحضارة الاسلامية أو العربية ، وقد ترجم كتاب (شمس العرب) الى العربية وتجد هذا النص في ص ٣٩٨ منه .

مكان كل ذلك قد عزز حركة الترجمة عن العربية ، وعرّف الغربيين ببعض التراث العربي . ولم يكن من السهل تجاهل علماء كبار ، وما لهم من آثار في الحساب والهندسة والجبر ، وعلم المثلثات ، والبصريات والمائيات ، والموسيقى ، والجغرافيا ، وكان العلماء منتشرين في كل مكان ، من هؤلاء من كتب في بغداد في بداية القرن التاسع ، مثل عالم الجبر الخوارزمي ، ومنهم من كتب في سمرقند كالرياضي الكاشي في القرن الخامس عشر ، أو في القاهرة في القرن الحادي عشر كابن الهيثم في البصريات ، أو حتى في قرطبة في القرن الحادي عشر ، كالفلكي ابن الزرقلة ، او القلصادي في القرن الخامس عشر (١٤١٠ — ١٤٨٦) م في غرناطة ، وقل هذا في سائر العلوم .

اما الطريق الثالث الذي تم فيه هذا الانتقال فهو طريق التجارة التي نشطت بين مدن ايطاليا المختلفة ، وبين الشرق ، وكان السبّاق هنا هو مدينة فينيسيا أو (البندقية) ، منذ عام (٩٦٠) م . وتبعتها في ذلك مدن ايطاليا الاخرى ،ولاريب ان التجارة لم تنقل البضائع فحسب بل نقلت معها أشياء كثيرة أخرى هي أجزاء هامة من الثقافة العربية .

وهكذا فان الاختلاط الذي تم في اسبانيا بين الثقافة العربية والاسبانية والحروب الصليبية والتجارة بين الشمال والجنوب ، (وكذلك بين الشرق والغرب عن طريق البلاد العربية) هي العوامل التي عملت على نقل الثقافة العربية وكتب مؤلفيها ، وصور فنونها ، الى الغرب .

ويمكن التساؤل الآن هل كانت حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية (لغة العلوم في القرون الوسطى) نشيطة ، كما كان أمر الترجمة من اللغة الاغريقية أولا ، ثم من غيرها من اللغات المجاورة ثانيا (الفارسية ، والهندية .. الخ ..) الى اللغة العربية ؟ وبصورة أوضح هل اطلع الغربيون على الثقافة العربية ومنجزاتها كما اطلع العرب على منجزات الثقافة اليونانية ؟

الحقيقة ان تيار الترجمة من العربية الى اللاتينية لم يعمر طويلا ، ذلك أن المدة الزمنية الفاصلة بين نهاية الحروب الصليبية (١٢٩١) م وبين فتح بيزنطة أو القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ، لم تكن طويلة ولا كانت الشروط العامة لحياة الدول تؤهلها للانتباه الى العلم والعلماء ، وبالتالي فاننا نعرف اليوم

من الكتب العربية المترجمة حديثا الى اللغات الأجنبية اكثر بكثير مما نعرفه عن المترجمات القديمة . وباستثناء ابن رشد ، وابن سينا (الذي اشتهر كطبيب كبير ، الى جانب كونه فيلسوفا) وكبار فلاسفتنا وعلمائنا (كالكندي والفارابي وامثالهم) لا نعرف فعلا ما ترجمه الاسبانيون من الكتب العربية ولا نعرف كذلك ما اذا كانت هذه المترجمات قد نقلت الى اللغات الأوروبية الاخرى عن اصلها اللاتيني . ولكن لما كانت اللاتينية هي لغة الثقافة في اوروبا ، فلا بد ان العلماء الاوروبيين استفادوا قطعا مما نقلوه عنا .

وكان فتح القسطنطينية حادثا هاما في التاريخ الثقافي ذلك ان العلماء اليونان ، تفرقوا في مختلف انحاء القارة الأوروبية ، واستطاع الأوروبيون بفضلهم ان يعودوا الى الاصول الاولى للثقافة الاغريقية من غير المرور بالكتب التي ترجمها العرب . ولهذا فان التاريخ الغربي يهمل باستمرار ما كان للعرب وحضارتهم من تأثير في الحضارة الغربية .

ولهذا السبب استطاع غوستاف غرينباوم النمساوي ان يقول :

« عندما يحلل المرء الحضارة الغربية كما تبلورت إبان العصور الوسطى وعصر النهضة – ابتغاء البحث عن مقوماتها الرئيسية – فانه يلمس بوضوح ذلك التأثير المحدود الذي كان بينها وبين العالم الاسلامي من اتصالات مستطيلة ولكنها سطحية شيئا ما . وقد يقال إن الحضارة الإسلامية ساهمت بقدر كبير من التفاصيل ، كما قامت بما يسمونه في الكيمياء بدور المُيَسِّر الكيميائي ، على أنها لم تؤثر في البنيان الجوهري للغرب ، وربما كان هناك وجه للمشاحنة في مدى صدق الحضارة الغربية الحديثة ، بأنها استمرار للحضارة الكلاسيكية – ولكن من غير المعقول أن يبلغ الامر بنا أن نتساءل عما إذا كان أيٌّ من عناصرها راجعاً الى الالهام الإسلامي ، فلقد كان يجمع بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، أصلان مشتركان على أقل تقدير ، هما التراث الثقافي للعالم الوثني .. والتوحيد اليهودي المسيحي ، وقد أظهر الشرق أنه الوارث الاكبر رعاية للضمير حتى هب قسيمه الغرب نادماً والتفت الى اصوله تؤازره في ذلك هداية الشرق ، مؤازرة عظيمة ... وفيما . عدا مذهب ابن رشد ، فانه ليس للفكر الاسلامي أي تأثير في الفكر الغربي » (١) .

---

(١) هذا راي غرينباوم طبعا . لكن المستشرقين الاخرين لا يرون كلهم مثل هذا الراي . وربما وجد بينهم من يبالغ في الراي المعاكس .

ولكن هذا المؤلف نفسه لا يلبث ان يضيف فقرات اخرى اكثر إنصافا ، إذ نراه يقول :

« ليس ثمة ميدان من ميادين الخبرة الانسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم ولم يزد ثروة التقاليد الغربية غنى . فثمة الاطعمة والأشربة والعقاقير والأدوية والسلاح والدروع،ونقوشها،والفنون الصناعية والتجارية والبحرية ، ثم بعد ذلك الأذواق والموضوعات الفنية ، ودع عنك الحديث في المصطلحات العديدة في الفلك والرياضيات ... وكانت الحروب الصليبية اعظم مغامرة أقدم عليها الانسان في العصور الوسطى وابعدها اثرا . ذلك ان القصص الاسلامي والأخيلة الشعرية ، وفلسفة الغيبيات الاسلامية ، وجراة المذاهب الصوفية الاسلامية . قد تركت جميعها آثارها في بلاد الغرب في القرون الوسطى . ولا شك ان اعظم رجال اللاهوت واعظم الشعراء في القرون الوسطى في الغرب ، مدينون للاسلام (العرب) باكبر الفضل في ناحيتي الالهام والمادة جميعا ، مثل توماس اكويناس (ت. عام ١٢٠٤) م الذي تأثر بمذهب ابن ميمون (المتوفى عام ١٢٠٤) م وبفكر ابن رشد (المتوفى عام ١١٩٨) م . واستخدم طرق الجدل المألوفة عند علماء الكلام الاسلاميين (المعتزلة) . ولا يكاد انسان يشك في فضل اصحاب الرؤى الحالمين من المسلمين على « دانتي » بعد ان ترجمت آراؤهم ، وذاعت الى حد ما ، وكذلك بذلت جهود شبيهة بهذه في ميدان الكيمياء القديمة والتنجيم كان فيها الاسلام هو المعلم وعالم النصرانية هو التلميذ .

ولقد نقلنا هذا النص تعبيرا عن فكر مؤلف يجعل التأثير العربي الاسلامي في الغرب ، في اضيق الحدود . ولكن ما ايسر ان نأتي بنصوص من كتاب (العرب)(١) الذي استشهدنا به في هذا الحديث ، او كتاب : شمس العرب — تسطع على الغرب ، لكي نزيد في قيمة هذا التأثير ونفرط في ذلك .

ونذكرنا هذا الكلام بما قاله ليفي بروفنسال ، في كتابه : تاريخ اسبانيا المسلمة — وهو كتاب قلما يستعاض عنه بغيره — إلا بعد زمن طويل — عن تأثير

(١) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب ، بعنوان حضارة الاسلام ، بقلم عبد العزيز جاويد ، ومراجعة عبد الحميد العبادي في مجموعة الالف كتاب المصرية . نشر مكتبة مصر . الفجالة ، ص : ٤٥٥ — ٤٥٦ .

العرب المسلمين في حياة اسبانيا(١) ،ذلك أنه يصرّح بالقول : تمتاز هذه الحضارة بطابعها الذي لا ينكر ، وبالاهمية الاساسية لاقتباساتها من المشرق . وما من شك في ان الزراعة لم يطرا عليها تغيير جذري .. ولكنها افادت من التوسع في اعمال الري،ومن التجارة مع المدن.،.ويرجع تاريخ الحدائق الاندلسية او تاريخ النواعير التي اقيمت على الأنهار الكبرى الى العهد الاسلامي ونحن إنما نحرص على عدم المبالغة في تقدير اصالة المؤلفات الزراعية الإسبانية ـ العربية ، لكنه ليس من قبيل المصادفة ان تتوسع وتنتشر هذه المؤلفات توسعا كبيرا . كذلك اشتهرت مناجم الفضة والرصاص والحديد والقصدير والزئبق ، كما اشتهرت بعض مقالع الحجارة الكريمة ومصائد المرجان والعنبر ، وازدهرت المدن مثل قرطبة .. التي حلت محل خليطلة . وكانت حقا مدينة كبرى ، يشهد على ذلك قصرها ومسجدها الشهيران . وفيها استطاع السكان (الذين اختلطوا فيما بينهم) ان يؤلفوا بين العادات الشرقية التي جاء بها بعض الاختصاصيين ، مثل زرياب المغني الذي ذاع صيته في البلاد . وبين تقاليد الحياة الاندلسية وفتنتها . وادت التجارة الدولية الى ازدهار الموانىء الكبرى .

وفي وسعنا ان نتبع مثاله ، ونحتذي حذوه ، اذا قلنا : انه ليس مجرد مصادفة ان تبدأ تباشير النهضة الغربية بعد الحروب الصليبية مباشرة . وعندنا : انه لولا ما استفاده الغرب من الشرق من جراء هذه الحروب ، لما كان لها ان تصل الى النهضة بمثل هذه السرعة .

ومع ذلك لا نزال نفتقر الى تقويم سليم لآثار الحضارة العربية في الحضارة الغربية ، ذلك ان هذا الموضوع ما زال في بعض اهم اجزائه غامضا ، وكما لم تحص الكتب المترجمة عن العربية قبل عصر النهضة ، ولا توبعت آثارها لدى المفكرين الغربيين بدقة ، فإنه لا يمكننا القول : إن كل هذه الآثار هي ما حدثنا عنه غرينباوم ، او كلود كاهن ، ذلك اننا ما نزال نجد مثلا من يشك في علاقة الكوميديا الالهية لدانتي الشاعر الايطالي ، برسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، ولكن لا يمكن ان يقع الحافر على الحافر بمثل هذه الدقة بمجرد توارد الخواطر ، كما انه لا يمكن ان ننفي تأثر دانييل دو فو Daniel Defoe في قصته عن ربنصون كروزو ، بكتاب الف ليلة وليلة ، او كتاب حي بن يقظان لابن الطفيل .

(١) راجع كتاب : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص : ١٩٣ .

ولا شك ان نمو حركة الاستشراق ، وتعمق دراساتها ستكشف يوما ما عن حقيقة هذا الاثر ، لا ليفخر العرب به من جديد فذلك امر مضى وانتهى ، ولا يهم العرب اليوم أن يكون ماضيهم سعيدا ، بل الذي يهمهم هو سعادة الحاضر والمستقبل ، وان تتقرر الحقيقة الابدية القائلة بأن الامم تتبادل التأثير فيما بينها ، ويعزز بعضها منجزات البعض الآخر . وان على هذا القانون ان ينقلب الى واجب اخلاقي ، بدلا من ان يكون مجرد حقيقة عفوية ، يفرزها التاريخ بصورة تلقائية .

واذا وَجَدَ الغربي انه يسعد بحضارة ارقى الآن من الحضارة العربية فعليه ان يتذكر ان البلاد الاسلامية كلها جملة واحات صغيرة في صحراء كبيرة على حين انه يعيش ، هو ، في جنة كبيرة تتخللها احيانا بعض البوادي الصغيرة وان ثروات ارضه الباطنية لا تقل غنى عن ثرواتها الظاهرية . وانه يرى من مصلحته ان يحول دون اي تقدم عربي . أو لبلاد العالم الثالث ، في حين انه لا يبخل بمئات المليارات من الدولارات ، للقضاء على اولى التباشير النهضوية ، وهدم القائم بألف جهد وجهد من المنشآت والمنجزات .

ومن جهة اخرى ، فان من الواضح ان الغرب يبذل اقصى الجهد للاستئثار بكامل منافع الحضارة ، وحجبها عن الاخرين ، ولست أدري أين قرأت انه قبض على طالب عربي في الولايات المتحدة ، كان يجمع المعلومات حول صناعة القنبلة النووية ، من الكتب الموجودة في المكتبات العامة ، وضبط منه كل ما سجله من هذه المعلومات ، خوفا من أن تتسرب اسرار هذه الصناعة المربحة والمريحة الى بلده . ولكن هذا ليس الا القليل مما يفعلونه ، ففي أمريكا نفسها يحرمون على الطلاب العرب دراسة اختصاصات معينة من الطب ، ولا يسمحون الا بجوانب خاصة منها . وفي المانيا يوجهون الطلاب العرب ، اذا هم قبلوهم بعد لأي ، الى دراسة اختصاص واحد ، هو التخدير . وفي فرنسا يقيمون الف حاجز ضد جملة انواع من الدراسات المتصلة بالصناعات المتقدمة، وحتى في الطب ايضا . وفي الاتحاد السوفييتي سابقا ولاحقا ، وكذلك من في الدول التي كانت تسير في فلكه ، كانوا يتساهلون مع الطلاب العرب ، ويوصلونهم الى الحصول على شهادة الدكتوراه بأيسر السبل ، بل إن في فرنسا نفسها — وربما في غيرها ايضا — متعهدين معروفين لكتابة الاطروحات نيابة

عن طالبيها ، لقاء بعض المبالغ النقدية ، مما يعني أن حوائل كثيرة تقف الان ضد شيوع منجزات العلم الحديث ، وتقنياته ، كما لو أن الغربيين يريدون الابقاء على الانقسام الحالي في الحضارات ، بصورة ابدية ، أي انقسام العالم بين حضارتين واضحتين ، احداهما لعالم التخلف ، والاخرى لعالم التقدم(١).

ومهما يقل عن الجهد الذي تبذله الامم المتخلفة — والعرب منها طبعا — للحاق بالركب الحضاري العالمي ، فان من المؤكد ان هذا الجهد ، في اروع درجاته ، سيكون قاصرا عن بلوغ شأو الحضارة الغربية ، على الرغم من أن جهد الترجمة — سواء ارعته الدولة ام لم ترعه — جهد كبير جدا . لاريب ان عرب هذه الايام يترجمون الكثير الكثير من الكتب الاجنبية . الا ان من الواضح انه ليس هنالك جهد مركز لترجمة ماتجب ترجمته من الكتب العلمية . ومن هنا جاءت الترجمات ، وكأنها مركزة على العلوم الانسانية ، والروايات ذات الشهرة ، والكتب الادبية .

ولكن حتى اذا وحد الجهد العربي ، حول نقل الحضارة الغربية الى لغتنا العربية ، فلا بد من القول ان هذا الجهد عاجز « ماديا » عن القيام بمهمته هذه لضعف الموارد المالية . ومن المعروف ان امريكا تنفق ٧ر٢ ٪ من الدخل القومي على البحث العلمي ، (وبالمناسبة فان الدخل الامريكي يزيد الان عن ٥٥٠.٠٠ مليار دولار) مقابل ٣٧٠ مليار دولار للعرب كلهم. وقد مثل ذلك في اليابان ، اذ هي تنفق ٨٧ر٢٪ من دخلها الذي يصل الى ما يعادل ٣٠٠.٠ مليار دولار ، وتنفق ايطاليا نسبة مقدارها ٣٢ر١ ٪ من دخل قدره ٨٧٧ر٣ مليار دولار ، وتنفق انجلترا نسبة ٢٩ر٢ ٪ من دخل قدره ٨٣.٠ مليار دولار . وقريبة من هذه النسبة (أي ٢٣ر٣) تلك التي تنفقها فرنسا . ودخل هذه يصبح الان في حدود الالف مليار دولار اما اعلى نسبة في الانفاق ، فهي النسبة الالمانية ، لانها تبلغ ٨٥ر٢ ٪(٢) من اصل ٢٦٨ر١٦ مليار دولار . فماذا عسانا ان نفعل ليبلغ التثاقف مداه المطلوب بين حضارتنا وحضارة هؤلاء ؟

---

(١) من المعروف ان الحضارة العربية لم تعرف شيئا اسمه « اجر التعليم » . وكان نشر العلم بالمجان واجبا شبه ديني .

(٢) الحقيقة ان الانفاق الالماني والياباني متشابهان بنسبة ٨٧ر٢ الى ٨٥ر٢ فقط .

وعلى سبيل المثال فقط نذكر ان اسرائيل تتمتع بدخل مقداره ٣٨ر٤ مليار دولار ، وهو اكبر من دخل العراق . واصغر من دخل الجزائر . لكننا في البلاد العربية قلما نضع في احصاءاتنا مايشير الى اننا نهتم بالبحث العلمي ، اذ ليس هنالك اي عنوان لمثل هذا الانفاق ، على الرغم من وجوده احيانا . وينبغي انه عندما تكون نسبة الامية ٧ر١٠٪ في العراق و ٢٥٪ في الاردن و ٢٣٪ في لبنان و ٩ر٤٨٪ في السعودية و ٥ر٤٦٪ في الامارات ، و ٣٠٪ في الكويت و ٣ر٢٤٪ في قطر وحوالي ٣ر٨٣٪ في اليمن الشمالي ، فانه لا يكون هنالك امل كبير في الوصول الى مثاقفة متكافئة بيننا وبين الحضارة الغربية ، حتى اذا انفتحت هذه للمثاقفة .

لقد كنا ذات يوم أمة حريصة على العلم والثقافة ، يوم لم يكن لدى غيرنا ما يشير الى أي شيء من هذا الحرص . ولكننا تخلفنا وضعفت مواردنا ، وتضاءلت عقلانية سلوكنا ، وهبطنا الى اكثر بكثير مما نستحق . ترى هل يمكن ان يهتز الوجدان القومي اهتزازه السليم ، ليوصلنا الى التقدم الذي نستطيع ، والى تجاوز التخلف الذي نحن فيه الى الحد الممكن ؟ اني لاظن ان الشعب العربي ، بحيويته الهائلة ، وقدرته على الصمود لمختلف انواع الكوارث ، ووقوفه امام كراهية حاقدة من قبل الدول الطامعة في ثرواته ، أو الحاقدة عليه لانه يعتنق دينا غير دينها ، أو لانه مقرون ، في اللاشعور الجمعي ، بالحروب الصليبية ، يستحق كل شيء الا هذا المصير الذي نحن فيه . فاذا وجد من يقول : مادمنا قد بلغنا هذا الدرك ، فلا بد اننا اذن كنا نستحقه . والجواب أننا فعلا نستحقه لو كنا نفكر في مستقبلنا ، بصورة عقلانية ، أو اكثر عقلانية من هذه نلاحظها الان ، ترى ألسنا قادرين على ذلك ؟ اما انا فاعتقد اننا قادرون دوما على تجاوز هذه الضعة التي رُددنا اليها ، والتي لا مجال لحمل أي عربي على القول : اننا نستحقها . فهل يعود الوجدان القومي ، ذات يوم ، الى يقظته ، ويلقي جانبا بكل « الحقارات الفردية والجمعية » التي اثقلت كاهله ، واطفأت مواهبه ، وجعلته عنوانا لكل الامم المتخلفة ، المغرقة في الانقسام والتنازع ؟ اما انا فانني ، رغما عن الف سنة من التخلف ، اعيشها كما عاشها معاصروها ، لن أقول أبدا : ان هذا كل ما نستحقه من القدر . ذلك ان ما نحن فيه ليس الا ثمرة لهذه الغربة القائمة بين السلوك الفعلي الذي يفرض علينا ،

وبين السلوك العقلاني الذي نحن قادرون عليه ، قدرة كل الشعوب ، وكل الناس ، والغائب الان الى ابعد مدى . ترى هل في وسعنا ، يوما ما ، ان نقرب بين هذين السلوكين ، ونجعل الاكثر عقلانية ورشدا ، هو الاعظم شأنا ، والاقوى اركانا ؟.. ان آمالي تنحصر في هذا وحده . واظن انني ، ككل الاخرين ، سامتلىء خجلا اذا نحن لم نترك لاجيالنا الجديدة الا هذا الارث الضخم من الذل ، والخنوع ، والفقر ، والتخلف ، وما احسب الا ان هذه الاجيال المقبلة ستلعن من سبقها الف لعنة ، عندما تجد انها مثقلة بكل هذا الارث البليد .

ترى هل نقدر نحن ، الاجيال الحاضرة ، مدى الخير الذي نقدمه لاحفادنا ؟ والئن كتب الله علينا هذا القدر القاسي ، رفعا لدرجاتنا في جنان النعيم بعد هذه الحياة ، البشعة ، فهل يجوز لنا ان نقف ضد هذا القدر البائس ؟ وهل تهبط درجاتنا في الجنة ، اذا انقصنا بعض الشيء من البؤس الذي نعانيه ؟ ثم هل يمكن انقاص هذا البؤس عندما يصر اولو الامر فينا ، حيثما كانوا ، وفي اي زمن كانوا ، على ان صور سلوكهم تظل معقولة وسليمة ، عندما تبرهن باستمرار على انه لا شيء من تخلفنا قد زال ، ولا شيء من التقدم الجدي قد تحقق ؟

الدراسات والبحوث

الرق
ومشكلاته عبر العصور

عبد القادر فياض *

قال امير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ حوالي ١٤٠٠ عام « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » .

وفي عام ١٩٤٨ م العاشر من كانون الأول اقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الاعلان العالمي لحقوق الانسان واعلنته .

* عبد القادر الفياض : باحث من القطر العربي السوري ، يهتم بالدراسات الادبية والاجتماعية وشؤون التراث .

ـ وجاء في المادة الاولى : يولد جميع الناس احراراً متساوين في الكرامة والحقوق وقد وهبوا عقلاً وضميراً وعليهم ان يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء .

ـ وجاء في المادة الرابعة : لا يجوز استرقاق واستعباد اي شخص ، ويحظر الاسترقاق او استعباد اي شخص ، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة اوضاعهما .

مما لا شك فيه ان تحرير الإنسان من عبوديته هو سمو التفكير الإنساني وشعور الانسان بقيمة الانسان الحقيقية مهما كان لونه او جنسه .

إن انظمة بغيضة احدثت في العالم لضبط الإنسان (الرقيق) وتحديد حريته وقهره وإذلاله وتحطيم نفسيته ، مما خلق من هؤلاء مجتمعاً آخر يشعر بالدونية ويحمل بأعماقه الحقد والكراهية عبر الأجيال .

مجتمع قوامه الإنسان الاسود والابيض والاصفر .... من كافة شعوب المعمورة ، وقعوا حصيلة مكائد عديدة حروب .... غزوات .... صيد او شراء من اسواق النخاسة .

إنه مجتمع الرقيق الذي شعر بالامتهان والغبن في عصور مختلفة فانتفض في ثورات دموية في بقع كثيرة من العالم ، على واقع مأساوي يريد الخلاص .... ولم يقتصر إستعباد الانسان لاخيه الانسان بصوره المزرية كما سيأتي على شعب من شعوب الارض ، فقد عرفه المصريون في القصر والمعبد والأرض ....

كما ان الهنود كانوا يسومون الرقيق سوء العذاب ووضعت شريعتهم القديمة عقاباً قاسياً للجرائم التي ترتكبها طبقة (السودوا) التي يؤخذ منها الرقيق (دازا) وكذلك عرفه الآشوريون والايرانيون واليهود ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، والصينيون ، وكان الصيني يضطر احياناً لبيع نفسه او اولاده نتيجة الفقر .

والرقيق طبقة مملوكة ليس لها في الحياة حرية ولا راي ولا اختيار ، فقدت حريتها بالرق وصارت ملك سيدها وهي وما تنتجه ملك للمالك ويدخل ذلك

في نسلها الى الابد . الا اذا منّ المالك على عبده بفك رقبته فيصبح حرا وتنتقل الحرية الى نسله .

والرقيق سلعة من سلع السوق تباع وتشرى كما تباع وتشرى اية سلعة من سلع سوق متواضع ، ليس لها سعر ثابت معين انما يتوقف ثمنها على رغبة الطالب وقيمة الرقيق المعروض وما يتوفر فيه ـ الجمال ـ العمر ـ المهارة ـ درجة الفطنة والذكاء وعلى نوع جنسه والاعمال التي يمكنه القيام بها ، والرقيق الابيض اغلى ثمنا من غيره .. الخ .

ان موضوع الرقيق في العالم من الاهمية بمكان ان يتم التذكير بمآسيه بشكل عام وفي مجتمعنا العربي بشكل خاص وقد لا يحيط هذا البحث بكل جوانبه ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله ومهما كانت معاملة الرقيق عند هذه الامة او تلك حسنة ، فوجود الرقيق وصمة عار في جبين كل امم الارض التي ساهمت في خلقه ، او مازالت ..

والسؤال الذي مازال يطرح نفسه هل مازال الرقيق يعشعش في مجتمعات العالم بأشكال واساليب اختلفت عن الماضي .. نعم مازالت تعج بهم المزارع والقصور ... وان اختلفت وتطورت الاساليب ... وهذه مسؤولية الاجيال في كل الامم ان تفتح العيون ولا تغفل ..؟

نشوء الرق واثره

ان اساس وجود الرّق هو الحروب فبدل ان يقتل الاسرى وعائلاتهم من قبل القوة الغالبة تحولوا عن عادة القتل الى استرقاق الاسرى وهكذا كانت الحروب عاملا هاما في نشأة الرق ثم اصبح الرق عاملا قويا ومساعدا في شن الحروب ، واضيف الى رقيق الحروب مصادر اخرى من المجرمين الذين يعاودون الاجرام والمدينون ال[illegible] لا يفون ديونهم ، ومن حصيلة الغارات على الآمنين وعلى القوافل الت[illegible] وقراصنة البحار ويقول ستيفن لانسيمان : ان من نتائج حملة الاطفال ال[illegible]ة الرابعة سنة ١٢١٢ م ان بيعت حمولة السفن الخمسة التي نجت من ال[illegible] على شاطىء الجزائر في (بوجيه) وما تبقى من الاطفال بيعوا في الاسك[illegible] جماعة قليلة منهم بيعوا في بغداد(١) .

---

١ ـ تاريخ الحروب الصليبية ٢: ـ ص ٢٥٥ .

وعبر امتداد القرون أصبح الرقيق قوة فاعلة لها مؤثرات سلبية وايجابية فالرقيق المتحضر كان له الاثر في تبادل الثقافات ونقل الصناعات والمهن والحرف فمن الامم المغلوبة كانت عندها حضارات ولديها اطباء وفلاسفة ومهندسون نقلوا معهم المعرفة الى الشعب الغالب كما كان من امر اليونان مع الرومان ومن امر الشعوب الاخرى التي كانت تفوقهم حضارة كالسوريين والمصريين .

وكما كانت للرق آثاره الايجابية فله ايضا آثاره السلبية في مجالات كثيرة اقتصادية واجتماعية وسياسية ، انهم قاموا بثورات عديدة ضد سادتهم ادت الى معارك طاحنة وخسائر بشرية بين الطرفين وخلخلة في انظمة الحكم كادت ان تطيح بها احيانا .

وهذا ابو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه من رقيق اسرى الحرب يغتال الفاروق عمر بن الخطاب فتصاب الامة بنكسات متعددة بعد الاغتيال .

وفي الحروب كان الرقيق يفر هاربا ويسبب كوارث عسكرية لانه يقاتل عن سيده الذي يكرهه ويحقد عليه فالنصر للسيد والمغانم للسيد والموت والهلاك للرقيق .

وعلى الصعيد الاقتصادي فان الرقيق كان ينتج بقوة الاكراه وكثرت البطالة بين ملاك الارض وبالتدريج تردى الوضع الاقتصادي عند الامم التي اعتمدت كليا على ايدي الرقيق العاملة ... .

وعلى الصعيد الاجتماعي ، لقد اشاع مجتمع الرقيق سبل اللهو والترفيه والمجون مما ادى الى انحلال الاسرة وتفككها وتأثير ذلك على المجتمع بشكل عام .

بينما استطاعت بعض فئاته بدهائها ان ترقى الى مراكز القيادة كما حدث في بعض الدول الاسلامية (ككافور الاخشيدي) في مصر .... الخ

الـرق عنـد البابليين

كانت اكثر الاراضي الزراعية يفلحها المستأجرون او الرقيق واقلها يحرثها ملاكها الفلاحون ، وكانت حضارة البابليين حضارة تجارية في جوهرها وكان علية

القوم منهم على ثراء عظيم ، وان الآثار التي خلفوها تدل على حياة نشيطة دائمة الحركة ، وشأنهم شأن الشعوب الاخرى في حياتهم تجد العبيد يعملون لديهم وبأعداد كبيرة ، ومصدرهم أسرى الحروب والغارات التي يشنها البدو الرحل على الولايات الاجنبية .

وكان هؤلاء العبيد هم الذين يؤدون معظم الاعمال العضلية في المدن وتدخل في هذه الاعمال الخدمات الشخصية .

عقود بيع العبيد :

وكان في عهد نبوخذ نصر عقود بيع للعبيد فيها الشروط التي تقيد العبد فالعبد وكل ما ملكت يداه ملك لسيده ، ومن حقه ان يبيعه أو يرهنه وفاء لدين ، ومن حقه أن يقتله اذا ظن ان موته أعود عليه بالفائدة من حياته واذا أبق العبد فان القانون لا يبيح لاحد ان يحميه ، وكانت تقدر جائزة لمن يقبض عليه . ومن حق الدولة أن تجنده كما تجند الفلاح الحر للخدمة العسكرية أو تسخره للقيام ببعض الاعمال العامة كشق الطرق ، وحفر القنوات

وعلى السيد ان يؤدي عن عبده اجر الطبيب ، وان يقدم له كفايته من الطعام اذا مرض أو تعطل عن العمل أو بلغ سن الشيخوخة .

ومن حقه ان يتزوج بحرة فاذا رزق منها أولاد كانوا احرارا ، فاذا مات فان نصف ثروته من حق أسرته .

ومن حقه ان يحتفظ ببعض الارباح من الاعمال التي يقوم بها لسيده وان يبتاع بها حريته .

وان السيد يمكن أن يعتق عبده اذا أدى له خدمة ممتازة أو خدمه زمنا طويلا بأمانة واخلاص ، ولكن هذا النوع من الحرية لم ينله الا القليلون من العبيد

وكانت كثرتهم لتناسلهم وكثرة ابنائهم حتى صاروا اكثر عددا من الاحرار فكانت طبقة الارقاء الكبيرة تتحرك كأنها نهر يجري تحت قواعد الدولة البابلية وكانت الجواري ملكا خالصا لمن يبتاعهن يهيئن لـه طعامـه ويمهدن فراشـه ويستولدهن عددا كبيرا من الابناء(١) .

١ ــ قصة الحضارة جـ ١ ص ٢٠٦ ول ديورانت .

العبيد في اليونان

كان اهل المدينة ينظرون بعين الاحتقار الى العمل اليدوي وان العمل في اثينا كان يؤدي معظمه الارقاء والعتقاء الذين تحرروا من الرق والغرباء والمهاجرون ، وكان ينظر الى التجارة النظرة نفسها ولهذا فما من مواطن جدير بالاحترام يقبل العمل بها اما استثمار الاموال والارباح فتاتيه عن طريق غيره لان اليوناني يرى ان الحر يجب ان يتحرر من الواجبات الاقتصادية وان عليه ان يستخدم العبيد ليعتنوا بشؤونه المادية والعامة .

وهذا (زفنون) من طبقة الفرسان يقول : « ان الجماعات المتمدينة ترى ان ما يسمونه بالفنون الآلية الحقيرة تزري بصاحبها ... وهي محقة في نظرتها هذه ، ذلك ان العمل فيها يهلك اجسام القائمين به ... وهذا الضعف الجسمي يصحبه على الدوام ضعف نفساني وفوق هذا وذاك فان ما تتطلبه هذه الفنون الآلية الحقيرة من الوقت لا يترك للمشتغلين بها فراغا ينفقونه في مطالب الصداقة او الدولة »(١) .

والفنون التي تحط من قدرهم : الاعمال المهنية — الموسيقى — النحت — التصوير كان في نظرهم مهنة دنيئة .

عبيد اتكا :

كان في المجتمع اليوناني طبقات المواطنين والغرباء والمعاتيق ودون هذه الطبقات عبيد اتكا البالغ عددهم (١١٥,٠٠٠) عبد(٢) وهؤلاء العبيد اما اسرى حرب او خطف او مجرمون ، وكانت قلة منهم في بلاد اليونان يونانية الاصل ، وكان (الهليني) يرى ان الاجانب عبيد بطبعهم لانهم يبادرون بالخضوع الى الملوك ، ولهذا لم يكن يرى استعباد اليونان لهؤلاء الاجانب ما لا يتفق مع العقل لكنه يغضبه ان يسترق يوناني . وكانت اسواقهم في طشيوز وديلوس وكورنثة وايجينا ولم يكن من غير المألوف ان يباع الف من العبيد في اليوم الواحد في

١ — قصة الحضارة — ج ٧ — ص ٦٢ — ديورانت .
٢ — انظر الحاشية في ص ٦٥ — ج ٧ — قصة الحضارة .

دبلوس وكان النخاسون في اثينا من اغنى سكانها الغرباء وكاد عدد العبيد ان يصل في بيوت الاغنياء الى خمسين احيانا .

اما في الريف فكان العبيد قليلي العدد ، وكانت كثرة الرقيق من النساء الخادمات في البيوت وكان لدى اصحاب ، قطاع الارض في شمال اليونان ما يسمى برقيق الارض .

معاملة العبيد :

كان العبد اذا اساء الادب ضرب بالسوط واذا طلب للشهادة عذب واذا ضربه حر لم يكن له ان يدافع عن نفسه ، لكنه اذا تعرض للقوة الشديدة يمكنه ان يفر الى احد الهياكل ثم يلزم سيده ببيعه ، ولا يحق لسيده باية حال ان يقتله .... الخ ..

واشتهرت اثينا الديمقراطية بحسن معاملة عبيدها وكانوا احسن حالا من الاحرار الفقراء في الدويلات الالجركية(١) .

موقف الفلاسفة من الرق :

هذا هو افلاطون يندد باستعباد اليونان لليونان ولكنه فيما عدا ذلك يقر الاسترقاق بحجة ان لبعض الناس عقولا غير ممتازة(٢) .

وينظر ارسطو الى العبد على انه آلة بشرية ويظن ان الاسترقاق سيبقى في صورة ما حتى يحل اليوم الذي تؤدي فيه الآلات التي تدور بنفسها جميع الاعمال الحقيرة .

فالفلاسفة الكلبيون يحكمون على الرق اسوأ حكم ومثلهم خلفاؤهم الرواقيون وان كانوا اقل عنفا في حكمهم عليه(٣) .

١ ـ قصة الحضارة ج ٧ ـ ص ٦٧ ـ ديورانت .
٢ ـ قصة الحضارة ج ٧ ـ ص ٦٨ ـ ديورانت .
٣ ـ قصة الحضارة ج ٧ ـ ص ٦٨ ـ ديورانت .

ويقول ديورانت : ولما مضت قرون على هذا النظام الجمل الناس ينظرون اليه كأنه نظام فطري لا غنى عنه بهذا قال ارسطو وكذلك بارك القديس بولس هذا النظام الاجتماعي(١) .

اليهـود وتجارة الرقيق

يقول آدم متز : كان اغلب تجار الرقيق في أوربا من اليهود ، وكان الرقيق يجلب كله من الشرق الاوربي كما هو الحال اليوم في تجارة النساء(٢) .

ومن الجلي ان استقرار جاليات يهودية في مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية مثل مدينة (مجد يبورج ومرزيبورج) كان راجعا الى تجارة الرقيق .

وكان اليهود في اثناء تقلهم للرقيق يدفعون ضرائب ثقيلة وذلك في المانيا على الاقل فكان قانون الجمارك في مدينة كوبلنتز مثلا يقضي بأن يدفع عن كل رأس من الرقيق اربعة دنانير وكان اسقف مدينة خور يفرض على الرأس دينارين يدفعان في جمرك مدينة فالنشتات ، اما طريق رقيق الصقالبة فكان يخترق المانيا الى الاندلس والى الموانىء البحرية بايطاليا وفرنسا والطريق المهم لتجارة الرقيق الذي اتبعه المرابي اليهودي بتاحيا في القرن الثاني عشر الميلادي، مدينة براغ بولونيا وروسيا ، وكانت براغ مركزا لتجارة الرقيق في القرن العاشر الميلادي .

وقد اضطر القديس ادالبرت بمدينة براغ سنة ٩٨٩ م لاعتزال منصبه الاسقفي لانه لم يستطع ان يعتق جميع المسيحيين الذين اشتراهم تاجر رقيق يهودي(٣) .

(١) ــ قصة الحضارة جـ ٧ ــ ص ٣٦ ــ ديورانت .

(٢) ذكر الاسقف اجوبارد ، اسقف مدينة ليون في كتابه : امثلة على ان بعض اليهود كانوا يسرقون ابناء النصارى الفرنسيين او يحصلون عليهم شراء من النصارى انفسهم ويبيعونهم للمسلمين في اسبانيا (الحضارة الاسلامية ــ آدم متز ــ ص ٣٠٢) .

(٣) الحضارة الاسلامية ــ آدم متز ــ ص ٣٠١ .

الرقيق والديانة اليهودية :

اليهودي لا يسترق لان اليهود هم عبيد الله الذين اخرجهم من ارض مصر فلا يباعون بيع العبيد(١) .

واذا ما افتقر اليهودي وعجز عن وفاء دينه واضطر الى بيع نفسه لدائنه فإن كان الدائن يهوديا فعليه ان يعامله معاملة الخادم وأن يرفق به ويتحرر حكما بعد ست سنوات من الخدمة او يتحرر في سنة اليوبيل(٢) اذا حلت قبل السنوات الست . وعلى دائنه اليهودي أن يزوده حين تحرره بشيء من ماله (من غنمه وبيدره ومعصرته)(٣) وان كان الدائن غير يهودي فعلى من كان من اقرباء المدين او من عشيرته ان يفتديه ويحرره ولا يجوز ان يبقى لغريب .

اما غير اليهودي ، اي الغريب فهو وحده الذي يجوز استرقاقه بالحرب(٤) او الشراء ويعامل بعنف ولا يجوز تحريره او افتداؤه ويبقى رقيقاً ابد الدهر . وهذا يعني ان اليهودي لا يجوز استرقاقه واذا ما استرق فيجب ان يتحرر بعد عدد من السنين اما غير اليهودي فمن حق اليهودي أن يسترقه لان الله في اعتقادهم جعل الغرباء عبيداً لليهود فلا يتحرر من يقع في رقهم بعتق ولا فداء .

فالله من وجهة نظرهم هو إله اليهود وحدهم وهم عبيده ولا يمكن ان يكونوا عبيداً لغيره وقد اختارهم ليكونوا سادة الناس ويكون الناس عبيداً لهم ، ولهذا قد لا تجد مراعاة للجانب الانساني في غير اليهود .

واذا رغب العبد ان يبقى في خدمة سيده فعندئذ يخرز سيده اذنه بمخرز ويكون عبداً مؤبداً(٥) .

---

(١) سفر اللاوين ٢٥ : ٤٢ ، ٥٥ .

(٢) سنة اليوبيل هي السنة الخمسون بعد سبع سنوات سبتية ، السنة السبتية هي السنة السابعة التي تلي كل ست سنوات (سفر اللاوين : ٢٥ : ١ – ١١ .

(٣) سفر اللاوين : ٢٥ : ٤٥ – ٤٦ .

(٤) سفر التثنية : ١٥ : ١٢ – ١٤ .

(٥) سفر اللاوين : ٢٥ : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٦ في ٥٢ .

ومع ذلك فليس للسيد على العبد يهوديا كان او اجنبيا سلطة مطلقة فلو قسا عليه فابق العبد فلا يسلم لمولاه بل يقيم في المكان الذي يختاره من ارض اسرائيل(١) . وعلى السيد ان يريح عبده وامته يوم السبت فهو عند اليهود يوم راحة ، لا يجوز العمل فيه لانسان او بهيمة(٢) .

ولا يحق للسيد ان يقتل عبده ولا أن يضربه ضرباً مميتاً فان ضربه بعصا ومات ينتقم منه ويجازى ولكن ان بقي يوما او يومين حياً فلا ينتقم منه لانه ماله(٣) ويوصي التلمود(٤) بحسن معاملة العبد ويمنع من جرح كرامته ويامر السيد بإطعامه وإكسائه .

العبيد في روما وايطاليا

• قدر (بلوك)(٥) عدد العبيد في روما حوالي سنة (٣٠ ق.م) بما يقرب من (٤٠٠,٠٠٠) اي نحو نصف عدد سكانها جميعا وقدر عددهم في ايطاليا بنحو (١,٥٠٠,٠٠٠) هذا وقد تم عرض اقتراح على مجلس الشيوخ يقضي بأن يلبسوا اي العبيد زياً خاصاً بهم وهذا دلالة كثرتهم ولكن رُفض الطلب خشية إدراك اهميتهم .

وقدر (جالينوس)(٦) نسبة العبيد الى الاحرار في بوجموم حوالي سنة ١٧٠ م بواحد الى ثلاثة واكبر الظن ان نسبتهم في المدن الاخرى لم تكن تختلف كثيرا عن هذه النسبة . وكان لكل عبد ثمن حسب قدراته او ما يمتلكه من مواهب ... وكان ثمانون في المائة من العمال في الصناعة وفي تجارة الأشتات

(١) سفر التثنية ٢٣ : ١٥ — ١٦ .
(٢) سفر التثنية ١٦ : ٩ — ١٥ .
(٣) سفر الخروج ٢١ : ٢٠ — ٢١ .
(٤) التلمود كتاب يتضمن شرحا وتفسيرا لاحكام التوراة .
(٥) انظر الرق ماضيه وحاضره — ص ٦١ — ٦٢ — دترمانين .
(٦) قصة الحضارة جـ ١٠ ص ٢٤٢ — ول ديورانت .

من العبيد كما كانت معظم الاعمال اليدوية والكتابية في المصالح الحكومية يؤديها عبيد عموميون ، أما عبيد المنازل فكانوا أنواعاً لا حصر لها كما كانت مراكزهم واعمالهم كثيرة متنوعة : كانوا يقومون بخدمة سادتهم وكان منهم المعلم والطاهي والحلاق والموسيقي وناسخ الكتب وامناء مكاتب وفنان وطبيب ..... الخ .

وكانت في روما سوق خاصة يستطيع الانسان ان يبتاع فيها عبداً أعرج واقطع الذراع .... او قزماً او خنثى ... الخ .

وقد قتل والد نيرون عبيده المحررين لانهم أبوا ان يشربوا من الخمر القدر الذي يرغب فيه وكانت عندهم طرق عديدة للتعذيب كإقتلاع الأعضاء واشعال النيران حول المساجين والسجن في الجب ... الخ ، واكثر ما كان يلقاه من التعذيب عبيد المزارع ، وان تعداد اصناف التعذيب مقزز للنفس الانسانية ورغم هذه القسوة الشديدة اخشى من المبالغة فيما يذكره المؤرخون .....؟

وتولى العبيد المحررون في روما في القرن الاول الميلادي كثيراً من المناصب العامة وكان المحررون او العبيد وكلهم تقريباً من اليونان او السوريين يديرون شؤون القصور الامبراطورية ويتولون اخطر المناصب في مجالس الدولة(١) .

يقول (ستيفن رنيسمان) ولما استعاد البيزنطيون عاصمتهم سنة ١٢٦١ بفضل مساعدة جنوة القوية استطاع الجنويون أن يبعدوا البنادقة من البحر الاسود وان يحافظوا على احتكار تجارة آسيا الوسطى وتجارة الرقيق باعتبارها تجارة ثانوية مربحة بين سهوب روسيا ومصر .

واذا استندت الحكومة المملوكية على ما يرد اليها باستمرار من مقادر الرقيق من قبائل القبجاق وما يجاورها من القبائل التركية . كان مستحيلا على البنادقة أن يطردوا تجار جنوة من الاسكندرية(٢) .

١ ــ قصة الحضارة جـ ١٠ ص ٢٤١ ــ ول ديورانت .

٢ ــ تاريخ الحروب الصليبية ــ جـ ٢ ــ ص ٦١٣ ستيفن رنيسمان .

الرقيق عند العرب في الجاهلية

كانت حياة العرب في الجاهلية بسيطة غير معقدة فهم ينقسمون الى قسمين اهل الحضر وهم سكان القرى والبدو سكان الصحراء ، وغالباً ما يكون الرقيق لديهم اسير غزوات لا يلبث قومه ان يفتدوه ، او تتدخل الوساطات بين القبائل لفك اسره وتتغلب صلة القربى والرحم لدى الجميع على المال(١) .

وقد لعب قطاع الطرق دوراً في اختطاف اشخاص ربما يقع القريب اسيراً في يد قريبه او اخيه او صديقه فيكون مملوكاً ولا تسقط القربى حق التملك ، وللأسير فداء نفسه ، ويحق للمالك فك الاسير بالفداء وعتقه أو بيعه او إهدائه .

اما الرقيق في المدن كمكة ويثرب والطائف ونجران ، فيأتي الى اسواق النخاسة مجاوباً من بلاد الروم وفارس والهند وافريقية .

اما الاسواق العربية الشرقية فاشهرها اسواق البحرين فكانت تشتري الرقيق الوارد عليها من الهند .

اما اسواق العراق وبلاد الشام ، فكانت تقدم الرقيق الابيض لجزيرة العرب .. اما سواحل افريقية فقد قدمت الرقيق الاسود وهو ارخص ثمناً من الرقيق الابيض .....!

اما قيمة الرقيق بما يحسنه من صنعة والنساء بما يُحسن من غناء ورقص لإمتاع القوم بفنون اللهو وتقديم الشراب للسادة في مجالسهم .

« ومنهن البغايا يقمن في دور ترفع عليها رايات حمر فعرفن بها وتقدم لسيدها ضريبة تؤديها من عملها »(٢) وكان تجار الرقيق يزوجونهم ويأخذون نسلهم اي نسل الرقيق ويبيعونه في اسواق النخاسة وينسب (الولد) الى

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جـ٧ ص ٤٥٦ ـ د ـ جواد علي .

(٢) الرق ماضيه وحاضره ـ ص ٥٧ ـ ترمانيني .

الارض التي ولد بها او الى قبيلة سيده فيقال من مولدي السراة وهو من مولدي هذيل ويعرف (العبد) المولود في الرق بالوليد(١) .

وعمل الرقيق هو الذي يكلفه به سيده الذي يملكه إذا كان غزواً أو حرباً فالغنائم للسيد وإذا كلفه سيده بتجارة فالارباح للسيد ، وقد يفرض السيد على عبده ضريبة يدفعها له فما على العبد إلا ان يعمل ويؤدي الضريبة لسيده ، وينسحب ذلك على المرأة ايضاً ....!

ووجد الرقيق الدخول في الدين الإسلامي الجديد متنفساً لهم فمن دخل الإسلام صار حراً طليقاً وهذا اغضب سادة قريش وجعلهم يقولون (إن محمداً قد افسد علينا عبيدنا)

العتق والمكاتبة

العتق خلاف الرق وهو الحرية ، يقال عتق العبد اي خرج عن الرق فالعتق هو فك الرقبة وعودة الحرية الى العبد .

ويقال هو مولى عتاقه ، ومولى عتيق إذا كان عبداً فعتق فصار مولى لسيده تربطه به رابطة الولاء فهو في حمايته ورعايته .

وفي أبواب فك الرقبة وتحريرها من العبودية المكاتبة،وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا منجماً إذا اديته فانت حر ويبين عدد النجوم وقسط كل نجم فاذا ادى العبد ما عليه صار حراً وقد عرف ذلك في الإسلام ايضاً(٢) .

الرقيق المملوك :

سمي العبيد رقيقاً لانهم يرقون لمالكهم ويخضعون ، والعبد المملوك خلاف الحرّ . و (العبدي) جماعة العبيد الذين ولدوا في العبودية .. والقن بالكسر عبد ملك هو وأبواه للواحد والجمع .

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٧ ـ ص ٤٥٩ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٧ ـ ص ٤٦٥ .

ومن الرقيق ، رقيق تبع الارض فهو دائماً بها يباع معها ويشترى بشرائها ويقال له (امتي) في لغة العرب الجنوبين(١)..

كما يعتبر المولى في طبقة المملوكين وللفظة مولى معان عديدة منها المعنى الذي نقصده منها في هذا البحث وهو العبد ولا يشترط في المولى ان يكون اعجمياً اي من اصل غير عربي فيقع الولاء على العرب في اي حالة من حالات الاسر فاذا لم يتقدم من يفتديه بالمال بيع في اسـواق الرقيق وكان منهم عدد كبير من هؤلاء بمكة وبسائر الامكنة ومن جملتهم (زيد بن حارثة الكلبي) مولى خديجة بنت خويلد زوج الرسول (صلعم) ثم مولى للرسول فأعتقه .

بيع الولاء :

من قوانين الجاهلية هو انه اذا مات (المُعتَق) ورثه شرعاً (مُعتِقه) وكانت العرب تبيعه وتهبه مع انه كالنسب فلا يزول بالازالة .

وقد كانوا في الجاهلية ينقلون الولاء بالبيع وغيره فاذا اعتق رجل عبده صار له حق ولائه له ولورثته حق بيع ذلك الولاء على نحو مـا كان لهم من حق الحصول على إرثه .

وقد نهى الاسلام عن بيع الولاء وعن هبته(٢)..

الرق في الاسلام

الرق في الإسلام وموقف الإسلام منه :

كما ورد في المقدمة فللرقيق مصادر متعددة ،الحرب أي من اسرى الحروب والمجلوبين بالخطف والغارات والفقراء والمجرمين وهذا مورده بشكل عام على الصعيد العالمي .

وعندما توقفت الفتوحات في العصر العباسي راجت تجارة الرقيق واصبح لاصحابه حظوة عند الخلفاء والوزراء والاثرياء ونالهم من الغنى ثراء فاحش .

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ ج ٧ ـ ص ٤٥٥ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ ج ٧ ـ ص ٤٦٣ .

وقد اهتم بتربية الرقيق وتهذيبه وخاصة الفتيات الجميلات والموهوبات الصوت للغناء والذاكرة الجيدة لحفظ الأشعار ، وهذا الهب قرائح الشعراء بقرض الشعر البديع والهى اصحاب الحكم عن مسؤولياتهم واضر بالمجتمع العربي الإسلامي والاسرة الإسلامية ، ولهذا لم يبق الرق في الحدود التي رسمها الاسلام .

جعل الاسلام للرق مصدراً وحيداً هو من يقع في حرب مشروعة ، ثم حض على العتق ويسر اسبابه ورغب فيه ودعاه الى اعتناق الدين الإسلامي ليكون حراً ...

« والرّق كما عرفه الاسلام ـ عجز حكمي يصيب من يقع اسيراً في حرب مشروعة فيفقد اهليته القانونية ويكون مملوكاً لمن يؤول إليه ... وهذا العجز مؤقت يزول بالفداء او العتق وامر ان يعامل الرقيق في فترة العجز الحكمي معاملة كريمة تحفظ شعوره الانساني وان تعد تحريره مرتبطاً برابطة الولاء لسيده بعينه ويحميه »(١) .

ولقد اوصى الإسلام خيراً بمعاملة الرقيق في آيات قرآنية واحاديث عديدة ولقد نهى النبي (صلعم) ان يقول الرجل هذا عبدي وهذه امتي بل يقول هذا فتاي وهذه فتاتي وبهذا الاسم وردت تسميتهم في القرآن الكريم : (ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات »(٢) .

ولقد حض الاسلام على تحرير العبد اي عتقه والعتق هو إنهاء حالة الرق التي هي حالة استثنائية فرضتها الحروب فقد روي عن النبي (صلعم) قوله ايما رجل اعتق مسلما كان به وقاء كل عظم من عظام محرَّره من النار ؛ وايما امرأة اعتقت امرأة مسلمة كان بها وقاء كل عظم من عظام محررتها من النار)(٣) .

(١) الدكتور عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ـ ص ٢٥ .

(٢) سورة النساء ـ آية رقم ٢٥ .

(٣) د. ترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ـ ص ٨٢ .

ولما كان الإسلام ينظر الى العتق على أنه تحرير الانسان من الرق فقد اجاز عتق العبد الكافر ويروى عن الامام مالك قوله : إن عتق الرقبة الكافرة اذا كانت اغلى ثمنا أفضل(١) .

« وفي الفقه الاسلامي احكام كثيرة تتعلق بمعاملة الرقيق وهي مستمدة مما قضى به القرآن واستنه الرسول العظيم وكلها رفق وإحسان إليه واخذه بيده »(٢) وقد استحدث الاسلام وظيفة المحتسب وكان من جملة وظائفه اخذ السادة بحقوق العبيد والاماء والا يكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون(٣) .

الرق في اوروبا وموقف الكنيسة

في القرن الثاني عشر نقص عدد العبيد وزاد عدد ارقاء الارض وكان معظم عملهم في انكلترا بينما اخذ عددهم يزداد في المانيا في حين لم يكن الناس يتحرجون أو يؤنبهم ضميرهم من القبض على الصقالبة الوثنيين ليقوموا بالأعمال اليدوية الحقيرة في الضياع الالمانية او ليبيعوهم في البلاد الاسلامية او البيزنطية كذلك كان التجار الصقالبة يختطفون المسلمين او اليونان من الاراضي الممتدة على شواطىء البحر الاسود وسواحل آسية الغربية وافريقيا الشمالية ليبيعوهم للعمل في الزراعة او في الخدمة المنزلية أو خصيانا أو سراري او عاهرات في بلاد الاسلام والمسيحية . هذا وقد كانت تجارة العبيد رائجة في ايطاليا بشكل خاص ، بينما تناقص عددهم في ارض فرنسا شمال نهر اللوار .

ويقول (ول. ديورانت) ولسنا ننكر ان البابا (جريجوري)(٤) أعتق اثنين من عبيده ولكنه ظل يستخدم مئات العبيد في الضياع البابوية ويوافق على القوانين التي تحرم على العبيد ان يكونوا قساوسة او ان يتزوجوا من المسيحيات الحرائر ، هذا وقد حرمت الكنيسة بيع الاسرى المسيحيين الى المسلمين ولكنها اباحت إسترقاق المسلمين والاوربيين الذي لم يعتنقوا الدين المسيحي .

(١) د. ترمانيني ــ الرق ماضيه وحاضره ــ ص ٨٤ .

(٢) انظر الرقيق ماضيه وحاضره ــ ص ٦٧ .

(٣) الرقيق ماضيه وحاضره ــ ص ٦٨ .

(٤) قصة الحضارة ــ ج ١٤ ــ ص ٤٠٦ ول. ديورانت .

وكان آلاف من الأسرى الصقالبة او المسلمين يوزعون عبيداً على الاديرة وظل الاسترقاق قائماً في اراضي الكنيسة وضياع البابوات حتى القرن الحادي عشر وكان القانون الكنسي يقدر ثروة اراضي الكنيسة في بعض الاحيان بعدد من فيها من العبيد لا بقدر ما تساويه من المال ، فقد كان العبيد يعدون سلعة من السلع التي تباع وتشرى وحرم على عبيد الكنائس ان يوصوا لاحد باملاكهم ، وفي حال وفاة احدهم تؤول امواله المدخرة الى الكنيسة .

هذا وقد اوصى كبير اساقفة (نربونة)(١) في عام ١١٤٩ م بعبيده المسلمين الى اسقف بينر وكان القديس (توما الاكويني) يفسر الاسترقاق بانه نتيجة لخطيئة ادم وانه وسيلة إقتصادية في عالم يجب ان يكدح فيه بعض الناس ليمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم وكانت هذه الاراء متفقة مع اقوال ارسطو وموائمة لروح عصرها وكانت القاعدة المقررة في الكنيسة والتي تنص على ان املاكها لا يمكن النزول عنها إلا بقيمتها الكاملة في السوق وكانت هذه القاعدة شراً على عبيدها وارقاء ارضها فقد جعلت عتق العبيد والارقاء في بعض الاحيان أصعب من املاك الكنيسة منه في املاك غيرها ، مع هذا فان الكنيسة خطت خطوات متزايدة في تقييد تجارة الرقيق وذلك بتحريم استرقاق المسيحيين . وقال (ول. ديورانت)(٢) لقد كان رقيق الارض لا العبد هو الذي يصنع الخبز لعالم العصور الوسطى .

والاصل في رقيق الارض انه يؤدي اجراً من الغلات او العمل او المال لمالك الارض الذي بوسعه ان يطرده منها متى شاء ، واذا مات لا تنتقل الأرض الى ابنائه إلا بموافقة المالك ورضائه ، وكان من حق هذا المالك في فرنسا ان يبيع الرقيق مستقلا عن الارض ، وكان مالكه احياناً يبيعه (أي يبيع عمله) مجزءاً بعضه لشخص وبعضه لآخر وكان في وسع هذا الرقيق في فرنسا ان يحل العقد الاقطاعي إذا سلم الارض وكل ما يملك الى سيده .

اما في انكلترا فقد حرم هذا الحق ، حق مغادرة الارض وكان الذين يفرون من ارقاء الارض في العصور الوسطى يعاد القبض عليهم بنفس الصرامة التي يعاد بها القبض على العبيد بطرقها الوحشية .

(١) قصة الحضارة – ج ١٤ – ص ٤٠٦ ول. ديورانت .

(٢) قصة الحضارة ج ١٤ – ص ٤٠٥ .

وكانت الواجبات الاقطاعية التي يؤديها رقيق الأرض لمالكها متعددة مختلفة الانواع ولم يكن اضمحلال نظام الاسترقاق ناشئاً عن ارتقاء الاخلاق بل كان نتيجة تطورات اقتصادية(١) .

افريقيا والرقيق الاسود

في العدد ١٥٣٠ من مجلة المصور الصادرة في اول جمادي الآخرة (١٣٧٣) هـ خلاصة تقرير يقع في مئتي صفحة لاثنين من علماء الاجتماع هما (جاك الان) و (جورج هيرالد) قضيا في تتبع عصابات الرقيق اربعة اعوام وفيه من المآسي ماينطق بقسوة الاوربيين من تجار الرقيق وفظائعهم التي يرتكبونها في افريقيا البائسة(٢) .

فبعد زوال الرق في اوربا اضحت الحاجة ماسة الى أيد كثيرة لتعمل في الزراعة واستصلاح الارض وقد وجد الاوربيون في افريقيا السوداء مصدرا خصبا لهم وكان يومذاك الاسبان والبرتغال وهم يومئذ قراصنة البحار فاتجهوا الى السواحل الافريقية الواقعة الى الجنوب واقاموا فيها مراكز لتكون قاعدة للوثوب على القارة الافريقية ـ اي في غينيا ولوندا وبنغولا الواقعة على ساحل انغولا وبعد اكتشاف راس الرجاء الصالح عام ١٤٩٣ م بدأ الاسبان والبرتغال يقيمون مراكز تجارية لهم على سواحل افريقيا الشرقية في ديلاجو وموزامبيق وزنجبار .

وفي تلك المراكز اخذوا يبيعون الافريقيين بضائعهم ويشترون منهم أو يقايضونهم بحاصلات زراعية وبالرقيق واكثره من رقيق الجماعات الفقيرة أو الضعيفة ويساق الرقيق الى أسواق الشبونة في البرتغال أو الى اشبيلية في اسبانيا ويباع في اسواقهما ومن تلك الاسواق يؤخذ الى المزارع والمدن الاوربية للقيام بالاعمال الجسدية المرهقة(٣) .

(١) قصة الحضارة جـ ١٤ ـ ص ٤٠٧ .

(٢) نوادر المخطوطات ـ جـ ٤ ص ٣٤١ ـ تحقيق عبد السلام هارون .

(٣) الرقيق ماضيه وحاضره ص ١٨٩ ـ د. عبد السلام ترمانيني .

صيد الزنوج :

تنبهت انكلترا وهولندا وفرنسا والدانيمارك لأهمية اسـواق الرقيق واخذت تنافس الاسبان والبرتغال في الحصول على الزنـوج وحملهم الـى مستعمراتهم في العالم الجديد فأقام الفرنسـيون مراكز لهم على الساحل الممتد من موريتانيا الى الكونغو على مسافة ثلاثة الاف كم ـ وفي مدينة سان لوي ـ وفي جزيرة جورية .

واقام الانكليز مراكزهم في غامبيا ـ وسيراليون ـ وساحل الذهب ،

واقام الهولنديون والدانيماركيون مراكزهم في خليج بينان .

وزاد الاسبان والبرتغاليون مراكزهم فأقاموا في الساحل الغربي مراكز في ـ سان بول ـ وسان فيليب واقاموا في الساحل الشرقي مركزا في ـلورانسو ماركز ـ وسوفولا(١) .

وكانت هنالك طريقتان لصيد الزنوج : الاولى وكان يتبعها في السـاحـل الشرقي من افريقيا تجار من العرب ، فكانوا ينطلقون داخل القارة في حمـلات مسلحة ويطوفون القرى في الليل ثم يطلقون وابلا من الرصاص والناس نيام او يشعلون النار في بيوت القش التي يقطنونها ، فيفزع السكان ويخرجون مـن بيوتهم في حالة من الهلع والفزع والخوف الشديد فيغيرون عليهم ويتصيدونهم ويسـوقونهم الى جزيرة زنجبار ، وغالبا ما تكون هـذه الحمـلات لحسـاب سلاطين الجزيرة وهم من العرب العمانيين .

والطريقة الثانية كان يتبعها الاوربيون في السـاحل الغربي من افريقيا ، فكانوا يثيرون العداوة والبغضاء بين رؤساء القبائل فتنشب بينهم حـروب وغارات مستمرة يكون حصيلتها أسر وسبي ، فيشتري الأوربيون ما يقدم اليهم منه بأثمان بخسة ، وقد تمكن البرتغاليون ان يحصلوا بهذه الوسيلة على رق كثير ، وشعرت بعض القبائل بقصدهم من اثارة العداوة بينهم فاتفقوا عليهم وهاجموهم في مراكزهم فتلقاهم البرتغاليون بالرصاص واطلاق المدافع فقتلوا

(١) الرقيق ماضيه وحاضره ص ١٩٣ ـ د. عبد السلام ترمانيني .

منهم جموعا كثيرة واضطروهم الى الاستسلام وفرضوا عليهم اتاوات سنوية فكانت رؤوسا من الرقيق(١) .

وكان كل مركز من المراكز التجارية ينقل صيده من الزنوج الى موانىء بلاده ولم تلبث ان اضحت مارسيليا - ونانت - وبريستول - وليفربول - واشبيلية ولشبونة مستودعات لتجميع الرقيق الافريقي استعدادا لنقله الى المستعمرات الامريكية .

وفي اليوم الثالث من شهر اغسطس (آب) سنة ١٦١٩ م حملت سفينة هولندية اول شحنة من الزنوج الى امريكا وكان عددهم عشرين زنجيا ورست بحمولتها في ميناء - جيمس تاون بولاية فرجينيا وكان ذلك العام بداية الحظ السيء والطالع المقيت لشعب بائس وقع في الرق الجماعي نحوا من اربعة قرون ومازال يعاني من رواسبه ويعيش في ذكرياته المريرة(٢) .

وفي السودان كانت تجارة الرقيق سائدة وتجارة اقوياء واصحاب نفوذ وذلك في عهد محمد علي وسعيد باشا رغم امر المنع الذي لم يكن الا اسميا ، وفي عهد الخديوي اسماعيل تم ضبط سفينة مشحونة بالارقاء بين كاكا وفاشودة اطلق سراحهم واعتقل التجار ، كما كان لاحتلال فاشودة سنة ١٨٦٥ م اثر كبير في سد طريق النيل في وجه تجار الرقيق الذين كانوا يقتنصون الارقاء في جهات بحر الغزال وخط الاستواء(٣) .

ثـورات العبيـد قبـل الميـلاد

إن الظلم والقمع والجوع والفقر والاستعباد وخنق الحريات على مر التاريخ هو من اسباب اندلاع الثورات ..

ومن اقدم ما عُرف عن ثورات العبيد ما روته احدى القصص اليونانية المتواترة عن حدوث فتنة اندلع لهيبها في مصر الفرعونية واستولى فيها العبيد الثائرون على احدى المديريات .

(١) الرقيق ماضيه وحاضره - ص ١٩٣ - ١٩٤ د. ترمانيني .

(٢) الرقيق ماضيه وحاضره - ص ١٩٤ د. ترمانيني .

(٣) نوادر المخطوطات - جـ ٤ - ص ٣٤١ تحقيق عبد السلام هارون .

وما روي عن ثوراتهم في اليونان في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد والتي كانت تقمع بوحشية تنتهي بقتل الثائرين والتمثيل بهم .

وكان العهد الروماني مسرحا لثورات دامية ففي عام ١٨٥ قبل الميلاد ثار عبيد المناجم في اقليم اتروريا ، وتتابعت ثوراتهم بعد ذلك في اقاليم اخرى وكان اهمها ثورتين ثورة العبيد في صقلية وثورتهم في مدينة كابو .

ففي عام ١٣١ قبل الميلاد انتهز عبيد صقلية اشتغال الجيوش الرومانية في صد هجمات القبائل الجرمانية فثاروا واحتلوا مدن الجزيرة وانضم اليهم الفقراء والصعاليك وقد ارسلت الدولة اربعة جيوش لقمع ثورتهم فدمروها واحدا بعد آخر وظلت صقلية في ايديهم بضع سنين ولكن روما تمكنت بعد ذلك من التغلب عليهم فقمعت ثورتهم وقتلت منهم عشرين الفا . واما ثورة العبيد في كابو فقد نشبت عام ٧٨ ق.م وتزعمها عبد يدعى (سبرتاكوس) وكان من امرها أن عدداً من الارقاء كان يساق الى تلك المدينة ليتدرب على العاب الجلاد ومصاولة الوحوش في المدارس المعروفة باسم (مدارس المجالدين) وان هؤلاء الارقاء قد برموا بحياتهم التي يتربصهم بها موت مدبر محتوم ، وفي احد الايام من تلك السنة اجتمع سبعون مجالدا وهم مسلحون بسيوف وخناجر وكانت تستعمل لتدريبهم وقام على رأسهم (سبارتاكوس) وكان جنديا هرب من الجيش فقبض عليه وارسل الى مدرسة المجالدين بعد تجريده من الحرية واقتحم الثوار ابواب المدرسة والتجأوا الى بركان فيزوف القريب من المدينة وانضم اليهم عبيد هاربون من انحاء مختلفة حتى بلغ عددهم سبعين الفا واستطاع (سبارتاكوس) بشجاعته النادرة أن يدحر الجيش الروماني الذي ارسل للقضاء على الثورة واخذ يحتل المدن الواحدة تلو الاخرى متجها نحو الشمال يريد ان يجتاز جبال الالب مع ثواره ويلتحق بقبائل الغال ليعيشمعهم بحرية ، غير انه لقي صعوبة في تنظيم الثائرين الذين كانوا يفضلون النهب والسلب ويمعنون في الانتقام من السادة وقد تمكن مع ذلك من تهديد روما وتحدي حاكميها وكان يسمى كل منهما (قنصلا) فجندت روما جيشا بقيادة (ماركوس جراسوس) وتمكن هذا القائد من سحق الثوار وظل (سبارتاكوس) يدافع ببطولة حتى كان آخر من قتل في المعركة وقد انتهت هذه الثورة التي دامت سبع سنين باعدام ستة آلاف ثائر(١) .

(١) الرق ماضيه وحاضره ـ ص ٩٥ ـ د. ترمانيني .

ثورة الرق في البصرة

وكانت أهم (حروب الارقاء) في الشرق هي التي أثار عجاجها (علي بن محمد)(١) ادعى انه من نسل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ، ولقد استطاع علي ان يقود الارقاء الزنوج الذين كانوا يعملون في كسح السباخ بالقرب من البصرة فأخذ يحرضهم على الثورة لسوء ما يلقونه من معاملة ويعدهم بالتحرر من رق سادتهم وبالثروة وامتلاك العبيد ، فأثرت فيهم دعوته واستجابوا له ، واستولوا على العتاد والزاد وهزموا الجيوش التي سيرت لقتالهم ، وأنشأ (علي بن محمد) لهم قرى مستقلة وقصورا لقادتهم وسجونا لاسراهم ومساجد لصلواتهم .

وعرض سادة الارقاء ان يؤدوا لعلي خمسة دنانير عن كل شخص من الثوار يعود الى عمله اذا اقنعهم بالعودة وانهى تمردهم فأبى ، وتم حصارهم بمنع الطعام عنهم من القرى المحيطة بهم ولكنهم هاجموا بلدة الابلة حين نفدت مؤونتهم وحرروا من فيها من الارقاء وضموهم الى صفوفهم ثم نهبوها وأشعلوا فيها النار ، وتشجع علي بهذا النصر فهاجم عدة بلاد اخرى واستولى على الكثير منها وسيطر على جنوبي ايران والعراق حتى دق أبواب بغداد نفسها وتعطلت التجارة وقل الطعام في العاصمة .

وفي عام ٨٧١ م استولى المهلبي قائد الزنوج على البصرة وذبح ثلثمائة(٢) ألف من أهلها وسبى الجنود الزنوج آلافا من النساء واسترقوا آلافا من الأطفال البيض بعضهم من بني هاشم أنفسهم ، وظلت نار الثورة مشتعلة عشر سنين ، سيرت في خلالها عدة جيوش لقمعها وعرض على من يفرون من صفوف الثوار المال والعفو ، فتمرد كثيرون من رجال علي عليه وانضموا الى جيوش الحكومة ، ثم حوصر من بقي منهم وضيق الخناق عليهم وسلط عليهم الرصاص المصهور والنار اليونانية وهي مشاعل من النفط الملتهب ، وانتهى الامر بان دخل جيش يقوده الوزير الموفق الى مدينة الثوار وتغلب على ما لقيه من المقاومة وقتل عليا بن محمد وحمل رأسه الى المنتصر ومسجد الموفق وضباطه شكرا لله على رحمته وكانت عام ٨٨٣ م .

(١) قصة الحضارة ج ١٣ – ص ١١٣ – ول ديورانت .

(٢) اعتقد ان هذا الرقم مبالغ فيه جدا .

ودامت الثورة اربعة عشر عاما حاق فيها الخطر بجميع المقومات الاقتصادية والسياسية في البلاد الشرقية الاسلامية ، حيث انتهز احمد بن طولون والي مصر هذا الاضطراب فاستقل باغنى ولايات الخلافة الاسلامية(١) .

ثورات الزنوج في امريكا

إن شدة الظلم والقهر يؤديان للتمرد والثورة كما الضغط الشديد يولد الانفجار ففي سنة ١٥٢٠ م ثار الزنوج في (كوبا) وفي سنة ١٥٣٧م ثاروا في (المكسيك) وفي سنة ١٥٥٠ م ثاروا في (فنزويلا) وتزعم ثورتهم زنجي يدعى (مقل) واقام لهم في التلال القريبة من بلدة (نوبنا سيغوفيا) دولة ووضع لها قانونا ونصب نفسه ملكا عليها . وفي أواخر القرن السادس عشر ثاروا في (البيرو) .

وفي سنة ١٥٩٨ م ثاروا في (كولومبيا) واندفعوا من المناجم التي سخروا للعمل فيها ودمروها . وفي أواسط القرن السابع عشر تجمع العبيد الآبقون وكانوا من المسلمين واقاموا في شمال البرازيل جمهورية زنجية جهزوها بجميع اجهزة الدولة ذات السيادة السياسية والاسلامية .

وفي أواخر القرن الثامن عشر قامت عدة ثورات في السواحل الشرقية للبرازيل ، وكان الزنوج الثائرون من الافارقة المسلمين .

وفي سنة ١٧٩١ م ثاروا في جزيرة هايتي احدى جزر الانتيل .

وقد باءت هذه الثورات بالفشل مع ثورات اخرى قضي عليها وأبيد فيها الثائرون بلا رحمة ماعدا ثورة واحدة ظفر فيها الزنوج وهي الثورة التي نشبت في جزيرة (هايتي) سنة ١٧٩١ م فقد ظلت هذه الجزيرة منذ اكتشافها سنة ١٤٩٢ م تحت حكم الاسبان حتى عام ١٦٩٧ م حيث تنازلت اسبانيا عن الجزء الشرقي منها لفرنسا ثم تنازلت لها عن القسم الغربي وهو الذي يعرف باسم (الدومينيكان) فتوحدت بذلك تحت الحكم الفرنسي .

---

(١) قصة الحضارة ج ١٣ — ص ١١٤ — ول ديورانت .

وفي سنة ١٧٩١ م ثار الزنوج على الفرنسيين وقاد ثورتهم ثائر من ابناء الجزيرة يدعى (توسان لوفيرتور) فتغلب عليه الفرنسيون واسروه ومات مأسورا سنة ١٨٠٣ م وخلفه في الثورة زنجي يدعى (جاك ديسالين) فتغلب على الفرنسيين سنة ١٨٠٤ م ودحر جيشهم الذي كان يقوده الجنرال (روشامبو) ونصب نفسه ملكا وانتقم الزنوج من البيض المستعمرين انتقاما شديدا ولم يلبث (ديسالين) ان اغتاله منافسوه .

ثم عاد الفرنسيون الى حكم الجزيرة ، وفي عام ١٨٤٤ انقسمت الجزيرة الى قسمين كما كانت من قبل فاما القسم الغربي فتألفت منه (جمهورية هايتي) واما القسم الشرقي فتالفت منه (جمهورية الدومينيكان)(١) .

الغاء الرق

في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي ظهر في أوربا تيار فكري يقوده كل من (فولتير ـ ومونتسكيو) فهاجما الاسترقاق ونددا بالمتعصبين الاوربيين انصار الاسترقاق .

اما المؤرخ الفرنسي (دينال) فقد وضع كتابا حمل فيه على المستعمرين ورجال الدين الذين يؤيدون الاسترقاق وكذلك الكاتب الفرنسي (مارمونتيل) وضع كتابا عن شعب الانكا ومجد بطولات هذا الشعب الذي اباده (بيزارو) القائد الاسباني الذي غزا البيرو(٢) .

وعندما قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م قام ابرز رجالاتها (كوندرسيه ـ وبينيون) وخطيب الثورة (ميرابو) بمهاجمة الاسترقاق والغي رق الزنوج بالقانون الصادر عام ١٧٩١ في المستعمرات الفرنسية . وحين تولى (نابليون بونابرت) الحكم اصدر بتاريخ « ١٩ مارس ١٨٠٢ م » قرارا بالعودة الى استرقاق الزنوج وقد ثار الزنوج في جزيرتي (سان دومنيك والجوادلوب)

(١) الرق ماضيه وحاضره ـ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ـ دكتور ترمانيني .

(٢) الرق ماضيه وحاضره ـ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ـ د. ترمانيني .

فقضى نابليون على ثورتهم بعد مقاومة دامت ثلاث سنوات واعيدوا الى الرق .

وفي عام (١٨٠٧) م اصدرت انكلترا قانونا بمنع الاتجار بالعبيد وفي عام (١٨١٥) م تمكنت من اقرار هذا المنع في مؤتمر فينا بعد سقوط نابليون(١) .

وفي (١٨٣١) م عقد مؤتمر في لندن اتفقت فيه الدول المشاركة على اعتبار تجارة الرقيق من أعمال القرصنة البحرية .

وفي عام (١٨٣٣) م اصدر مجلس العموم البريطاني قانونا حرر بموجبه جميع العبيد المسترقين والغي الرق في المستعمرات البريطانية .

ولم توقع فرنسا على اتفاق مؤتمر لندن غير أنها ابرمت بتاريخ(١٨٤٦) م اتفاقا بين الدولتين لتفتيش السفن التي تحمل عبيدا وتساق الى أحد موانىء الدولتين ليحاكم ملاحوها بجرم القرصنة .

وفي عام (١٨٣٥) م الغته اسبانيا . وفي عام (١٨٤٩) م الغته البرتغال وحررت هاتان الدولتان الزنوج في مستعمراتها في أمريكا .

وفي عام (١٨٤٨)م أصدرت فرنسا قانونا يقضي بالغاء الرق في المستعمرات الفرنسية .

وفي عام (١٨٦٠) م الغت الرق كل من هولندا والدانيمارك(٢) .

أما في أمريكا ففي عام (١٧٨٧) م اجتمع مندوبو الولايات المتحدة في فيلادلفيا وكان موضوع الرق إحدى القضايا المطروحة وفي عام (١٧٨٩) م انتخب جورج واشنطن رئيسا للولايات المتحدة وكان من انصار تحرير العبيد في أمريكا .

---

(١) الرق ماضيه وحاضره ـ ص ٢١١

(٢) الرق ماضيه وحاضره ـ ص ٢١٢

وفي عام (١٧٩٣) م أصدر الكونغرس الامريكي بناء على طلب الولايات الجنوبية احكاما زجرية بحق العبيد الهاربين واعتبار الزنجي عبداً ولا يجوز نقض ذلك .

وفي تاريخ (١٨٠٨) م تمكنت الأكثرية في الكونغرس الامريكي من اصدار قانون يقضي بمنع استيراد الزنوج الى الولايات المتحدة واعتبار السفن التي تنقلهم تمارس عملا من أعمال القرصنة(١) .

وفي عام (١٨٥٦) م فاز (جيمس بوكانان) برئاسة الولايات المتحدة وكان من انصار الإسترقاق(٢) .

وفي عام (١٨٦١) م تولى ابراهام لنكولن رئاسة الولايات المتحدة وكان من انصار تحرير العبيد .

وفي عام (١٨٦١) م تولى ابراهام لنكولن رئاسة الولايات المتحدة وكان الإسترقاقية واعتقت اربعة ملايين نفس من اغلال الرق والعبودية(٣) .

هل الغي الرق

قال ارسطو : (إن الرق سيبقى ضروريا ما دامت الآلة لا تعمل بنفسها(٤) .

ويقول الكاتب الانكليزي المعاصر (هـ. جـ. ولز) إن وجود الرق كان أمرا منطقيا حين لم تظهر الآلات ولم تنتشر اما وقد تقدم العلم الطبيعي وازدهر، وسار الاختراع في درب الكمال فلم تعد الانسانية في حاجة الى نظام الرق ؛ ولم يعد للأقوياء حجة في الاسترقاق(٥) وفي ذلك يرد (ولز) على ارسطو ولكنه يقر الرق في الماضي .

١ ــ الرق ماضيه وحاضره ــ ص ٢٢٣
٢ ــ الرق ماضيه وحاضره ــ ص ٢٣٧
٣ ــ الرق ماضيه وحاضره ــ ص ٢٤٣
٤ ــ الرق ماضيه وحاضره ــ ص ٢٤٤
٥ ــ الرق ماضيه وحاضره ــ ص ٢١٦ ــ ٢١٨

ويقول د. ترمانيني (غير ان ظاهرة الاسترقاق على الرغم من اختراع الآلة التي تعمل من ذات نفسها وحتى بعد إلغاء الرق ما زالت مستمرة ، فالرق إنما الغي كمؤسسة قانونية لكنه قائم كمؤسسة واقعية ففي النطاق الدولي نجده متخفيا تحت أسم الاستعمار والتمييز العنصري والتفريق العنصري) .

وفي غير هذا النطاق نجده متخفيا تحت ستار البغاء وتجارته المعروفة باسم الرق الجنسي وتدل تقارير اللجنة الدولية لحقوق الانسان وتقارير مكافحة الرق والبوليس الدولي (انتربول) على ان الرق ما زال موجودا وهو يمارس في صوره المتعددة في كثير من انحاء العالم(١) .

ويقدر الكولونيل (باتريك مونتغمري) أمين سر رابطة مكافحة الرق بلندن أن عدد الأرقاء في العالم حوالي اثني عشر مليونا من الرجال والنساء .

وإن الرق يمارس على خمس صور : الشراء ، والدَّين ، والقنانة (رق الارض) والزواج الجبري ، والتبني الصوري .

وفي عام ١٩٥٦ جاء في دراسة لهيئة الامم المتحدة ــ القسم الاجتماعي والاقتصادي ، بأن وسائل النقل الحديثة يسرت تجارة الرقيق وزادت في نشاطها .

وفي ٣١ اغسطس ١٩٧٦ طلبت اللجنة الفرعية من الأمين العام لهيئة الامم المتحدة ان يدعو الدول الموقعة على اتفاقيتي ١٩٤٩ ــ و ١٩٥٦ لتقديم تقرير اليه كل عام يتضمن الوضع القانوني للرقيق في بلادها وعما اتخذته من اجراءات ادارية لقمعه والقضاء على تجارته وبتاريخ ٢٥ آب ١٩٧٨ م نشرت لجنة حقوق الانسان بأن الرق ما زال نشيطا وخاصة في البلاد النامية فالأولاد ما زالوا يباعون في الهند وبأعداد مذهلة وكذلك في أفريقيا وامريكا اللاتينية .

وفي تاريخ ١٦ و ١٧ آب ١٩٧٩ عقد فريق العمل التابع للجنة حقوق الانسان بقصر الامم بباريس وناقش تقريرا مشيرا عن بغاء الفتيات في البرازيل ، إذ يشتري القوادون البنات دون سن الرابعة عشرة من عمرهن بأثمان بخسة وتقع البنات في رق مشتريهن فيدفعون بهن الى تعاطي البغاء(٢) .

١ ــ الرق ماضيه وحاضره ــ ص ٢٢٤ .
٢ ــ الرق ماضيه وحاضره ــ ص ٢٠٩ .

وفي شهر آب من عام (١٩٨٠ م) عقد في قصر الامم بباريس فريق العمل التابع للجنة حقوق الانسان واطلع على تقرير جمعية مكافحة الرق بلندن وفيه شرح للحالة التي يعانيها المواطنون في (غواتيمالا) من استبداد كبار الملاك .

وفي عام (١٩٨٤) ما بين ٣٠ يوليو (تموز) و ٣٠ اغسطس (آب) عقد فريق العمل التابع للجنة حقوق الانسان بقصر الامم بباريس جلساته واصدر تقريرا قال فيه (إن الإسترقاق ما زال شائعا تحت ظواهر مختلفة منها استخدام الأطفال في المصانع والمعامل والاتجار بالبغايا والاطفال وتسخير الأشخاص للعمل في الارض الزراعية لكبار الملاك ...) .

وفي الحق إن الرّق والقضاء على تجارته واستثمار ضحاياه لا يمكن ان تستقل به دولة بمفردها بل لا بد من تعاون شامل بين الدول ... وان تتولى المنظمات الدولية والاقليمية هذا الكفاح كالجامعة العربية ، ومنظمة الدول الافريقية والسوق الأوربية المشتركة ومنظمة الدول الامريكية ومثل هذا التدبير أقل مساً بالكرامة القومية التي تتذرع بها بعض الدول(١) .

وهذا غيض من فيض

١ ـ الرق ماضيه وحاضره ص ٣٠٩ وما بعدها .

المراجع التي استند إليها البحث

١ ـ قصة الحضارة ـ ول. ديورانت .

٢ ـ الرق ماضيه وحاضره ـ د. ترمانيني .

٣ ـ رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون .

٤ ـ نوادر المخطوطات ـ تحقيق عبد السلام هارون .

٥ ـ الحضارة الاسلامية ـ آدم متز .

٦ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل. بروكلمان .

٧ ـ حضارة العرب ـ غوستاف لوبون .

٨ ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ستيفن دنيسمان .

٩ ـ الأعمال الكاملة ـ قاسم امين .

١٠ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ دكتور جواد علي .

★ ★ ★

مدخل إلى قراءة المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي المعاصر

د. عبدالله أبوعساف *

خضع الشعر العربي المعاصر لمجموعة مختلفة من المؤثرات ، كان ابرزها : المؤثر الموضوعي ـ الاجتماعي، والمؤثر الثقافي بشقيه : التراثي والأجنبي .

وقد ساهم المؤثر الأجنبي بدور بارز في دفع حركة الشعر العربي المعاصر ، وإثراء فاعليته . ومما ساهم في خصوبة هذا الأثر سببان رئيسيان :

* د. عبد الله ابو عساف : استاذ في كلية الآداب ، جامعة حلب ، ينشر في عدد من الدوريات المحلية والعربية .

الأول : طبيعة الواقع العربي المتباينة التي هيأت الشعراء لتقبل هـذا الأثر والتفاعل معه .

الثاني : الامكانات الفذة التي تنطوي عليها طبيعة الصورة الفنية . ويمكن القول ـ ضمن هذا الاطار ـ : لقد انتقلت مضامين الوعي الأجنبي : الفكرية ، والفلسفية ، والفنية ، والجمالية عبر الصورة الفنية للمذاهب الأدبية . وذلك لما تتميز به هذه الصورة من خصائص مختلفة ابرزها التشكيل الحسي ؛ وبمعنى آخر : إن المؤثر الاجنبي ـ بأشكاله المختلفة ـ انتقل الينا مصوراً ، او ان (المصور منه) هو الذي كان له الاثر البالغ والفاعلية الكبيرة في شعرنا المعاصر .

فالوجودية مثلا ، او لنقل : ابرز المفاهيم الوجودية لم تنتقل عبر (الوجود والعدم) ، او (الوجودية مذهب انساني) ، او (المادية والثورة) ، وإنما انتقلت عبر (كاليغولا) ، و (سوء تفاهم) و (الذباب) و (وثلاثة في الجحيم) ..... الخ ؛ لأن المفاهيم الوجودية المختلفة في هذه المسرحيات تجسدت مجسدة عبر نماذج فنية صاغتها وساهمت في بلورتها الصورة الفنية .

وربما ـ لهذا السبب ـ تحتاج دراسة الاثر الاجنبي في الشـعر العربي المعاصر الى فهم لطبيعة المذاهب الادبية التي عكست القيم الفكرية والجمالية والفنية في فترة انتشارها ، ويحتاج فهم هذه المذاهب الإلمام بخصائص الصورة الفنية التي عكست ابعاد تلك المذاهب وكثفت ضمن مناخاتها المتميزة ابرز خصائصها .

وبحثنا الموجز هذا الذي هو دراسة نظرية يطمح ـ بالارتكاز على ماتقدم ـ الى يتناول المحاور التالية : ١ ـ : قراءة المذاهب الادبية من خلال ربطها بجذورها التاريخية والاجتماعية ، وعبر تحديد الاصول الفلسفية والجمالية والفنية لها .

٢ ـ رسم اطار شامل ـ بالاتكاء على المحور ـ السابق ـ لطبيعة الصورة الفنية لكل مذهب من المذاهب ، والتعرف ـ من خلال ذلك ـ الى أبرز خصائصهـا .

٣ ـ تأكيد انه لا يمكن قراءة المؤثر الأجنبي في الشـعر العربي المعاصر قراءة علمية إلا عبر فهمنا لطبيعة الصورة الفنية في المذاهب الادبية .

الصورة الفنية في المذهب الرومانتيكي :

ظل عصر الاقطاعية الاوربي سنوات طويلة أمينا لوصية هوراس (النفور من العامة والترفع)(١) ، وظل المجتمع الاوربي طوال تلك الفترة يعيش الق العطاء اليوناني ، وينهل من معينه ويسير على هداه . والمارق المارق من خالف القوانين والانظمة ، وكسر عصا الطاعة وحاول أن يتجاوز المثال اليوناني . ولم تكن القضية آنذاك — عصر سيطرة المذهب الكلاسيكي — مجرد تقليد لعطاءات سابقة فحسب ، وانما كانت هالة القديم تغمر العقول وتثير الدهشة والاعجاب وقد صرح بوب — أحد شعراء الكلاسيكية الجديدة الكبار — أنه (لابد من الاعتراف بأن في اللغة الاغريقية عظمة وتناغما)(٢) ، كما أكد جوزيف اديسون عام ١٧١١ م أن الشاعر الجيد هو الذي (سينقب طويلا في كنوز الكلمات المنسية ويضعها في التداول مرة أخرى ، وسينقب في التعابير المتقادمة اللامعة التي تستكن خبيئة تحت ركام الاهمال)(٣) ، لأن (الجمل المستعملة في المحادثة العادية تغدو شديدة الألفة على الأذن ، وتلتقط نوعا من الوضاعة لدورانها على الالسنة العامة ، فيجب على الشاعر أن يحترس لنفسه من الأساليب الشائعة في الكلام)(٤) .

ومن مبدأ الايمان المطلق بالقديم بدأ التيار الكلاسيكي الذي ظهر (في القرن الخامس عشر)(٥) ، يؤسس قواعده ، وينسج ضوابطه . ومن أولى تلك القواعد : الابتعاد عن كل ما يخالف العقل والمنطق ، فعلى الكاتب المسرحي مثلا أن يلتزم بالوحدات الثلاث ، ويعتبر أي خروج عليها مخالفا لما رسمه ارسطو في كتابه (الشعر) ، وعلى الأديب أن يختار موضوعاته بدقة ؛ لأن شرعية وجود الادب مرتبطة بالطبقة المسيطرة ، وأي نزول الى العامة سقوط في الابتذال ومخالفة لوصية هوراس . وكان الادب يتحدث عن الطبقة العليا عليه أن يلتزم بلغة رفيعة ، مقيسة بضوابط ثابتة ، وقوانين واضحة ، لهذا فالكاتب الكلاسيكي لم يكن يهتم بذاته التي هي محصلة للعلاقة التفاعلية بينها وبين الواقع الا بقدر ما كانت تتماشى والقوانين الممنوحة لها . وهذا يعني — بشكل ما — أن تصميم القصيدة في المدرسة الكلاسيكية كان نابعا من (عمل الفكر ، وعلى الشاعر أثناء نظمه أن يضع أمام عينيه النماذج القديمة الكبرى)(٦) ، كما يعني أيضا أن أدب المدرسة الكلاسيكية أدب العقل وأهم سماته (الاعتدال والوضوح)(٧) ،

و (الكتاب الجيد ـ كما يقرر شابلين ـ هو الذي يراعي الأصول ....). واذا كان هناك خطأ في الكتاب ، فليس من القواعد بل من ســوء استخدام الكاتب نفسه للقواعد)(٨) وقد جاءت المدرسة الكلاسيكية ـ التي أشرنا الى أهم مبادئها ـ انعكاسا ، أو نتيجة للنظام الاقتصادي السائد ـ آنذاك ـ والذي سمي بالنظام الاقطاعي ، هذا النظام الذي فرض على الحياة الاجتماعية نوعا من الجفــاف والركود على جميع الأصعدة .

ان هذا الوضع الذي اتسم ـ في مجمله ـ بالسكونية واللاتاريخية(٩) لم يدم طويلا أمام التحولات الكبيرة التي أرستها البرجوازية الغربية . ومثلما وجد النظام الاقطاعي شكله في المذهب الكلاسيكي ، فان المذهب الرومانتيكي كــان الشكل الامثل الذي عكس الوعي البرجوازي بكل تحولاته .

والرومانتيكية مذهب ادبي (كتب بعد فترة الكلاسيكية المحدثة)(١٠) ، وهي تمثل واحدة من اهم نقاط التحول في تاريخ الوعي الاوربي(١١) ، ولا بد هنا من التنبيه الى ان الرومانتيكية كانت في بدايتها تمثل حركة احتجاج مــن البرجوازية الصغيرة على النظام الارستقراطي السائد(١٢) ، لكنها انتقلت ـ بعد ذلك ـ الى حركة احتجاج على البرجوازية التي انحرفت عن مسارها واتخذت شكلا آخر قائم في مبدئه على استلاب الانسان . وقد كان عامة الناس ومــن بينهم الشعراء يعقدون آمالا كبيرة على النظام الجديد ، لأنه سيحقق لهم العدل والحرية والمساواة ، لكنهم فوجئوا بأن النظام البرجوازي ـ الذي انتقل فيما بعد الى نظام رأسمالي امبريالي ـ لم يكن أحسن حالا ـ بالنسبة اليهم ـ مــن النظام الاقطاعي السابق .

وقد ورَّث هذا الموقف صداما حاداً بين نقيضين ـ أو هكذا يبدو ـ تجليا في صراع الانا والعالم(١٣) ، وربما سوغ لنا هذا الفهم الصيغة الانهزامية التي سيطرت على الرومانتيكية في بعض مراحلها . والناظر الى تاريخ البرجوازية الغربية يجد انها لعبت (دورا تقدميا في تطور المجتمع . ففي عصــر الثورات كانت تتزعم الجماهير الشعبية ضد الاقطاعية ... ولكن مع تطور الرأسمالية ـ وخاصة مع انتقالها الى طورها الاحتكاري ـ تغير وضع البرجوازية التاريخي تغيرا جذريا ، فقد صارت البرجوازية الاحتكارية شأنها شأن الطبقة الاقطاعية قبلها العائق الرئيسي أمام التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، ذلك أن مصالحها الآنانية تتناقض تناقضا مستعصيا مع مصالح التطور الاجتماعي)(١٤) .

ويتجلى المبدأ الفلسفي الذي ارتكزت عليه الرومانتيكية بأشكالها المختلفة في الاحتفال الشديد بالفرد وتأكيد أولويته بالنسبة الى المجموع ، وبمعنى آخر رؤية الوجود من خلال الذات . ومن السمات المميزة للكاتب الرومانتيكي فهمه (لظواهر الواقع الحقيقية فهما ذاتيا جدا ومحاولته اسباغ ما يراه عليه)(١٥) .

ومن خلال هذا المبدأ الذاتي حدد الرومانتيكيون مواقفهم من القضايا المتعلقة بالحياة والفن . فالبدء من الذات يلغي الواقع بطريقة ما ، وان كون الواقع ممتلئا بالتناقض يزيد من بشاعته في نظر الكاتب الرومانتيكي ، ويسوغ موقفه الأساسي منه . فهو — أي الواقع — (بالنسبة للعقل الرومانسي ملغى الغاء او على الاقل مشوه)(١٦) .

وفي مجال الادب ، حيث لا يكون الواقع مصدر ثقة ، تتجه الأذهان الى مصدر آخر للابداع . وقد تجلى مصدر الشعر لدى الرومانتيكيين في الالهام والعاطفة ، ويأخذ الخيال دوره البارز هنا في تجسيدهما ، واخراجهما في الصيغة المثلى . وهو لهذا (مصدر الابداع والمعرفة)(١٧) لدى الرومانتيكيين .

ومن النقاط التي تسجل للرومانتيكية وعيها لقيمة الخيال ، وتنفيذ ذلك على صعيدي الابداع والنقد . وأهم سماته — اضافة الى كونه مصدرا للمعرفة الخلق ، بمعنى استحضار اللامرئي واعادة تشكيل المدركات وتنظيم المشاعر وتجسيدها ، والقدرة على النفاذ الى (طبيعة الحقيقة)(١٨) ، والخصوبة واثراء العمل الابداعي ، وتوليد الصور .

وقد كان للاهتمام الكبير الذي أولاه الرومانتيكيون للخيال أثر كبير ، ليس في أعمالهم الابداعية فحسب ، وانما أيضا في الاعمال الابداعية والنقدية التي تلت : الرمزية ، والدادائية ، والسريالية ، والواقعية الاشتراكية ، والبنيوية ..... الخ ، ولكنه — مع التقدير الكبير له — ظل قاصرا ، ولم يكن فعالا ، لانه كان محصورا بالفرد وبعالم المثل الذي كان يستقي منه نماذجه ، وقد انحصر اهتمامه — غالبا — في اخصاب اللغة ، والتصوير ، واغناء النص بكل ما هو غريب .

وقد ادى ربط الشعر بالالهام والعاطفة والخيال الى احتفال النص الرومانتيكي بكل ما هو غريب وخارق واسطوري(١٩) ، والى تحرر لغته من

القيود التقليدية السابقة . ولم يكن الرومانتيكي ـ كما يبدو ـ يهتم بقوة المعنى ـ كما اهتمت بها الرمزية فيما بعد ـ وانما كان همه موجها الى قوة الكلمات وقد تجلى ذلك في قدرة الرومانتيكية على التعبير من خلال الايحاء والتصوير . ومن هنا فهي مختصة بالشخصية التي ابدعتها ، وبقدرتها ـ من جهة اخرى على تجسيد الغريب والخارق والاسطوري . وقد اكد كوليردج : ان الشعر في قوة كلماته(٢٠) .

ومن الامور التي يجب ملاحظتها في الرومانتيكية احساس الشاعر الدائم بالاضطهاد والاغتراب بسبب بعد الشقة بينه وبين المجتمع ، وموقفه السابق من الواقع . ولا بد من التذكير بان علاقة الانسان بالمجتمع في مفهوم البرجوازية ليست علاقة تفاعلية ، وانما هي علاقة صدامية دائمة ، تتمثل في رغبة الفرد المستمرة في التخلص من القيد / المجتمع .

فالنظرة الى الواقع من خلال الذات كافية لوضع الانسان في موقع القلق الدائم والاغتراب ، ويزداد هذا الموقف حدة حين يفقد الرومانتيكيون الثقة بقيادتهم البرجوازية التي استلبت الانسان وافرغته من مضمونه الاخلاقي . وقد يكون هذا التفسير مسوغا للشعور بالقلق الروحي والعزلة والاغتراب لدى جميع الرومانتيكيين ، وكذلك الرغبة الدائمة في الهرب الى العوالم التي لا ترى ، والى الاكثار من احلام اليقظة .

ومن بين المواقف التي تميز بها الشعراء الرومانتيكيون الهرب الى الطبيعة التي اصبحت هاجسهم الدائم . وقد زينها الخيال لهم ، واصبحت بالنسبة الى معظمهم (كلاً عضويا على شاكلة الانسان ، ورفضوا اعتبارها مجرد حشد من الذرات ، فالطبيعة عندهم لا تنفصل عن القيم الاستطيقية التي لها من الواقعية ما لتجريدات العلم ، بل اكثر)(٢١) .

مما سبق نجد ان الصورة الفنية الرومانتيكية تتميز بالسمات التالية :

ـ الفردية والاهتمام باللامألوف والغرابة .

ـ الاهتمام بالطبيعة .

ـ القلق والاغتراب .

ــ الخصوبة المتميزة في اللغة والتركيب
ــ التنامي الداخلي من خلال تأكيد الوحدة العضوية .
ــ العاطفة .
ــ الحلم المعتمد على الالهام .

وبالارتكاز على المواد الاساسية للصورة يمكن القول :

ان الصورة الرومانتيكية تغلب الذات على الواقع الموضوعي ، وتغلب العاطفة ــ من بين العناصر الذاتية ــ على الفكر واللاشعور ، ويأخذ الخيال الدور البارز في تشكيلها وفي استحضار الكلمات والأحداث اللامألوفة .

الصورة الفنية في المذهب الرمزي :

جاءت المدرسة الرمزية في فرنسة وبقية البلدان الاوربية ردا على تأزم الفرد الغربي وقلقه الناجم عن تأزم الرأسمالية الغربية والمجتمع الغربي ، وردا على اسراف الرومانتيكيين في قضايا العاطفة والطبيعة والالهام والخيال .

ويمكن استخدام الرمزية (كاصطلاح عام يدل على أدب الاقطار الغربية بعد اضمحلال واقعية القرن التاسع عشر وطبيعيته ، وعلى الفترة التي تسبق الحركات الطليعية الجديدة : المستقبلية ، التعبيرية ، السريالية ، الوجودية)(٢٢)، كما يمكن اعتبار الفترة (الواقعة بين عام ١٨٨٥ وعام ١٩١٤ تقريبا فترة الرمزية)(٢٣) ، واعتبارها (حركة عالمية انبثقت من فرنسة)(٢٤) .

ومن اهم ممثليها : ادغار آلان بو / ١٠٨٩ ــ ١٨٤٩ / م ، وستيفان مالارميه / ١٨٤٢ ــ ١٨٩٤ /، وبودلير / ١٨٢١ ــ ١٨٦٧ / م، ورامبو / ١٨٥٤ ــ ١٨٩١ /م، وبول فاليري /١٨٦١ ــ ١٩٤٥/م، واليوت /١٨٨٨ ــ ١٩٦٥/م.

والمبدأ الفلسفي الذي انطلقت منه الرمزيه يتمثل في الانكفاء الى جوهر الذات والاعتناء الشديد في صناعة القصيدة . والفردية هذه هي منطلق المدرسة الرومانتيكية مثلما هي منطلق المدرسة الرمزية ، ولكن الخلاف بينهما يتمثل في اتجاه الشاعر في الاولى من الذات الى العالم في حلم جميل ، هادىء ، ينقله

الى الماضي البعيد والمستقبل المنتظر والطبيعة الوارفة والحبيبة الجميلة ، وفي اتجاه الشاعر في الثانية من الذات الى الذات نفسها ، والبحث في زواياه المظلمة عن الماضي والحاضر والمستقبل والوجود ، وجوهر الذات الفعلية . اما الخلاف الآخر بينهما فيتمثل في رفض الرمزية لمصدر الشعر الرومانتيكي القائم على الالهام ومجانية الخيال ، واعتبارها ان الجهد الشاق والاعتناء الشديد في صياغة القصيدة واختيار المفردات هو مصدر الجمال الذي تتحلى به ، وغاية الخيال الرمزي سَبْرُ الغامض ومحاولة استخراجه وتنظيم صور النص . ويذكر رنيه ويليك ان (الشك في الالهام والعـداء للطبيعـة هما النقطتان الحاسمتان اللتان تفصلان بين الرمزية والرومانسية)(٣٥) .

ومن خلال المبدأ السابق انطلقت الرمزية من فكرة مفادهـا : ان العالم عالمان : ظاهر وباطن ، وان مهمة الفن اخراج الباطن بمواد الظاهر أي استخراج اللامرئي بالمرئي ، وبعبـارة أخـرى : ان (الفن اعـادة تجسيد اللامتناهي بالمتناهي)(٣٦) . و (الرمزية بمعناها الواسع فعالية اساسية من فعاليات العقل الانساني ، فهي القـدرة على ممارسة تجربة يصعب الافصاح عنهـا بشكل محسوس)(٣٧) .

وحـين يدرك الدارس مبدأ الرمزية الآنف الذكر يستطيع ان يكتشف مسوغات الملامح الاساسية لها . فحين نعلم ان اهم غايات الرمزية الكشف عن الغامض واللامتناهي ندرك سبب الغموض الذي يسيطر على ابداع شعرائها ، وندرك ايضا سبب استخدام الايقاع الموسيقي بطريقة متعمدة ، متميزة ، كما ندرك سبب كثافة الصور الجزئية والرموز والجمع بين المتناقضات والالوان وتراسل الحواس ، واجتماع هذه العناصر او بعضها في عمل من الأعمال ليس الغاية منه الايحاء والغموض والابهام ، وانما الكشف ــ قدر الامكان ــ عن الغامض المختبىء ، والايحاء هو نتيجة توارد تلك العناصر وليس غايتها . والعناصر الرمزية المذكورة استخدمت بهذه الطريقة التي تبدو على الدوام موحية وقد تكون مبهمة ، لانها تتناسب والموقع الغامض الذي تبحث عنه في زوايا العالم اللامرئي .

وتتميز الصورة في المدرسة الرمزية بانها تبنى على قـوة المعنى الذي تقدمه ، لا قوة العاطفة ، وتقوم على الصنعة ودقة اختيار المفردات والتراكيب

وبتر الزوائد . وقد (كان مالارميه حريصا على الا يكون في القصيدة شيء بفعل المصادفة المحض ، وان يكون توافق الجزء مع الجزء الآخر كاملا وان يستوعب كلّ جزء كلّ جزء آخر)(٢٨). وقد كان اهتمام الرمزيين بصياغة القصيدة ينبع من اعتقادهم بأن جمال الصورة يكمن في تلك الصياغة ، اضافة الى ما تحمله من قوة المعنى . يقول ويليك : (اما الرمزية فهي اصطلاح يمهد للتركيب ويبعد اذهاننا عن ركام الملاحظات والحقائق ويمهد السبيل لتاريخ يكتب في المستقبل عن الادب بوصفه من الفنون الجميلة)(٢٩) .

والصورة الرمزية دائمة الربط بين المحسوس والمعنوي ، والمحسوس هو السبيل الى تجسيد المفهوم وبلورته واخراجه بحيث يمكن أن يندرك عن طريق التلقي الذهني او الحسي للصورة .

ومما تتميز به الصورة الرمزية : الاكثار من استخدام الالوان ، واسنادها الى غير ما هي عليه ؛ لأن الالوان من اكثر العناصر التي تخدم الشاعر في التعبير عما يريد ، ومن اجل هذه الغاية ــ غاية اخراج اللامتناهي ــ فقد بادلت الرمزية في صورها بين الحواس وجمعت بين أشياء لا تجمع واتكأت على غزارة الرموز والصور الجزئية . وكان أهم ما تميزت به : الموسيقا ، لانها من أقدر الاشياء ــ الى جانب اللون ــ على التعبير عن المكنون . وتأتي بعد ذلك سمات الغموض والايحاء والابهام ملائمة للصورة الرمزية .

وبالارتكاز على المواد الاساسية للصورة يمكن القول :

إن الصورة الرمزية تغلب الذات على الواقع ، وتغلّب الفكر ــ من بين العناصر الذاتية ــ على العاطفة واللاشعور . ويتجه الخيال الى احكام الصورة ، واختيار كلماتها ، وضبطها ضبطا محكما .

الصورة الفنية في المذهب السريالي :

حركة ادبية وفنية ظهرت في بدايات القرن العشرين خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها . وقد سبقتها حركة ادبية كانت تعتمد على الكتابة الآلية هي الدادائية . وقد قال عنها (فيليب سوبر) احد انصارها من الفرنسيين :

(لو انك اخذت قبعة وكتبت قدراً من الكلمات ، كل كلمة على ورقة صغيرة مستقلة ، ثم جعلت هذه الاوراق في القبعة ، ثم اخذت تستخرج هذا الاوراق واحدة بعد الاخرى حسبما يقع في يدك ، ودونت كل كلمة تجدها فيها، الواحدة بعد الاخرى ، فانك بذلك تصنع الشعر الدادي)(٢٠) .

وحين اختفت الدادائية اخذت السريالية مكانها . وكان لظهورها سببان اساسيان :

اولا ــ لم تكن بداية القرن العشرين مبشرة بتحقق آمال الادباء والفنانين وعامة الناس ، فقد بلغ تازم الراسمالية حداً كبيراً ، فخرجت من الاطار الاقليمي بحثا عن القيمة الزائدة . وكان من نتيجة ذلك الحرب العالمية التي قضت على القسم المتبقي من امل الناس والذي لم تطله الراسمالية بعد . ولعل الازمة التي خلقتها الراسمالية على المستويين الاقتصادي والاجتماعي ، والحرب المدمرة التي طالت كل شيء كانتا وراء شعور الانسان ــ في تلك الفترة ــ بعدم جدوى الحياة والانعطاف نحو الذات كليا ، وبالتحديد نحو الماضي اللاذاتي للشخص .

ثانيا ــ كان لاراء سيغموند فرويد ، وعلماء النفس في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الاثر الكبير في تغذية المذهب السريالي وظهوره(٢١) . ولعل فكرة البحث عن الذات الحرة من كل قيد ، والاعتقاد أن انسانية الانسان لا تتحقق الا باخراج المكبوت ، لانه يعبر عن جوهر الانسان كان الهاجس الذي يحرك الابداع السريالي .

ويمكن تحديد المبدأ الفلسفي للسريالية بالمحاور الثلاثة التالية :

ــ الاعتماد على الذات ورفض الواقع الموضوعي رفضا مطلقا .

ــ الاعتماد على آلية الحلم والتداعي .

ــ الاعتماد على الماضي الطفولي للذات المبدعة(٢٢) واستحضاره عن طريق الحلم والتداعي .

ويطلق بريتون على السريالية : الواقعية الخارقة(٢٣) . ويعرفها بقوله : ((« سوريالية » اسم مؤنث ، آلية نفسية ذاتية خالصة يستهدف ــ بواسطتها

ـ التعبير ، إن قولا ، وإن كتابة وإن بأية طريقة اخرى ، عن السير الحقيقي للفكر ، هي إملاء الذهن في غياب كل رقابة من العقل وخارج كل اهتمام جمالي او اخلاقي . « فلسفيا » تقوم السوريالية على الايمان بواقع فائق لبعض اشكال توارد فكري ، اهملت حتى عهدها ، وبقدرة الحلم العظيمة ، وبتصرف الذهن المجرد من الغاية . وترمي الى الهدم النهائي لجميع التراكيب النفسية الاخرى ، والى القيام مقامها في حل قضايا الحياة الرئيسة)(٢٤) .

ومن خلال هذا الفهم ، استعاض السرياليون عن الواقع بالحلم ، ويتساءل بريتون بقوله:(الا يمكن للحلم... أن يُطبق في حل قضايا الحياة الاساسية)(٢٥). ما دامت مدته ليست (ادنى من مجموع فترات الواقع .... فترات اليقظة)(٢٦).

والحلم لا يمكن أن يتحقق من دون حرية تمنحه التحرك في جميع الاتجاهات . ولهذا فقد قدس السرياليون الحرية سواء اكانت من اجل الحلم ، ام من اجل الكتابة ام من اجل تحرك الفرد ضمن علاقاته الاجتماعية . يقول بريتون : (الحرية ، الحرية التامة ، الحرية من الاضطهاد الانساني والالهي معا هي هدف السريالية)(٢٧) .

ومن المبادىء التي آمن بها السرياليون أن الانسان يولد وهو يحمل معه حصيلة كبيرة من التجارب الانسانية السابقة . ويفسر بريتون هذه المقولة بقوله : (حدث ان استعملت ـ سورياليا ـ كلمات كنت ناسيا معناها . وقد تحققت ـ من ثم ـ أن استعمالي لها كان مطابقا لتعريفها ، وفي ذلك ما يدعو الى الاعتقاد بان المرء لا يتعلم بل لا يفعل ابدا غير أن يعيد التعلم)(٢٨) .

واتكأ السرياليون على المخيلة كثيرا ، لانها السبيل الى استثارة الذاكرة ، واستحضار اللحظات الجميلة ، ولانها الملجأ الهادىء ، الامين الذي يقي الشاعر وطأة الواقع المخيف و(المخيلة وحدها تعلمني بما « يمكن أن يكون » وهذا كاف لتخفيف ... الخطر الرهيب ، كاف ايضا لكي استسلم لها دون خوف أن اخطىء)(٢٩) .

وكان من نتيجة اعتماد السرياليين على الحلم والحرية التي لا تحدها حدود والخيال المطلق أن اتسمت اعمالهم بالغرابة واحتوت على الخرافي والخارق

والمدهش . يقول بريتون (ان الخارق جميل دائما ، وكل خارق جميل ، بل لا جميل إلا الخارق مطلقا)(٤٠) ، ويقول في مكان آخر (المدهش دائما جميل ، كل مدهش جميل ، انه لا جميل الا المدهش)(٤١) .

وفي زحمة الخارق والمدهش والغريب كان السرياليون يبحثون عن الحب ، وحين بَعُدت المسافة بينهم وبين واقعهم راحوا يبحثون عن القيم الجميلة في الماضي . وما استحضارهم للحظات الغابرة ، او صور الطفولة الا من قبيل البحث عن الحب الصافي . ويذكر (غيرشمس) أن ما حاوله السرياليون في هذا المجال (هو ان يعيدوا تقييم الحب ودوره في المجتمع ، وان يضعوه في المكان الذي هو من حقه في مركز الحياة وان يجعلوا منه عن وعي ما ربما قد كان في زمن سحيق مضى الينبوع والالهام للنشاط الانساني برمته)(٤٢) .

من المواقف السابقة يبدو ان السرياليين كانوا ــ في موقفهم من الواقع الموضوعي ــ اكثر تطرفا من الرومانتيكيين والرمزيين . وعلى الرغم من ان المدارس الثلاث تبدأ من الذات وترفض الواقع ، فان السرياليين كانوا يفهمون أن توازن الذات لا يمكن أن يتم عن طريق العاطفة كما هي لدى الرومانتيكيين ، او عن طريق الصنعة الفنية واخضاع الصورة لرقابة العقل كما هي لدى الرمزيين ، وانما عن طريق الاتكاء على جوهر الانسان المتمثل بلا وعيه(٤٣) . وما دام وعي الانسان لم يحقق الأمن المطلوب ، ويحافظ على القيم الانسانية ، وكان السبب في قذف العالم في نزاعات دائمة وحرب مدمرة ، فان لا وعيه هو البديل المنطقي الذي يعيد للانسان إنسانيته .

ويمكن لنا الآن ــ وقد توضحت لدينا أهمّ معالم السريالية ــ ان نحدّد خصوصية الصورة الفنية فيهـا . وأهم ما يقال فيها انها تعتمد على الحلم والتداعي والخيال المطلق والتلقائية او الآلية ، وفي هذا يقول بريتون (مَثَلُ الصور السوريالية كمثل صور الافيون التي لا يعود الانسان يستحضرها ، بل تأتيه من ذاتها تلقائية، طاغية إنه لايستطيع صرفها، إذ تغدو الارادة لاقوّة فيها ولا سيطرة لها على القوى)(٤٤) . ومما تتميز به ايضا احتواؤها على الغريب والمدهش والخارق ، وهي تقدّم ذلك عن طريق نسف علاقات اللغة المنطقية ، وتحميل الالفاظ اكثر مما تحتمل ، والتغيير في علاقات الدّال بالمداول . والصورة

السريالية هي (التي تحتاج الى اطول وقت لترجمتها الى اللغة العادية ، إما لانها تتضمّن نسبة هائلة من التنافي الظاهر ؛ او انّ احد طرفيها مُعْطىً على نحو طريف ، او انها تبدأ مثيرة ثم تبدو ضعيفة الخاتمة ، او انها تستنتج من ذاتها تبريراً قطعياً ساخراً ، او انها من نوع التهاويل ، او انها تعير وجه المحسوس للمجرّد او العكس ، او انها تتضمن نفي خاصة فيزيائية ابتدائية ، و انها تبعث على الضحك)(٤٥) .

وبالارتكاز على المواد الاساسية للصور يمكن القول :

إنّ الصورة السريالية تغلب الذات على الواقع الموضوعي ، وتغلب اللاوعي ـــ من بين العناصر الذاتية ـــ على الفكر والعاطفة .

وعلى الرغم مما للسريالية من سلبيات بوصفها ابتعاداً عن الواقع وإغراقها في الذات ، فإن من الايجابيات ما يكفيها استمراراً وتأثيراً في الاجناس الادبية :

١ ـــ إنها كانت دائمة البحث عن اللقطة الجديدة والاشتقاق الجديد ، مما اعطى اللغة نشاطاً وحيوية وتجدّداً .

٢ ـــ حين رفض السرياليون الواقع استعاضوا عنه بعالم القصيدة . وقد سعوا الى جعل القصيدة عالما متكاملا يعادل العالم الموضوعي . وقد ادّى هذا الى اتساع آفاق العمل واتساع مراميه .

٣ ـــ وقد كانت السريالية حافزاً دفع الشعراء الى الاهتمام بعالم الفن الباطني ، والاستفادة من مخزونه .

الصّور الفنية في المذهب الوجودي :

الوجودية حركة فلسفية ، ادبية ، انتشرت في فرنسة في بداية القرن العشرين بسبب (التغيّرات التي وقعت في ذلك الوقت . فحدّة الصراع الطبقي وانخفاض مستوى الحياة وخطر الحرب الجديدة ضاعف الخوف والقلق لدى الجيل آنذاك . وكل هذا ادى الى العزوف عن تحليل الواقع الموضوعي ، وتحوّل اهتمام الانسان الى شخصه الذي ولّد في نهاية الأمر شعوراً مأساوياً وفلسفة

مطابقة تتسم بالحزن والتشاؤم . والتشاؤمية اهم ما ميز ذلك الوقت ، واهم ما طبع عقول مختلف فئات المثقفين ، وانتشر في اوساطهم إحساس « التدمير » ، إحساس بغياب هدف الحياة وعدم الثقة في استقرار العالم)(٤٦) . وضمن هذا الوضع المتأزم الذي شيأ الانسان ودمجه في عالم السلع والسوق والتبادل بدأ الانسان يبحث عن وجوده بوصفه ذاتا تشكل عالما له كيانه وتصوراته ومناخه الخاص .

وقد انطلقت الوجودية من فكرة الفصل التام بين الفرد والمجتمع ، والاهتمام الكلي بالانسان بوصفه مشروعا متكاملا ، او عالما مستقلا(٤٧) . ويعبر سارتر عن ذلك بقوله : (ان الوجود يسبق الجوهر ؛ أو بعبارة أخرى على انه يجب أن نبدأ من الذاتية) (٤٨) . وبهذا الفهم يلغي سارتر الوجود الموضوعي المستقل عن الذات إلغاء نهائيا ؛ ويتنكر لشروط التطور الموضوعية التي ينتقل المجتمع فيها من مرحلة الى اخرى ، كما يتجاوز او يتناسى اثر المجتمع في تكوين الفرد الذي يبدأ معه من الأسبوع الأول في حياته وحتى مماته .

والبدء من الذات يعني لدى الوجوديين ان كل شيء خارج الذات تابع لها ، ووجوده لا يتحقق الا بادراكها له . وبمعنى آخر : لا يوجد شيء خارج ذاتي . فالحجارة مثلا لا يتحدد وجودها الا ضمن وعيي لها ، وأنا الذي يمنحها الوجود والقيمة معا(٤٩) . ولهذا لا يوجد عالم واحد كما تقرر ذلك النظرية المادية وهو العالم الموضوعي، ولا يوجد عالمان : مادي ومثالي كما ترىذلك المثالية ، وانما يتعدد العالم بتعدد الافراد . وكل فرد له عالمه الخاص،وينظرالى العالم الموضوعي من خلال وجوده . وموت إنسان ما يعني موت العالم مرة واحدة ، العالم الذي تقرر وجوده بوجود ذلك الانسان . وبموت الانسان / الفرد / المشروع ينتهي كل شيء . يقول (بابلو ابييتا) بطل الجدار لسارتر وقد تخيل نفسه قد أعدم : (ستبكي كونشا عندما تعلم بخبر موتي وستظل شهورا غير راغبةبالحياة . ولكن مع ذلك فأنا الذي يموت)(٥٠) .

ومن خلال هذا المفهوم الذاتي حدد الوجوديون مواقفهم من الاشياء . وقد جاء رفضهم للمجتمع أول تلك المواقف . فقد اعتبروه لعنة تسيطر على الفرد وتقيده . وحين يعرف سارتر الانسان الثوري يربطه بالتحرر من المجتمع ؛ يقول : (... وهكذا يفلت الثوري ـ من اللحظة الاولى ـ وبفضل اندفاعه الى

المستقبل من الانسحاق الذي يفرضه عليه المجتمع)(٥١) . وتكشف مسرحية (الذباب) لسارتر أن المجتمع هو العائق الذي يقف حائلا دون ممارسة الانسان لعطاءاته ، وهو يقف دائما في مواجهة كلّ جديد يأتي به الفرد . فحين يقيم الملك (ايجست) احتفاله السنوي لاستحضار ارواح الموتى ، تأتي ابنة زوجته (الكترا) لابسة الثياب البيض على غير العادة المألوفة . حين يراها الملك والجمهور يدور هذا الحوار . علما ان الملك هو الذي قتل اباها وهي تعرف ذلك :

(ايجست : اتسمعين ايتها الشقية زمجرة الشعب الذي جرحت شعوره ... لو لم اكن هنا لاكبح غضبه لمزّقك في مكانك .

ـ الجمهور : كافرة .

ـ المرأة الشابة : واذا كانت محقة فيما تقول ؟

ـ اصوات : ولكن كلا إنها مجنونة ، الكترا اذهبي عنا رحمة بنا ، وإلا فإن كفرك سيقع علينا .

ـ الكاهن الاكبر : ياسكان ارغوس : إنني أقول لكم إن هذه المرأة كافرة . الويل لها ولمن يصغي اليها منكم)(٥٢) .

ويقول (غارسين) بطل مسرحية الجحيم لسارتر : (لا حاجة الى التعذيب بالنار ، فالجحيم هو الآخرون(٥٣) . و (كاليغولا) بطل مسرحية كامي يفضل الموت على الحياة ، لان الاحياء لا يملؤن عليه عالمه (..... إن الاحياء لا يكفون ، ولا يملؤون عالمي ولا يطردون سأمي ..... الموتى فقط ، هم الحقيقيون)(٥٤) .

ومن القضايا الاساسية التي تمسك بها الوجوديون وطالبوا بتحقيقها قضية الحرية . والحرية تعني لديهم الخلاص من القيد الاجتماعي . فالانسان مقيد في اختيار اسمه ودينه وانتمائه الطبقي ، نمط عيشه من قبل المجتمع . ويعتقد الوجوديون ان طلبهم للحرية ـ بهذه الطريقة ـ مشروع جدا ، لانه لا يتنافى ـ في نهاية الامر ـ مع المجتمع . فالحرية لديهم نابعة من ارتباطها بالمسؤولية ، وتنبع مسؤولية الفرد من وضعه في موقع الاختيار ، وحين يترك للانسان ان يختار ، فإنه في ذلك تكمن حريته وتكمن الى جانب ذلك مأساته .

وما دامت هذه الحرية قائمة على المسؤولية والاختيار ، فهي ليست ضد المجتمع ، لان الانسان لو وضع في مرحلة الاختيار فإنه لن يختار إلا الخير ، وفي ذلك ما يعود بالنفع على المجتمع(٥٥) .

ومن الموضوعات المتكررة لدى الوجوديين الشعور بالوحدة والاغتراب . وهذان الشعوران نتيجة طبيعية لانعزال الوجودي عن المجتمع . يقول (كاليغولا) بطل مسرحية كامي : (انني اشعر بالوحدة عندما لا أقتل ... إنني اشعر بفراغ عندما تكونين انت – يعني اخته – والآخرون معي ، فلا ترى عيوني غير الفضاء الفارغ)(٥٦) . وفي مسرحية (الذباب) يدور الحوار التالي بين (الكترا) واخيها (اورست) : (– الكترا : اليس من مدينة تنتظرك فيها فتاة جميلة الوجه ؟

– اورست : لا احد ينتظرني ، إنني امضي من مدينة الى مدينة غريبا عن الآخرين وعن نفسي ... الكترا : لو اقمت مئة سنة بيننا ، فلن تكون إلا غريبا اشد وحدة من وحيد الطريق)(٥٧) . ولعل ما يسوغ هذا الشعور – الشعور بالوحدة والاغتراب – انفصال الوجودي عن مجتمعه ، وانعزاله عنه ، اذ كثيرا ما يظهر اغتراب الانسان عن العالم بشكل عام في انفصال الشخصية عن المجتمع في انعزال الانسان عن الآخر ، في انفصال الوعي الانساني اي اغترابه عن وعيه نفسه ، ولهذا تكون التشاؤمية العميقة اهم سمات النفس الانسانية ، إحساس بنقصه ، بضعفه ، إحساس بالمأساة ، بعدم الامل بالخوف ، تلك هي صفات نفسية الانسان)(٥٨) .

ومن الموضوعات المتكررة لدى الوجوديين – الى جانب الشعور بالوحدة والاغتراب – الإحساس الدائم بالفناء والموت . وهذا الشعور يدل على العجز الذي يلازم الانسان حين لا يستطيع التلاؤم مع البيئة التي يعيش فيها . والوجودي ، الى جانب شعوره بالسأم والعجز ، كان – في كثير من الاحيان – يستعذب الموت ، ويطلبه ، لانه ارحم من الوحدة والاغتراب والضياع والقيود التي يفرضها عليه المجتمع .

ويكشف كامي في مسرحية (سوء تفاهم) عن هذا الشعور بدقة . فابطاله امتهنوا القتل طريقة وسلوكا ، غير نادمين على ما يقترفون ، لاعتقادهم ان قتل إنسان ما يعني خلاصه من عذاب المجتمع ، ومقابل ذلك يكشف الكاتب عن

الفراغ والسأم والعجز الذي يعيشه هؤلاء . وفي لقاء يتم بين الام وابنتها ــ بعد ان خدرتا نزيل الفندق الوحيد في تلك الليلة ــ يدور الحوار التالي :

(ــ مارتا : انهضي يا اماه .... تعلمين جيداً ان ليس في الامر قتل ــ يشرب الشاي ، وينام وتحمله الى الترعة وهو مازال حيا .

ــ الام : نعم سانهض ، احيانا اسعد فعلا عندما ادرك ان « من كانوا لنا » لم يتعذبوا ابدا .... دفعة إصبع خفيفة لحياة مجهولة . إن الحياة اقسى منا ظاهريا .

ــ مارتا : اماه ، اماه ، كل شيء سينتهي عما قريب .

ــ الام : نعم ، كل شيء سينتهي . المياه ترتفع . وفي هذه الاثناء لا يحدس هو شيئا . ينام ، لم يعد يعرف تعب العمل الذي يجب تقريره ، العمل الذي يجب إنجازه ، لم يعد عليه ان يتصلب ، ويفرط في الجهد ، ويطالب نفسه بما لا يستطيع عمله ، لم يعد يحمل صليب هذه الحياة الداخلية التي تنفي الراحة والتسلية والضعف ، ينام ولا يفكر ..... وانا العجوز المتعبة اوه ، إنني احسده على نومه الآن ، وعلى وجوب موته بعد قليل ، الا تقولين شيئا يا مارتا ؟

ــ مارتا : لا انا منصتة . انا اترقب صوت المياه)(٥٩) .

ومن الموضوعات المتكررة لدى الوجوديين ايضا : القلق والتوتر الدائم والشعور بالاضطهاد ، وينبع القلق من حرية الانسان في اختيار مسؤولياته ، وينبع التوتر من الوحدة والاغتراب . وفي النتيجة يمكن القول : ان الموضوعات المتكررة لدى الوجوديين يؤدي بعضها الى بعض ، ومصدرها واحد .

مما سبق نستنتج ان الوجودية فلسفة الفرد لا المجتمع ، وفلسفة العاطفة الذاتية لا العقلانية ، وفلسفة التشاؤم لا التفاؤل و (يصعب أن توصف اية فلسفة يسودها الطابع الاجتماعي والعقلاني والتفاؤلي بانها وجودية)(٦٠) .

الصور الفنية في الواقعية الاشتراكية :

ذكرنا في فقرة سابقة ان المرحلة التاريخية تفرز شكلها ، كما تفرز نقيضها . وحين انتقلت اوربة من العصر الاقطاعي الى عصر سيطرة البرجوازية بدأ يتوضح جيداً الانقسام الطبقي ، وقد بلغ الانقسام أوجه في القرن التاسع عشر حين تطوّرت البرجوازية الى رأسمالية احتكارية وحصرت (في ايديها اموالاً طائلة ، وضاق عليها المجال في دولها بالذات ، وسعياً وراء الارباح المالية اندفعت بقوة ، خاصة نحو البلدان الأخرى ولا سيما نحو البلدان المتخلفة)(٦١) . وكان يرافق هذا التطور المذهل للرأسمالية هبوط في المستوى المعيشي لملايين العمال والفلاحين ، الذين كان يزداد عددهم كلما ازدادت الاحتكارات الرأسمالية . ويقابل هذا الوضع المأساوي الذي غطى اوربة وبدأ يتطلع الى ما وراء البحار ، وضع آخر في روسيا ، حيث كان الشعب يعيش استلاباً وقمعاً من جراء الحكم المطلق الذي كان يقوده القيصر وحاشيته(٦٢) .

وفي هذه الظروف العصيبة ولدت النظرية الفلسفية التي ستنطلق الواقعية الاشتراكية منها . ومن العوامل التي ساعدت على انتشارها وتبلورها: الحاجة الاجتماعية ، وانتصار الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ م . كما انها جاءت رداً على المذاهب المفرقة في الذاتية : الرومانسية والرمزية والسريالية وغيرها من المذاهب مثل الوجودية والالسنية والبنيوية .

ولا بد من الاشارة الى ان الواقعية الاشتراكية كانت – من الوجهة التاريخية – امتداداً للواقعية الطبيعية والواقعية النقدية التي سبقتها ، لكن الفارق بينهما ان الواقعية الاشتراكية كانت تدرك دورها التاريخي جيداً ، كما كانت مدعومة بنظرية فلسفية شاملة ، وقاعدة جماهيرية عريضة . ولابد من القول ايضاً : ان الواقعية الاشتراكية – على الرغم من تعارضها والمذاهب الادبية التي سبقتها – قد استفادت كثيراً من عطاءاتها على جميع المستويات .

– وقد كانت النظرية الفلسفية للمذاهب الادبية التي انتجتها البرجوازية تبدأ من الذات ، وتقيس كل ما عداها بها . وقد بينا قبل قليل انها كانت في كثير من الاحيان تتجاهل الواقع الموضوعي بحجة التعبير عن الذات ، وبحجة ان الشعر يخص الذات لا الواقع وان الواقع لايفي بالغرض المطلوب . اما المبدأ

الفلسفي الذي بنيت عليه الواقعية الاشتراكية فينطلق من الواقع إساسا ، حيث يتم ـ بعد ذلك ـ انتقاله الى الذات ، وتقوم الذات باعادة تشكيله والتأثير فيه . ان الواقعية الاشتراكية تعترف بوجود واقع موضوعي مستقل عن الذات . و (من حيث الأرضية الفكرية العامة يعتبر الاعتراف بالواقع ـ كأمر موضوعي قائم بمعزل عنا ، ومتطور حسب قوانينه الخاصة ـ الاساس الفلسفي للواقعية)(٦٢) .

مـن هذا المنظور ، اهتمت الواقعيـة الاشـتراكية بالوقع الموضوعي ، واعتبرته مشكلتها الرئيسية فتوقفت عند المشكلات التي يعانيها العامة ، وصورت العلاقات الدائرة بينهم ، وحاولت ـ من خلال وعيها لحركة الواقع الاجتماعي ـ ان تبلور رؤى الطبقات المسحوقة ، وتجسدها في نماذج فنية .

ولم يحجب اهتمام الواقعية الاشتراكية بالواقع الموضوعي شخصية الفنان المبدع ، وانما اولته اهتماما اساسيا ، وعليه تقوم مهمة انجاز العمل وتنفيذه واكتشاف معطياته .

وقد عبر (ليف تولستوي) عن هذا الامر قبل تبلور مفهوم الواقعية الاشتراكية بفترة طويلة بقوله : (ان شخصية الفنان لا يجب أن تعرب عن نفسها بشكل مباشر من خلال صور وحركة العمل الفني ، الكن ان نحس بها دائما في كل شيء(٦٤)) .

وقد تميزت الصورة الواقعية الاشتراكية بموضوعيتها ، وتصويرها للشخصيات النموذجية في الظروف النموذجية ، ويعتبر نمو الشخصية مرتبطا بالظروف التي تحيط به ، وتطوره مرتبط بتطور تلك الظروف . والحقيقة التي اكدتها الواقعية الاشتراكية ان الاشياء ـ مهما كان نوعها ـ لا تنمو في فراغ ، لانها تقاطع لمجموعة من العلائق ، وكل تغير يطرأ عليها ، يمتلك اساسه في تلك العلاقات(٦٥) .

وتشتمل الصورة الواقعية ـ الى جانب الموضوعية ـ علـى الحقيقـة الحياتية ، واكتشافها ـ من خلال هذه الحقيقة ـ للنموذج الفني وتعميمه . وباكتشافها للنموذج تقدم قيمة معرفية كبيرة . ولابـد مـن الاشارة الى ان الفنان كلما كان يدرك طبيعة العلاقات الاجتماعية ، كان اكتشافه للنموذج اكثر

قيمة وابداعا وتأثيرا . وتأخذ الصورة الواقعية قيمتها من خلال وعيها لطبيعة العلاقات الاجتماعية ، وتقديمها للقيمة المعرفية . والفنان الواقعي الاشتراكي الذي تشتمل صوره الفنية على الموضوعية والحقيقة الحياتية والنموذج والقيمة المعرفية فنان منسجم مع ذاته ، ومع الآخرين . وهو لهذا لا يعيش حـالات الوحدة والاغتراب والقلق(٦٦) التي يعيشها الوجودي أو السريالي أو الرومانسي.

ومن الامور التي تراعيها الصورة الواقعية (التاريخية ؛ أي تصوير حياة الانسان والمجتمع في سيرورة تطورها)(٦٧) .

مما سبق نستنتج ان الصورة الفنية في الواقعية الاشتراكية ملتزمـة بحركة الواقع الاجتماعي ، وحريتها تنبع من خلال ادراكها الواعي له ، ومـن خلال مقدرتها على تجاوزه . ولا يتم ذلك الا عن طريق قدرة الفنـان التـي تبدعها . ولان هذه الصورة ملتزمة بالواقع ، فقد ابتعدت عن الاغراب والتغريب والتوهم وما الى ذلك ، واستخدمت لغة تنسجم وطبيعة النموذج المكتشف كما رآها المبدع .

ولم يمنع التزام الصورة الواقعية بالواقع استخدامها لكل العناصر الفنية التي تخدم التوجه مثل الاسطورة والرمز والخرافة والحكايات الشعبية ، وغير ذلك على مستوى اللغة والتركيب ووحدة العمل الفني .

وبالارتكاز على المواد الاساسية للصورة يمكن القول :

ان الصورة الواقعية تبدأ من الواقع الى الذات، ومن الذات الى الواقع، وتقلب الواقع على الذات من وجهة النظر التي تقول : ان الذات ــ في اساسها ــ انعكاس للعلاقات الاجتماعية . ويأخذ الخيال دوره في النفاذ الى جوهر الواقع واكتشاف الايجابي الاصيل والسلبي الزائف ، وتكوين النموذج الفني وصياغته على مستوى العمل .

الخاتمـة :

تبين لنا من عرضنا السابق ان ظهور المذاهب الادبية كان مرتبطا بحتمية التحولات الاقتصادية والاجتماعية ، وان ماكان يطرأ عليها من تغييرات كان في

معظمه يمثل حاجة جماعية يقوم الافراد بتنفيذها . وتبين لنا ايضا أن المذاهب الادبية كانت دائمة التواصل فيما بينها ، لتشابه الظروف التي انشأت كلامنها، وللتواصل الثقافي بين القديم والجديد . ومن خلال هذه النتيجة يسهل علينا القول : إذا تشابهت الظروف المذكورة بين اي جنس ادبي واخر في حضارتين مختلفتين ، وتوفر شيء من الاحتكاك بينهما ، يمكن — بسهولة — ان تنتقل المؤثرات وتتم عملية التواصل .

ومهما اخذ على المذاهب الادبية من سلبيات — وهي كثيرة — ، فان لها من الايجابيات مايجعلها قائمة في كل زمان ومكان ، خصوصا اذا ما قيمت على أساس دورها التاريخي وما قدمته من نقلة نوعية كبيرة في مضمار الادب العالمي.

ولعل اهم المحاور الجديدة التي اضافتها المذاهب الادبية الى تاريخ الادب ، واصبحت — فيما بعد — هاجس الآداب الدائم هي :

١ — نسف فكرة القداسة التي كانت تحيط باللغة . واعتبارا من ظهور الرومانتيكية ، لم تعد هناك كلمة صالحة للشعر ، واخرى غير صالحة ، وانما هناك كلمة تأخذ قيمتها من خلال السياق الذي توجد فيه ، ومن خلال فاعليتها ضمن هذا السياق . وقد كسر هذا الجانب الهام الطوق الذي كان يقيد اللغة ، فاستغلت المذاهب الادبية الامكانات الهائلة التي تمتلكها ، فاستخدمت الالفاظ المتنوعة التي تعبر عن أقصى حدود التجربة ، وبادلت بين مواقعها ، وجمعت بين المتضاد منها ، كما استغلت مقدرتها الايقاعية ، والرمزية ، وعطاءاتها على مستوى التركيب والصورة والسياق .

٢ — وفي هذا المضمار تجاوزت المذاهب الادبية قداسة الموضوع ، واثبتت — من خلال تجاربها المتنوعة — انه لا قيمة لموضوع على آخر من حيث ارتباطه بطبقة او بأخرى . وقد وسع هذا الموقف مجالات الادب ، واغناها بآفاق حيوية جديدة . ولا بد من الاشارة هنا الى ان تجاوز الموضوع المقدس بلغ اوجه في نتاج الواقعيين الاشتراكيين الذين التفتوا الى الواقع الشعبي ، فرصدوا علاقات الناس وجسدوا رؤاهم ، وكشفوا عن جانب مهم من حياتهم ظل الادب مئات السنين يجد في الحديث عنه نوعا من المجازفة الخطرة .

٣ – وكان من نتيجة اهتمام بعض المذاهب بالذات واكتشافها لعالم النفس الباطني وتقديرها لاهميته ، والاستفادة منه في رفد العمل الادبي بامكاناته الهائلة ، ومخزونه الذي لاينتهي .

٤ – ومما يسجل للمذاهب الادبية ايضا كشفها لدور الخيال في تكوين النص الادبي ، وتنقيته مما كان يشوبه من غموض .

٥ – ولعل اهم مميزة يمكن ان تسجل للمذاهب الادبية وعيها لقيمة النموذج الفني الذي يعتبر اليوم من اهم الغايات التي يسعى الادب الى البحث عنها وتجسيدها واكتشاف النموذج يدل على وعي الاديب لمهمته من جهة ، وعلى توحيد التجربة – مهما تعددت حالاتها – وتعميم ذلك من جهة أخرى .

تلك هي بعض المحاور الاساسية التي كرستها المذاهب الادبية . وقد تطرقنا لميزات اخرى خلال حديثنا الموجز عن طبيعة كل مذهب .

– هوامش الدراسة –

(١) ويمزات وبروكس : النقد الادبي – تاريخ موجز – النقد الرومانتي – ج ٣ – /٥٢٢/ .

(٢) ويمزات وبروكس : النقد الادبي – تاريخ موجز – النقد الرومانتي – ج ٣ – تر : حسام الخطيب ومحيي الدين صبحي /٥٠١/ .

(٣) نفسه : /٥٢٢/ .

(٤) نفسه : /٥٠١/ .

(٥) هاوزر – ارنولد : الفن والمجتمع عبر التاريخ – ج١ – /٣٨٩/ .

(٦) ستاروبنسكي : النقد والادب : تر : بدر الدين القاسم ، مرا : انطون مقدسي /١٧٣/ منشورات وزارة الثقافة – دمشق – ١٩٧٦ م .

(٧) مندور – محمد : في الادب والنقد /١٢٠/ . دار نهضة مصر للطبع والنشر – ١٩٧٧ م .

(٨) الايوبي – ياسين : مذاهب الادب – معالم وانعكاسات /ج١/ – /٢٨/ . طرابلس – لبنان /١٩٨٠م/ .

(٩) انظر : هاوزر ارنولد : الفن والمجتمع عبر التاريخ – ج١ – /١٧٨/ .

(١٠) ويليك – رينيه : مفاهيم نقدية – عالم المعرفة – ترجمة : محمد عصفور /٩٥/ ، عدد /١١٠/ اصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب – الكويت – شباط – ١٩٨٧ .

(١١) هاوزر ـ ارنولد ـ الفن والمجتمع عبر التاريخ ـ ج١ ـ /١٧٥/ .

(١٢) انظر : فيشر ـ ارنست : ضرورة الفن /٧٠/ . تر : اسعد حليم ـ الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ـ /١٩٧/م .

(١٣)انظر : هاوزر ـ ارنولد ـ : الفن والمجتمع عبر التاريخ ـ ج١ ـ /١٨٩/ .

(١٤) المعجم الفلسفي المختصر ـ تر : توفيق سلوم ـ /٨٨/ ـ دار التقدم ـ موسكو ـ ١٩٨٦ م.

(١٥) مرعي ـ فؤاد : المدخل الى الاداب الاوربية /١٨٥/ ـ منشورات جامعة حلب ـ ط٢ ـ ١٩٨٠م

(١٦) فيشر ـ ارنست : ضرورة الفن ـ /٧٩/ .

(١٧) ستاروبنسكي : النقد والادب ـ /١٧٦/ .

(١٨) ويليك ـ رينيه : مفاهيم نقدية ـ عالم المعرفة /١١٣/ .

(١٩) انظر : بيتروف ـ س : الواقعية النقدية /٧٠/ وما بعد .

(٢٠) انظر : ويمزات وبروكس : النقد الادبي ـ تاريخ موجز ـ النقد الحديث ـ ج٤ /٥٠/ . دمشق /١٩٧٧/ .

(٢١) ويليك ـ رينيه ـ مفاهيم نقدية /١١٥/ . وانظر نفسه /١١٦/ حيث يبدو الانسان والطبيعة عند (بليك) رمزين لبعضهما بعضا . يقول : (كل ذرة رمل/كل حنجرة على هذه الارض/ صخرة ، وكل تل/كل نبع وساقية/كل عشبة وكل شجرة/كل جبل وربوة وارض وبحر/ وغيمة ونيزك ونجمة/رجال يرون من بعيد) .

(٢٢-٢٣-٢٤) ويليك ـ رينيه ـ : مفاهيم نقدية ـ عالم المعرفة /٢٦٤/ ـ /٢٨٨/

(٢٥) ويليك ـ رينيه : مفاهيم نقدية ـ عالم المعرفة /٢٨٦/ .

(٢٦) بيير هنري : الادب الرمزي . تر : هنري زغيب /١٢/ ـ بيروت ـ باريس ـ ط١/١٩٨١م/.

(٢٧) هو ـ غراهام : مقالة في النقد ـ /١٥٨/ .

(٢٨) ويمزات وبروكس : النقد الادبي ـ تاريخ موجز ـ النقد الحديث ـ ج٤ ـ /٦٢/ .

(٢٩) ويليك ـ رينيه : مفاهيم نقدية ـ عالم المعرفة /٢٨٩/ .

(٣٠) اسماعيل ـ عز الدين : الفن والانسان /١٨٢/ .

(٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦) ـ بريتون ، اندريه : /٣٧و٦٠/ ـ /٢٦و٣٩/ ـ /٤١و٢٢و٢٧/ .

(٣٧) مجموعة من المؤلفين : الاسطورة والرمز /٧١ ـ ٧٢/ .

(٣٨-٣٩-٤٠) ـ بريتون ـ اندريه : نفسه /٥٢-١٥-٢٢/ .

(٤١-٤٢-٤٣) مجموعة من المؤلفين : الاسطورة والرمز /٧١-٧٧-٦٩/ .

(٤٤-٤٥) بريتون ـ اندريه ـ بيانات السريالية ـ /٥٥/ والقول الاخير لبودلير ـ /٥٨/ .

(٤٦) ساخاروفا ــ ت ــ ا : من فلسفة الوجود الى البنيوية ــ دراسة نقدية للاتجاهات الرئيسية. ترجمة وتقديم : احمد برقاوي /١٤/ ــ دار دمشق ــ دمشق ط١ ــ ١٩٨٤ م .

(٤٧ــ٤٨) : سارتر ــ جان بول : الوجودية ــ مذهب انساني ، تر : باشراف كمال يوسف الحاج ــ : منشورات دار مكتبة الحياه ــ بلا مكان للطبع ــ بلا زمان ــ /٢٩/ ــ /٣١/ .

(٤٩) انظر ــ ساخاروفا ــ ت ــ ا : من فلسفة الوجود الى البنيوية /٢١/ .

(٥٠) سارتر ــ جان بول ــ الجدار ــ تر : هنري زغيب /٢٦/ ــ دار عويدات ــ بيروت ــ ط١ ــ ١٩٨٢ م .

(٥١) سارتر ــ جان بول : المادية والثورة ــ بلا مترجم ــ /٩/ بيروت ــ ١٩٨٠م .

(٥٢) سارتر ــ جان بول : الذباب : تر : حسين مكي /٩١ــ٩٢ــ٩٣/ ــ بيروت ــ ط٢ .

(٥٣) سارتر ــ جان بول : الجحيم .

(٥٤) كامي ــ البير : كاليغولا ــ بلا مترجم ــ /١١٩ ــ ١٢٠/ ــ بيروت ــ ١٩٦٠م .

(٥٥) انظر : سارتر ــ جان بول : الوجودية مذهب انساني ــ /٤٠ــ٤١/ وكذلك /٤٤ــ٥٤/ .

(٥٦) كامي ــ البير ــ كاليغولا ــ /١١٩ ــ ١٢٠/ .

(٥٧) سارتر ــ جان بول : الذباب ــ /١٠٣ ــ ١٠٤ ــ ١٠٥/ .

(٥٨) ساخاروفا ــ ت ــ ا : من فلسفة الوجود الى البنيوية ــ /٣٤/ .

(٥٩) كامي ــ البير : سوء تفاهم : ترجمة وتقديم : سامية احمد اسعد ــ سلسلة مسرحيات عالمية /٦٧ ــ ٦٨ ــ ١٢٦/ وانظر نفسه /١٥١/ حيث تعترف (مارتا لزوجة اخيها بقتلها له (لقد اخذ زوجك السعادة لنفسه ، السعادة الوحيدة الحقة) .

(٦٠) ماكوري ــ جون : الوجودية ــ عالم المعرفة ــ /٣٨٩/ .

(٦١ــ٦٢) مجموعة من المؤلفين : موجز تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي ــ تر : الياس شاهين /١٣ــ١٤ــ١٦/ دار التقدم ــ موسكو ــ ١٩٧٥ م .

(٦٣) بيتروف ــ س : الواقعية النقدية ــ /١٠٧/ وانظر : بورلاتسكي ــ فيدور : اصــــول الفلسفة الماركسية اللينينية ــ المادية التاريخية ــ /١٤/ .

(٦٤) بيتروف ــ س : الواقعية النقدية . /١٢٣/ . وانظر : خرابتشنكو : ذات الكاتب الابداعية /١١/ .

(٦٥) انظر : نفسه ــ /٢٢٢/ . والراي لانجلس .

(٦٦) انظر : ريديكر ــ هورست : الانعكاس والفعل ــ /٣٧/ .

(٦٧) بيتروف ــ س : الواقعية النقدية ــ /٢٥٣/ .

* * *

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

اعلام الموسيقا الرومانتيكية

تأليف ميلتون كروس

ترجمة ابتسة حمزاوي

* * *

الموسيقا في سورية

اعلام وتاريخ

صميم الشريف

ابـــداع

(شعر)

مرثية جيل كان يحلم كثيرا

لعلي النعمان

(قصة)

ليلة في شوبيت

(قصة أفريقية)

بقلم : الفاتح ميكا

ابـــــداع

شعر

مرثية جبل كان يحلم كثيرًا

علي كنعان*

قبـل ان نفتتـح الفرجـة
لا بـد من التنويـه :
في سهرتنـا طفل قتيـل !
كان في ايامه لا يعرف اليأس
ولا يحتمـل الموت العقيـم .
وفتى .. راويـة يرصد مـا يجري على السطح

* علي كنعان : شاعر ومترجم من القطر العربي السوري ، يكتب الشعر والمسرحية والنقد الأدبي ، من أعماله (دروب الواحة) شعر (السيل) مسرحية .

وما ينســلّ في اغشــية الليل البهيــم .
وعجوز .. قفــةٌ مهترئــة .
وامــرأة ..
(جل من علمهــا ان تبــدع الحلم حكايــاتٍ
كما ابدعت الخمرة من جرح العنب)
ثم .. في سهرتنــا اشياء لا تحكى
لها لسـع المرارات وعمق الفاجعــة
وانا لم اخترعها من خيال مرضيّ مولع بالهذيان
لست عرافاً ينــاجي سحباً خمريــةً
تغزلهــا الجنة في مجمــرة الغيب العتيــق
إنني شــاهد عصر همجي
موقن ان جميع الصحف السوداءِ
والصفراءِ
والخضراءِ
لا تقوى على إخفاء حجم السرطان

- ١ -

هارباً من وجــع القلب اداري
خوف اطفــالي وجرح الأصدقــاء
هارباً من وجــع الارض التي بيعت
إلى مجزرة الأرض التي سوف تبــاع
في دكاكـين الهــوان العربي
يتلوّى بردى من قهرهِ
يحتويني صدره الحاني سؤالاً جارحاً
في قاعه ، في حماة القاع .. ارى وجهي

مزيجاً من دم الأردية والنيل
واحزان الخليج .
لم اكن وحدي نزيـل الغمة الكبرى
ولم تنفرد الأشباح باسمي وحده
في دفتر الموت الجمـاعي البطيء
فالسجلات التي رُصّت بها الأرقامُ
اغنى من عصافير البيـادر
وحكايات الضنى والفتك والتدمير لا تحصى
تلفت تنفتح بوابـة الذكرى :
دمٌ .. في شارع التاج الوراثيِّ
دمٌ آخر في ساحات فرسان الكراسي
ودمـاء .. ودمـاء
لم تزل تُسفَحُ في اروقة الحلم الفلسطينيِّ
يا جيلاً تربّى في بيوتٍ من دخانٍ ودمـاء
وتنامى في حقولٍ فاتهـا الغيثُ
فروّتهـا نوافيـر الدمـاء
وانتهى في مدنٍ منخورة بالقهر والحمى
يغشّيها ضباب دمـوي
آه ، يا جسر الضحايا(١)
ايها المهزوم دوماً في حروبٍ لم تخضهـا
يا عجوزاً لم يزل ممتلىء الصدر باحلام الطفولة
قل لنـا : حتام تشـقى
وتحامي عن قضايا خاسرة ؟!
يدخل الطفل الذي كنا اضعناه

بعنف كنذير العاصفة :
« غيّر المشهد ، مانفع التشكي
واجترار اللحظات العاثرة ؟ »

- ٢ -

الحكايات كاعشاب البوادي
بعضها يشفي الجراح المزمنة
بعضها سم زعاف
ومآسينا سيول لم تزل دون ضفاف
اي جرح عبثي ، صدفة عشواء
او فصل من الكوميديا السوداء
ان ترى صاحبنا يفتح عينيه على الدنيا
ونعش اسكندرون
تحت إكليل من الورد الفرنسي النضير
يتهادى نحو مثواه الاخير ؟!
والحكايات ،
على مانابها من عسف اهواء الليالي ،
تنزوي بين التناسي والتلاشي
او تطول :
تاجر باع فلسطين على مائدة الحرب
فباعته فلسطين بفلسين : رصاصة !
تاجر آخر اعماه جنون العظمة
واماتت شهوة الطغيان حسه
ولكي يهرب يوماً من حصار الاسئلة

راح يستخذي لكسر الحاجز النفسيَّ
لكن ، في ختام المهزلة ،
كسَرت عاصفة مشحونة بالغضب الشعبيِ رأسه !
والحكايات .. كراويها
تغالي .. او تماري .. او تجافيها الأصول
فانهضي من خدر الأجيال
يا سيدة الشرق الخرافيَّ
ولا تخشي صباحا ارجوانياً ..
وهذا الريش ، لا يخدعك في الوانه
لم يبق منهم غير اشلاء ديوك
خبّئي منديلك الشافي ضمادة للمصابين
ومن احذية العمّال
هاتي قبعات ومرايا للعلوج
حين مدت ساقها فوق طقوس الشرق
صاح البحر : « هذي شهرزاد ! »
تركت جلادها يغفو كتمثال من الطين
على صدر الحكايا
واستطارت نحو شلال بنيات
يغنين ويرقصن لأفراح الحصـــاد
فسرى ما يشبه النيران في جوف الرماد
قفز الدرويش من زاوية المقهى
ليأتم صلاة العيد أو يمسي عريف المهرجان :
« إنني اعرفها ..
جارة كانت لنا

واسمها : خولة ، ليلى ، او جميلة
ربما أسماء .. زرقاء اليمامة
هذه ام اليتامى والمساكين فلولاها .. »
ـ كفانا
(دمدم البحر)
كفانا هذيان !
يا عجوزاً خائر الاعصابِ
لا يملك من ايامه غير التباهي
والتباكي
والشخير
غيّر المشهد ، طال ..
واترك الدفة للريح الجديدة ..

ـ ٣ ـ

ما الذي يفعله هذا العجوز البهلوان ؟
رقصة فوق حبال الشاشة الزرقاء
من كوبا .. الى اليابان
تكفي .. وتزيد
رقصة تضفي على السلم إطاراً عالياً
رقصة تعفي من الحربِ
وتشفي
ما تبقى من جراحات التراب الوطني .
ما الذي ينغل في راس العجوز ؟
كان مسكوناً بشيء كالجنون

عشق المرآة واستغنى بها عن ظلهِ
مثلما استغنى بها عن أهلهِ
داره ، حاكورة الدار .. وابراج العيون
والشجيرات التي يؤنسها مشواره اليومي
بين الفرن والمقهى على الشط
او السفح القريب
كلها ازدانت بآلاف المرايا
حين يمشي او يصلي او ينام
معه تمشي المرايا وتصلي وتنام
مرةً .. من بين اطياف الصبا
لاح له وجه ملاك
فانتشى في عبه نجم البشارة :
« هذه اولى علامات النبوّة ! »[٣]
مرة لاحت له صورته كالمشنقة
وتدلى راسه منتبجاً كالعلقة
فوق كتفين كنير حجري
راعه المنظر
(من يسعف انكيدو[٢] اذا داهمه ثور السماء ؟)
هشم المرآة فازداد هياجاً ولظى
هشم آلاف المرايا .. وتداعى فوقها
بقيت صورته انشوطة لم تتغير
والدجى من حوله لم يتغير
ومآسي قومه لم تتغير
« يا عجوز النحس ، يا وجه الغراب

عانق البحر ، تفلفل في نسيج الماء
اتلف قصة الذئب التي روّعت الأطفال
واترك صورة النرجس للشطآن
ماذنب المرايا ؟
غيّر المشهد
يكفينا نزيفا وطنيا .. وشظايا »

- ٤ -

تزحف الصحراء نحو البحر
تلقي عربها فيه وتصبو لابتلاعه
إبل عشواء تختال على سجادة الرمل
وتصطاد المحار
ونياق كتل جوفاء لاترضى بحلس او حدابة
لم يكن من صنع باريس ولندن
(فاضحكي عجَبا وإشفاقا على احوالنا يا شهرزاد)
وسهول الحنطة الشقراء عافت دورة الخصب
وساخت في الرمال
والجبال الصم تنقض على مائدة البحر
ترى اشكالها مقلوبة شعثاء في قاع المرايا
تشتهي لو جردت اغواره من لونها العشبيّ
وارتاحت على ارجوحة الموج
ولا باس من النوم طويلا
والصناديق التي يحشونها لحما وخمرا وحديدا
الصناديق الخشب

من رجال البيع والبلع واشباه الرجال
بركوا .. لا همَّ إلا ان يروا
ما ملكت ايمانهم من جزر الشهد
بعيدا عن غوايات البحار
(فاضحكي ..
ولنحتفظ بالحزن ميراثا لنا ياشهرزاد)
ما عسى هذي التوابيت التي تحنو علينا
وهي تغتال رؤانا
ما عساها ان تكون
وطناً ام متحفاً ام مقبرة ؟!
يتشظى ملكوت الجسد الريان
بين النار والنفط وتجار الأراضي والشعوب
جيفة في شاطىء المرجان لم يحفل بها الموت
ولا اهتم بها نسغ الحياة
جيفة اخرى لعنقاء بين رقطاء
وبين الجيفتين
يترامى عالم مستلب خاوٍ على وفرة ما فيه
رمال وخيام وقصور او قبور
مدن تغلي من القهر وتستحلي مرار الصبر
اعراس ، جيوش ، خطب ، مؤتمرات
حكماء الجيل ايقاظ يفلّون القواميس
ويشتقون ما عنّ لهم من درر المصطلحات
بعضهم سماه جسرا
بعضهم سماه مستنقع ملح آسن

بعضهم سماه صحوة
اهو جسر ام حديقة ؟
اهو مستنقع ملح آسن
ام نهر اشواق وتيار انطلاق ؟
اهو نوم جاهلي جارف
ام صحوة تملأ ارجاء الحياة
بالاغاني والتفاني والفتوحات الجديدة ؟
نترك الاسماء والالقاب
فالتاريخ لا تبنيه احجار على رقعة شطرنج
ولا يصنعه الكهان من ابخرة الاعشاب
او تبدعه الاقلام من اوهام بعض الشعراء الدائخين
فلندع مهزلة التاريخ للتاريخ
اعقل .. وتوكل !
هذه قلعتنا ـ الام استراحت
واراحت غيرها من عبث الحرب
وتعكير مشاريع السلام
راية الحرية البيضاء قدّت
واُعِدّت كفناً يلتف حول الجامعات
وحبالاً فظة تكتم انفاس الجميع
هذه شمس الهدى ، حاضنة الدنيا ومفتاح الطلاسم
من هنا .. من غابة الدولار
تنهل شآبيب الاماني واساطير الملاحم
بين خلجان الغواني وسراويل الحمائم !
واحة الزيتون تمتد على قدّ الزناتي*

وهبّات الرياح الاطلسية
وطيور الحقبة الغبراء محتارون
بين الزيت والذرة والرمل
لغرس الكوكب الدري في ليل الهنود الحمر ،
في قلب الزنوج
وهنا .. حدّق هنا عاصمة الجرح
تراث ذهبي
للتحدي والمعاناة وطول الاحتمال؛
من مطال اللقمة السوداء حتى وطاة الغزو
واطواق الحصار
إنها الشام التي كان لريّاها فضاء الروح
لكن فلسطين امحت منها .. وطار اسكندرون
وحزيران الردى احرق ما شاء ،
تفشت لعنة الطاعون في لبنان
ريح من لظى او من دم تلهث بالعدوى
الى كل مكان
وارى في الخافق الشرقي آيات الظلام
تنهش الأرض وتلوي بالرياحين وقامات النخيل
ثم .. هل من حقنا ان نتحرّى عن بديل ؟
يصرخ الطفل :
« احترس يا بومة الأطلال
يكفي اسئلة
لون المشهد ، ضقنا بالمناحات
فمن تعنيه اشكال التوابيت
ونوع المقصلة ؟!
. . . . .
. . . . .

- ٧ -

في زمان ما ـ كما تروي ملفات العجوز
كان بحر الروم حوضا عربيا
ثم جاء الفارس الأشقر ـ نبراس الحضارة
فغدا البحر سواقي
آه من ظلم ذوي القربى
ومن ضيق السواقي
الغيوم السود لم تحمل لنا غير سيول القهر
والجسر الذي كنا بنيناه نواة وحدوية
راح ينهال على اصحابه
واختطف الموت « جمال »
قبل ان تفصل بين الشرق والغرب
ظلال الكلمات
وخبت « حطين » ذكرى طلل
فقاعةً في بطن غول
اترى عاد الصليبيون ام عاد المغول ؟
واناخت فوق اكتاف قرانا
وعلى اعصابنا التعبى قباب وحصون ؟
يسلم الليلَ حناياه لوسواس العجوز :
« ما الذي نجنيه من تلك القلاع البرمكية ؟
نستمير الخبز من احجارها ؟
ام نقطف الزيتون من اسوارها ؟
يهمس الطفل القتيل :
« الاعادي لم يجيئوا من هناك

نبتوا من دمكم مثل الفطور
كبروا وانتفخوا عاما فعاما كالدمامل
لغة السوق تساوي بين « هنري » و « قعود »
يصغر الداخل بالخارج والخارج بالداخل
لا فرق سوى زخرفة الختم التجاري
واعلام الحدود !
وحده البحر الفلسطيني باق
يتلظى بين اشتات المنافي
معدم .. لا ارض له
موحش .. لا اهل له
وهو يستعصي على الحلف الصليبي
ويستعصي على الزحف المغولي
ويستعصي على القصف اليهودي
ولكــن
كيف يبرا من دبيب العطب الكامن فيه ؟
من ينجيه من الموت الشقيق ؟!

- * -

غصة في القلب لو تمهلني بضع سويعات
لكي افرغ من ترتيب اوراقي
وامضي
خارج الافق الذي يرسمه دود السواقي
وتوابيت الزجاج
واغني امة صابرة صامدة كالبحر
لا يعنو لقرصان ولا يخشى دويلات العجاج

وعلى شطآنه الدامية الخضراء تبقى شهرزاد
تنشد الحلم الذي ليس يموت
ثم تلقيه اريجاً وضياء في البيوت

- * -

اقفر المسرح من عشاقه
فاحتضني احلامنا يا شهرزاد
واتركي احزاننا للريح تنسجها
غيوما .. وبحارا قادمة
الحكايات التي اغنت ليالينا
ينابيع من الغبطة والاشراق
ما زالت لنا زادا وبلسم
والعجوز الميت في زاوية المقهى
صحا يمطر عينيك حنينا لا يترجم
ويعود الطفل حياً ..
يشعل الدنيا
ويرتاح على باب المخيم

١٩٨٧

هوامش :

(١) خليل حاوي ، الشاعر الرائد ، اول من أشار الى جيل الجسر .

(٢) انكيدو : صديق جلجامش في الملحمة السومرية ـ البالية .

(٣) كان الفكر السياسي في الخمسينات طافي بمثل هذه الافكار .

ابـــــداع

قصّة

ليـــلة في شوبيت

« قصـــة افـريقيّـة »

بقلم : الفاتح ميكا (*)

اعتصر يدها الرقيقة المرتعشة وتصاعدت الرغبات داخله وارتطمت بفمه المغلق كشلال اخرس وعقيم !... جحظت عيناه الخضروان .. حدق فيها مليا ثم ترك يدها السمراء تسقط كجريح .. وانصرف مرتبكا .. تشيعه بذهولها وسمتها الصاخب من غير أن تفهم شيئا ..

ـ خرجت كودى من ذهولها وانبهارها علـى صوت ماريا وهي تناديها بسخريتها المعتادة ..

ـ (كودى) ..!

لماذا تقفين هكذا ..؟!

(*) الفاتح ميكا : قاص من القطر السوداني الشقيق .

ـ « استردت كودى عافيتها .. وفطنت بأنها كانت ترفع يدها في موازاة وجهها وتحاول ان تقرأ شيئا مستحيلا .. وتيقنت بأن ذلك المخبول لا يستحق هـذا العمـق »

ـ اقتربت ماريا منها وغسلتها بنظراتها وهي تضحك في خبث وفركت خدها .. ـ يا بنت السوداء ـ هل فقدت الكثير .. منظرك وذهولك يوحي بكثير من الندم .. من ذاك الذي استطاع ان يفض اغلفتك السميكة ويتوغل في مجاهلك الوعرة كالحمى الخبيثة .. ويجعل منك امرأة مذهولة وشاحبة كشمس الخريف .

ـ (الامر ليس بهذا السوء ..)

جذبت كودي ماريا وتوغلا بين الحشـائش الذهبية .. تسرف ماريا في الحديث والضحك وهما تختفيان بين الحشائش كغزالين وديعين في عالم بـلا افتراس ..!

ـ عقد المساء ذراعيه الضبابيتين على قرية (شوبيت) فاعتصمت بـه بعد ان انضجها شمس النهار القوية فارتخت في احضانه طائعة ولاهثة تحاول ان تطفىء ظماها .. فشمس شوبيت العارية لا تسطع وانما تنهمر في صلابة شان شمس افريقيا .

ـ حين لفظت الحشـائش كودى وماريا كانت اشجار المانجو تذوب رويدا رويدا في اغوار المساء الداكنة وثمة طيور عائدة ومجهدة تندس في اعشـاشها بينما يعلو خوار الابقار مؤذنة بالعودة من المراعي بعد نهار شاق .

وضع الليل اولى خطواته على شوبيت فاشاع في الاشجار والاكواخ الستر والهدوء .

كودى وماريا تصوبان خطواتهما العارية نحو نور خافت بزغ لتوه .. وماريا لم تنقطع عن الحديث لحظة .

ـ « الحمد لله بان ذلك الابيض لم يلطخك بلمساته الفاسدة .. فهؤلاء البيض ليس عندهم سوى الاغتصاب والفرار ... ينفخ في رحمك ورباتيك بمولود لا تدرين ماذا تفعلين به .. ويرحل كجرذ مذعور تغرقين في دموعك .. وتتخبطين في اسئلتك المريرة .. وتظلين تتسلقين بئرا لزجة وعميقة تنفقين العمر كله في محاولة للصعود بلا فائدة وتموتين وعيناك محشوتان بالعتمة والحسرة والبكاء .. مرفوضة هنا .. وهناك .. شريرة لاخيار عندها سوى : بين الموت والموت ..!!

تسلقت كودى بنظراتها جذع شجرة ضخم من التيك وتلونت عيناها السوداوان الجميلتان ببراءة وحزن وتمتمت وهي شاردة بعيدا .

« لقد قلت لك يا ماريا انه دائما يغرقني بنظراته .. نظرات قوية هادرة نافذة كالسهام المسمومة التي تحرم حتى الحيوانات القوية من شهقة الموت .

.. ينظر كنمر جائع متوثب ، كانت عيناه ، مخيفتان يتدفق منهما شيء (كالجور) .. متقدة كنيران روث البقر .. وفي اكثر من مرة كنت احس بأنها على وشك ان تشتعل ..! واحيانا نزقة ووقحة تجعلني اتحسس نفسي واتشكك هل فعلها بي ..!!

كتمت ماريا ضحكتها وهما تدلفان كوخا مصنوعا بدقة وبدائية من مجموعة اكواخ (الواك) عبارة عن حلقات دائرية ذات سقوف في شكل مثلثات صنعت من أشجار التيك والقش والسعف المجدول ملتحمة بعضها ببعض في عشق وتماسك ابدي .

وطأ الليل شوبيت تماما ..

فنفضت عن جلدها الوثني تعب المراعي .. والركض خلف الابقار وسط شمس تمطر جمرا تسمع ضحكات (بنات المراح) وهي ترحل عبر البراري وتلتحم بايقاعات الطبول الافريقية التي تكاد أن تنطق .

توهجت نيران السياج ذوي السحنات البيضاء وهم يتحلقون حولها يغذون نيرانهم بالأعشاب ويثرثرون .. يتلظى حمل صغير وعار تحت الوهج الجحيم ـ .. فاتحا عينيه الصغيرتين البائستين مدليا لسانه كعلامة استفهام

غبية بعد فوات الاوان ..! ينتفون لحمه الطري ويستثمرون ليل شوبيت البكر في الرغبات والخرافات ..!! جاءوا من دول أوروبية مختلفة للسياحة .. والصيد .. و ... و ... الله أعلم ..!

انبرى احدهم يحاول الحديث وفمه محشو بلحم الحمل .. وفي يده كوز نحاسي ممتلىء (بمريسة الكانجي مورو) هذا الخمر الافريقي يتوغل في الداخل كافعى .. يقود بنعومة وخبث للخدر وتفاحاً بالسكر كركلة ...!

قال شخص آخر ضاحكاً .. « انت الذي وددت ان تجرب كل شيء !.. »

ــ مسح سائح ثالث فوهة كاميرته الفخمة .. خلع نظارته الطبية ومسحها ايضا وهو يتمايل على صوت الطبول يحاول ان يخترق بنظراته الغبشاء رداء الليل الملتف حول شوبيت ــ مط شفتيه ــ وقال : « منذ زمن ليس بالبعيد عرفت هذه القرية معنى أن يرتدي الانسان ثوبا ... لكن ان تتصوروا بنات المراح الرائعات وهن عاريات تماما .. يرعين ابقارهن .. لم يكن ذلك مشينا عندهم وانما هكذا جرت العادة .. الى ان تدخلت الحكومة الشمالية ومنعت ذلك وسترارول كشول عورات شوبيت وما زال يجرجرها نحو الحضارة !.. »

ــ هذا الجنوبي يملك ثروة لا تقدر بثمن من الابقار !..

وتحدث سائح رابع بدهشة .

ــ « وما اسعد ابقار شوبيت المدللة فهي تحظى من الاهتمام والتقديس بما لم يحظ به البشر » .

لم يجذب الحديث عاشق كودى وهو يعب الخمر الى جوفه الظامىء كانما يود أن يطفىء الكانجي مورو لهيب الرغبة داخله .. يتربص بها اينما حلت كالنمر .. آه كودى الجنوبية الجسد الأفريقي اللدن العامر بالانوثة .. جحظت عيناه الخضراوان وهو يستوقفها امامه !.. يود ان يفض هذه البراءة المتوحشة برمتها !.. دفع بكمية كبيرة من الأعشاب للنار .. تململ من الرغبة وجارت في حدبقته كل تواريخ الرق والاستعباد .. ولطخ الاشجار بنظراته الزانية قائلا « آه ... لو كان بامكاني ان اشتري هذه الزنجية الجامحة » ..

لفتت صرخته المحمومة اليه البقية المتخمة بلحم الحمل والكانجي مورو اعتدل أكثرهم جموحا ورغبات دفينة بنظراته الذابلة في اتجاه الاكواخ وتدفقت الكلمات من فمه كالفحيح ..

ــ المرأة الافريقية نهمة كالنار .. حينما تثار تتوحش .. تزأر كالحيوانات المفترسة صلدة ، لطراوتها واظافر وصهيل .. وحين يلفظ جسدها تلهث كالراكض عبر البراري والسهول من أفريقيا حتى الوطن !.. وتبقى مهدودا من التعب كل جارحة ومفصل تحسه مهشما بينما تنزلق منك كغمامة وتكتسب عيناها البراقتان وداعة وبراءة .. وتنخرط في رتابة الاشياء بعافية وعفوية تقود قطيعا .. او تتوقف وتسقي بقرة مدللة .. »

استقاموا مترنحين وتداولوا الرغبات والبطولات الغادرة ــ تفحم الحمل ــ وماع تاريخ افريقيا كشمعة في أتون .. ولم يظهر من تراثه الضخم عبر ذلك الليل الطويل سوى جسد ورغبة .. وصائد وفريسة .. شراء من غير ثمن وجوع لامتناه وتربص قذر .. وما أقبح أن يختزل التاريخ في رغبة كالوميض سريعا ما تنطفىء مخلفة وراءها مزيدا من القهر والاستلاب .

.. انتشر الليل في عروق شوبيت .. وبدات الاكواخ ككتل من الغيم المتعانقة استرخت الابقار تماما ولمعت الكنيسة على ضوء القمر كسحابة كبيرة حبلى يهزها المخاض .. والطبول تضخ في شوبيت الصحو .. فليل شوبيت نهار يتكأ على السمر والرقص والكانجي مورو .. يغسلن في بحره الوثني بنات المراح الجميلات تعب المراعي ويتوهجن كاشجار القمبيل في موسم الامطار ..

انتصب (مبيور) امام كوخه الفخم وابتسامته الصافية تضيء وجهه الاسود وعيناه السوداوان تطلان على الجميع كما يفعل القمر بهم جميعا في هذه الليلة الرائعة .. أسند ذراعه العارية على كوخه فاليوم (القعدة) .. عنده ، وتدارت بنات المراح بطاسات الكانجي مورو ..

استرد مبيور ذراعه من الكوخ ولفها حول (ماجوك) ــ صديق السطح والعمق .. ــ وهمس في اذن ماجوك التي تشبه طبق السعف « هل تحدثت مع أرول كشول بشان المستشفى .. و .. ومرّ وقت ومبيور يهمس واذن ماجوك تهتز كاشجار النخيل في لحظات اللقاح » .

اقتربت ماريا المرحة من كودي وفي عينيها سؤال يترنح وخبث جاد ..

ـ كودي .

كانت كودي بروعة القمر في هذه الليلة ..

كودي وماريا ليستا من بنات المراح اللاتي يسرحن بالأبقار فهما تخرجتا من مدرسة الكنيسة ولهذا تحظيان بجانب من الاحترام المشوب بالحذر .. فالقراءة تعري الاشياء وتكسب المرء ذكاء خبيثا .. ونضجا يجعله يسبق عمره .. ويتلفع بالغيب كالسحرة .. ولهذا تفضل شوبيت ان تمارس جميع الأشياء بالغريزة وتنمو في برك معتقداتها الراسخة كغاباتها ..

كبر السؤال في عيني ماريا الجميلتين ..

وغادرهما كبيرا .. غليظا .. وماكرا .. ـ الم تتمني للحظة ان تتنفسي من تحت ذلك الابيض النهم ؟..

ففرت كودي فاها

واحتشد في عينيها المذهولتين قرف فظيع .

دعكت اذنيها بشدة كانما تود ان تستخرج منهما تلك الفظاعة « وشعرت باهانة بليغة » .

احست ماريا بأن مرحها اصاب كودي في مقتل فاصابها الارتباك .. بينما لم تجد كودي كلمة واحدة صالحة للرد .. فاشاحت بوجهها بعيدا تاركة المجال لدمعة كبيرة ان تسقط في هدوء ومرارة !..

عصفت الرياح بشوبيت ، وعلت الطبول المخلوطة بالاغاني الجنوبية الجماعية وكانت بنات المراح يضربن الارض بأقدامهن الحافية في ايقاعات متوازية وينخرطون جميعا في رقصة الاخصاب الشهيرة .

كانت جميع الاشياء والكائنات ترقص .. القمر .. والادغال والاكواخ حتى الغابة وحيواناتها والسمك في قاع النهر !.. والرياح تسوق ذلك المرح الضخم عبر البراري والسهول وحتى السياح البيض المتخمون بلحم الحمل

والكانجي مورو كان لهم نصيب وفير فتمايلوا طرباً ـ ولكن عاشق كودي لـم يعجبه المرح الآتي ـ وانما اراد ان يدلو بدلوه !.. كان لا يرى ولا يسمع سوى كودي .. تحسس مكان سجائره واشعل واحدة وقال :

ـ « أود تدجين هذه المهرة الفظة .. وازرع كهوفها السحيقة رعشاتي ارطب شفاهي التي تخدرت من الرحيل عبر القارات وافك رموزها الافريقية.. القي بكل التعاويذ والسحر والغموض واظل اجردها دونما كلل كالمواصف الغجرية المجنونة واهنأ بثمارها الطازجة المذهلة » .

لم يعره احد اهتماماً ..

لقد فتك بهم الكانجي مورو وقضت الطبول على الباقي ..

وحده الذي يصارع الخدر .. يتغذى بالرغبات والجموح ! نظر اليهم في استياء وهو ينهض ويضمر شهوته ، دفع باقدامه متثاقلا يحاول ان يقودها في اتجاه كودي ـ يبصقه الكانجي مورو .. يتجشأ ويتعثر على احلامه الشريرة تعلو الاصوات الهادرة وهو يقترب من الاكواخ .. تخترقه الطبول المدوية من اشجار المانجو وراح يحاول فتح عينيه الشهوانيتين برقت امامه رماح الرجال السود وهم يلتفون حول بنات المراح وتعلو صيحاتهم كانما يودون الانقضاض عليهن ! (فزع) .. تكور كالقبضة واستمد من نزواته شجاعة قبيحـــة !..

تتحرك عيناه بين الاجساد الفحمية كعقارب الساعة .. تكبر الشهوة في خلاياه بجنون وهو يجاهد في فض الاجساد المتشابكة والمتماسكة كالاخشاب الاستوائية .. يتقدم ويفسح المجال لعينيه المذعورتين .. يجتاز المسافة بنظراته الجائعة .. (أين انت ياكودي) !!

تلتحم اسنة الحراب وتلتمع .. تتشكل الدوائر .. وتنفرط ويلتهب العشب تحت الاقدام الغليظة وهي تدكه دكا !! تعلو اصواتهم بالأغاني كشلال . كهدير بحر هائج تأكل امواجه العالية بعضها بعضاً !.. وبنات الجنوب الرشيقات يترنحن من ثقل نهودهن التي تتخللها الطبول كمشط مجنون !! وثمة امراة تموج في انوثتها وتصب عيناها الشهوانيتان بثقة عجيبة في جسد اضخم القوم .. ماردا اسود يضحك كالرعد .. وتتسع عيناه لكل العيون وبرغم كثافة السواد الذي يحيط به من كل صوب يجعلك مشدودا اليه في اعجاب ..

يقود الراقصين بحرية تختلف عنهم !.. لاشك بانه زعيم .. وتلك المتمرغة في انوثتها والتي تقود الراقصات وتبادله ذلك الوله الوحشي لا بد ان تكون خليلته — فهو ينظر اليها بامتلاك خاص —

تضيق الدوائر وتتسع .. تقترب الشفاه من الشفاه والاجساد الطرية المذهلة وتنفصل بمثلها اجتمعت في رشاقة .. وبلا حرائق !!..

تقود الطبول الرقصة العجيبة .. التي تصرخ فيها الحراب والرياح ويفضح القمر العيون المخبوءة بالشبق ويغذي الاجساد بضوء يزيدها سحرا وغموضا وشهوة !..

لم يفطن لوجهه المقناع وهو يغوص بين الاغصان والاوراق حتى برز بكامله كالوصمة !.

التقت عيناه الاثمتان بعيني كودي فجفلت .. والتصقت بماريا حتى وشكت ان تذوب فيها ! .... وفاضت عيناها بالاشمئزاز .. — احس بالاختناق ولم يصدق للوهلة الاولى بانها هي ..

كانت عيناها تأتلقين ومتوحشتين مثل حراب الراقصين تقذف عليه الاشمئزاز كالحمم !.. مصفت الطبول شحافته الهشة وبصقتها ..

خارت امانيه وتبخرت احلامه وهو يتقلب على اشمئزاز كودي تقلب الحمل في النار — حاول التشبث بالكانجي موريو فركله .

همدت الطبول دفعة واحدة .. وارتفعت الهمهمات الوحشية لقد اضرم غضب كودي النار في كل شيء .. واشتعلت ارجاء المكان بغضب هائل .. — ماجت الارض تحته — وبرقت الحراب الجائعة تتلهف وتتسابق الى جسده الهزيل ...!

كان بحرا أسود غاضبا ورعبا كثيفا يتقدم اليه بالوثبات !..

مرق من بين الاشجار كالعاصفة ..

وظل يعدو بقوة رهيبة !.. يعدو .. تطارده الوعول السوداء المتوحشة .. الطبول ، الحراب ، الاساطير .. وكل الخرافات بدءا باكله حيا والانتهاء بسحل عظامه لصنع الشوربا !.. يعدو .. يعدو .. وخلفه تعلو القهقهات المجلجلة الساخرة ويختفي تماما كشيء تافه سريع الزوال !

(*) شوبيت : قرية في جنوب السودان .

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

ومن سلسلة احياء التراث العربي

المراثي

مراث واشعار في غير ذلك ، واخبار ، ولغة

عن محمد بن العباس اليزيدي

حققه : محمد نبيل طريفي

قدم له : الدكتور عزة حسن

* * *

ومن سلسلة روايات عالمية

البيت الأخضر

تأليف

ماريو فارغاس ليوسا

ترجمة

رفعت عطفة

آفـــاق المعـــرفـة

تعدد اتجاهات النقد

حامد حسن

علم الفكر الجديد

بقلم البروفيسور الفرنسي:

جان بيير

ترجمة واعداد :

محمد الدنيا

عمر ابو ريشة في ذكراه

السنوية الاولى

فواز خيو

نافذة على العالم

ترجمة واعداد :

كمال فوزي الشرابي

تعدد اتجاهات النقد

حامد حسن *

النظرة الناقدة للأدب القديم تختلف اختلافاً جوهرياً عن النظرة الناقدة للأدب الحديث . فالزمن الفاصل بين القديم والحديث لا يمكن عبوره ، ولم يبق من آثار القدامى الا تماثيل مهشمة ، محاطة بغيوم كثيفة من الشكوك !!

* حامد حسن : شاعر وباحث من القطر العربي السوري ، يكتب الشعر والدراسات الأدبية والتاريخية والفلسفية ، من مؤلفاته (عبق) شعراء ، (رواد عبقر) دراسة وتحليل ، نساء عربيات .

ان نتخيلهم تخيلا من خلال نظرتنا « الخاصة » ومـن خلال ما وصلنا منهم . ومن الصورة المهزوزة الناقصة التي حملها الينا تاريخهم . ولذلك فان علينا كلما حاولنا نقد آثارهم ان نطبق نظرية « ربط الحادثة بزمانها ومكانها » وهذا الربط نفسـه يكون تصوريا فرضيا اكثر منه واقعيا .

اما المعاصرون فآثارهم بين ايدينا ، نحس زمانهم ، ونعي مكانهم ، ونعاني الكثير من الاحـداث التي اكتنفت حياتهم العامـة . وقد لا تفوتنا نزواتهـم الخاصة ، والعوامل المادية والمعنوية التي اسهمت في تكوين شخصيتهم الادبية . ومع كل هذا فان الجانب المعنوي في الانسان – كل انسـان – سواء الشـاعر ، او العادي يظل كثير التعقيد والالتواءات . ورغم الاضواء التي سلطها علم النفس على اعماق هذا الانسـان فان الجانب الذي ظل مظلما ومحجباً لم ينفذ إليـه النور ظل يشغل مساحة اكبر من المساحة المضاءة في نفسه !!

ونرى بعض النقاد كثيراً مـا يدع القارىء حائراً معلقاً مشوشاً لكثـرة افتراضاته ، واحتمالاته ، وظنونه ، وربما اعتبر نفسه موفقاً في طريقته هـذه لانه تخلص من اعطاء الحكم ، وتحاشى الخطأ ، وان ابتعـد عن الصواب ، وبالوقت ذاته خلق في نفس قارئه اضطرابا وقلقاً ، وتطلعا لهيفاً .

وقد يرى بعض النقاد في هذه الطريقة دليلاً على عدم اكتمال الثقافة ، وضعف الثقة بالقدرة على ايصال القارىء الى اطمئنان اليقين .

وبعضهم – وأخص النقدة الاذكياء يشيع الفرح واللذة في نفس قارئه بما يسبقه عليها من المتع بتسليطه السخرية والتهكم على مواطن الضعف حتى ولو كان ملتزماً وجاداً في نقده ، والنفس بطبيعتها تواقة الى « المفرح » والى ما ينتشلها بين الفترة والفترة من الجدية ، والاستغراق في البحث الجاد ، والتتبع الهادف . ولعل الجاحظ اديب العربية الاكبر خير مثال للاديب الفنان الذي يجدد النشاط دوماً في نفس قارئه !!

ويرى الكثيرون ان الغاية من النقد هي التذوق . ولكن اذا كان التذوق غاية في مرحلته الاولى ، فهل يقف بنا التذوق دون استشراف ، او تحديد الغاية الذاتية ، او الاجتماعية ، او غيرهما من الاغراض التي تهدف اليها الاعمـال الادبية ؟؟

ان التذوق خطوة اولى ثابتة في سبيل الحصول على الثمرة الصحيحة ، والتي هي النتيجة الضرورية .

التذوق يدعم ، أو يقيم الالفة بين الخصائص الذاتية وبين القارىء والناقد والفنان .

والتذوق هو الاستمتاع بالجمال، بل هو قوة الحكم على الشيء استحساناً أو استهجاناً لغير غاية عند صاحب الحكم ، ومن غير قاعدة يقاس عليها .

هذا بما يختص بالتذوق ، اما الذوق فقد اعطاه بعض النقاد حكماً مطلقاً على الاثر الادبي ، واعتبره المنطلق الاساسي لمختلف الاحكام الادبية . ونحن نرى ان ذلك له اخطاؤه ومحاذيره ، لان اذواق الناس مختلفة ، ولا يشذ عن هذه القاعدة المثقفون . فمنهم من يؤخذ بروعة المتنبي ، ومنهم من يعجب بزخرفة البحتري ، وبعضهم تأسره رقة البهاء زهير ، وسهولة أسلوبه ، وهناك من يفتنه عمق أفكار المعري وجراته ، او سخرية ابن الرومي وتصويره ، كما نجد من يكبر لغة الفرزدق ، او استعارات أبي تمام وكناياته ، وكل واحد يحاول أن يضع قيمة لما يقرأه ، تتلاءم مع ذوقه الخاص ، فهل يصح الركون الى حكمه والاطمئنان اليه ؟؟ هل يستطيع من حفر قناة أن يحول كل جدول ليصب فيها؟؟ هل يفرض على كل عابر سبيل أن يسلك السبيل التي سلكها . ويتنكب عما سواها من السبل ؟؟

ولا نعدم من يتمادى ويغالي ويقول : الحياة حرية وانطلاق ، والطبيعة لا تخضع للقيود والمقاييس ، والأدب ابن الحياة فيجب أن يتحرر من المقاييس والأطـر !!

ولكن حتى في هذا الادعاء ، او في هـذه الدعوة الى « تسيّب » الادب والنقد — باعتبار النقد مترتباً على الادب — فانهم يضعون القيود والانظمـة والاطر !! اما جعلوا مقياس الادب بمقدار وفائه للحياة والطبيعة ؟؟

وبما ان الحياة والطبيعة مليئتا بالمفارقات ، غنيتان بالمعطيات حافلتان بالانغام والالوان ، ذاخرتان باشياء لا حصر لها ، فلماذا نطلب ، او نرغب ، او نلحّ على الأديب والناقد ان يتقيدا بانموذج بعينه ، او ان يلتزما بمنهج مقنن ؟؟؟

الانطباعيون :

هذا قريب من وجهة نظر الانطباعيين الذين ينكرون وجود القواعد ، ويعتمدون النقد الذاتي . ويقولون :

اولا : كل اثر فني هو نتاج شخصي ، قائم بذاته ليس له مثيل ، وعلى هذا لا يمكن تصنيف الآثار الادبية ، ولا اخضاعها لقوانين ، لأن لكل منها شخصيته واستقلاله .

ثانيا : اذا اردنا تقدير اثر فني فيجب أن نحصر انتباهنا فيه ، ولا نلتفت الى غيره ، ولا نقابله بصنوه ، لأن الفن « غيور » لا يسمح لنا بالمقايسة أو الموازنة !!

ثالثا : ان المقاييس التي قد توجد ليست الا احكاما مستقاة من آثار فنية سابقة ، اما الآثار الجديدة فلا تنطبق عليها تلك الاحكام لانها مختلفة عن سابقتها .

وعلى مافي آراء الانطباعيين من صواب وصحة نظر فانها تلقي بنا في الفوضى لانعدام الضوابط العامة .

وهناك من يحاول التوفيق بين النقد الموضوعي والنقد الذاتي ، واستخراج قوانين للجمال نسبية مرنة ، غير كلية ، وغير يقينية ، ولكنها هامة وضرورية لمنع الفوضى .

الادب والبيئة :

وهناك بعض النقاد يحصرون منهجهم النقدي في مرحلتين : تنصب أولاهما على دراسة الاديب نفسه بيئة وجنساً ، وظروفا فاذا رصدوا كل حركة من حركاته ، او سكنة من سكناته ، واطمأنوا الى هذا الرصد ، او هذا الرصيد عمدوا الى دراسة الأثر مطبقين حياة الشاعر على آثاره ، او آثاره على حياته لما بين الحياة والاثر من صلة وتبادل واثر .

ونرى أن هذا المنهج — على مافيه من سلامة وصحة نظر — لا يخلو من اخطاء ، اذ كثيراً ما يقع انفصام بين الاثر وشخصية الشاعر او الاديب ، تبعاً

للموضوع ، أو تبعاً للاحداث النفسية . اذ تتعرض بيئة النفس لشتى التغيرات والوقوعات ، وقد « تكمن » هذه الاحداث في عمق النفس ، ولا تطفو على السطح وقد يملي هذا « السطح » على الشاعر قصيدة لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمنطقة « الكمون » أو العكس اذ قد تملي عليه منطقة « الكمون » قصيدة لا تتعاطف مع منطقة « السطح » مع ان الناقد الذي يحصر منهجه في « دراسة الاثر مطبقاً على الشخصية » لا تتجاوز ـ في الواقع ـ نظرته الى الشخصية الى ما وراء السطح الظاهري ، وهذا لا يقود الناقد الى المدلول الحقيقي المتواري في الاثر ، والمختبيء خلف رموزه .

الواقعية المادية :

والنقاد الذين يتخذون من الواقعية المادية منهجاً يلحقون العوامل الاقتصادية بدراسة البيئة الاجتماعية وشخصية الفنان باعتبارها عاملاً اساسياً في توجيه الفرد والمجتمع ، وهم على جانب كبير من الصواب لان العامل الاقتصادي يلعب الدور الرئيسي في حياة الفرد وسلوكه واخلاقه واعماله ، وفي بنية المجتمع العامة .

ولكن بعض نقاد الواقعية انطلاقاً من تقديره للعامل الاقتصادي في الحياة العامة يرى ان يوجه الادب ـ كل الادب ـ توجيهاً مادياً ، وان يفسره تفسيراً مادياً ، وان ينطلق النقد من وجهة نظر مادية ، لانهم يرون ان النظرية الماركسية هي النظرية التفسيرية المطلقة والاخيرة للوجود والمجتمعات .

ويرى الآخرون : ان النظرية الماركسية ليست الا مرحلة من مراحل الفكر البشري ، ونهجاً متقدماً للعقل والعمل !!

ويرون أيضاً أنها منطلق وليست غاية !!

وانها « نسبية » وليست مطلقة !!

وانها ليست « اخيرة » لاننا اذا اعتقدنا انها اخيرة تكون انكرنا « التطور » ومسيرته الابداعية والتطور هو الاساس الذي تقوم عليه النظرية الماركسية . لان التطور خلاق لجميع الصور لما فيه من الحركة الديالكتيكية .

الموضوعي والذاتي :

النقد كالادب مهما تعددت مقاصده ، وترامت آفاقه ، وتلونت اهدافه : فانه لا يخرج عن منطلقين اثنين من حيث الجوهر فهو اما موضوعي ، واما ذاتي، واذا كان المنطلق الثاني يخضع للذوق الخاص ، فان المنطلق الاول يخضع لاصول ثابتة وموعية لا تخضع ، او لا تستجيب للأحكام الذاتية ولئن كانت ثورة الرومانسية على الكلاسيكية حاولت او حققت تغلب الجانب الذاتي على الموضوعي ، فان ثورة الواقعية على ما سواها من المذاهب المتعددة حققت ورسخت وغلبت الجوانب الموضوعية على كل ما هو ذاتي .

ونرى اليوم نقداً ، او ضرباً من النقد يحاول ان « يوفق » ، او « يزاوج » بين الموضوعية والذاتية ، باعتبار « الذات » نفسها موضوعاً .

وكما اخرج افلاطون الشاعر من جمهوريته ، او عمل على طرده لتسلم جمهوريته ، وتظل مثلى في رايه ، فهل لنا أن نخرج الناقد « الملتزم سياسياً » من عالم النقد وجمهورية النقاد ؟؟

وهل يمكن القول : انه لا يعتد بنقده لمخالفته لأوليات النقد وبديهياته ؟؟

الـى الشرط الاول للناقد أن يكون « حيادياً » وان يكون « نزيهاً » ؟؟ والملتزم مهما حاول ان يتجرد فانه لا يستطيع أن يتحلل من « الحزبية اللاشعورية » لان الهوى عنصر ضعف في النفس ، ويكاد يكون ملازماً للطبيعة البشرية ، فما بالك بالملتزم سياسياً وعقائدياً ؟؟ ومتى قررنا ان « الاثارة » او « الاستثارة » عنصران اصيلان من عناصر الأدب ، أدركنا استحالة « حياد » الملتزم وبالتالي استحالة حياد نقده لأنه مثار سلفاً بحكم التزامه !!

اذا لم تسد النظرية الموضوعية الخلافات الفكرية فلن يتحقق تقدم للفكر تنفيساً عن كبت يعانيه الناقد ، او حسد يأكل صدره ، متخفياً وراء الفاظ معقدة غامضة !!

اذا لم تسد النظرية الموضوعية الخلافات الفكرية فلن يتحقق تقدم للفكر والادب والنقد

إن سبيل البناء ، وابراز القيم الفنية ، ونشر الوعي الموضوعي ، وعرض القيم القديمة والحديدة يجب ان يتعمق بدون اخضاعه لمشاعر ذاتية !!

إن معظم النظريات النقدية التي نتعامل معها الآن ، تمت بأوثق الصلات الى آداب تختلف بطبيعتها العامة عن طبيعة ادبنا ، وهي — وان فتحت جوانب مضيئة امام نقادنا فلا تخرج عن كونها وضعت لآداب غير ادبنا ، ولإبراز خصائص امم غير امتنا تختلف في مجمل خصائصها او في اكثرها عنا .

ان اوعية تفكيرنا اصبحت مملوءة ، لا بل مكتظة بشتى المناهج النقدية ، وضروب « التقنيات » حتى أوشكنا أن نصاب بالدوار ، ونضيع .

ان الاعتماد على الأشباه والنظائر ، والاخذ بالمعايير المستوردة التي جاءت مع الحملات الاستعمارية ، والغزو الثقافي ، والتي استهدفت الجانب الفكري في كل شعوب العالم الثالث ونحن منها ، ان هذا كله لا يوصلنا الى منهج نقدي عربي حر ، نابع من طبيعة لغتنا ، وادبنا ، ونمط تفكيرنا ، وحاجة امتنا ، وصحة نظرتنا المتجددة للحياة .

* * *

علم الفكر الجديد

بقلم البروفيسور الفرنسي : جان بيير
ترجمة وإعداد : محمد الدنيا

هل يمكن ان يفهم الدماغُ الدماغَ ؟ كيف بوسع هذه الكتلة الهلامية ان تقودنا افكارنا الأرقى ومشاعرنا الأسمى ؟ حتى هذا التاريخ ، كنا نخفي جهلنا بقصمه الى نصفين . أولا ، الجسم ، وبنية الأعضاء المحسوسة وكيمياء الخلايا ، او باختصار ، كل ما هو قابل للتفسير والتحليل ، والقياس . وثانياً ، الذهن ، وشؤون النفس ، وأسرار التجريد ، الميدان المفضل عند الفلاسفة ، وعلماء النفس من كل جنس ولون .

* محمد الدنيا : باحث من القطر العربي السوري ، يعمل في مجال الترجمة .

الا ان هذا الفسخ ، المريح ، في طريقه الى الزوال . فمنذ سنوات خلت ، كانت قد راحت ترتسم معالم ثورة خفية ، ولكن حاسمة ، حين اخذ الباحثون في المخابر يحاولون تحديد اصول افكارنا واسسها المادية . وشرعوا يطرحون اخيرا عناصر الاجوبة الاولى على الاسئلة الكبيرة : كيف يفكر الدماغ ؟ وكيف يعقل ؟ وكيف يفهم ؟ وكيف يتأثر ؟ وكيف يتذكر ؟

لقد لزم البشرية اكثر من ثلاثة آلاف عام كي تحكم بأن مركز حركة النشاط البشري هو الدماغ ، وليس القلب . واحتاجت الى قرون اخرى كي تعرف بناه الرئيسية . ثم تتالت خطوات عملاقة : لقد تبين ان هذا العضو الغامض ، الذي تردد اجدادنا في تفكيكه وتحليله ، هو « غابة » هائلة قوامها عشرات مليارات الخلايا العصبية ، هذه « الأخطبوطات » الدقيقة جدا ، ذات المجسات الكثيرة ، التي يوسع كل منها ارساء آلاف الارتباطات والاتصالات مع الاخرى . ولقد تبين ايضا ان للرسائل التي تجوب فيها لغة مزدوجة : كهربية (الخلايا العصبية تشحن المحرضات) وكيميائية (مواد ، تسمى الناقلات العصبية ، وتنوب عن نقاط التماس بين الخلايا العصبية) . وخلال السنوات الاخيرة ، اجتيزت خطوات اخرى متقدمة : استطاع الاختصاصيون تحليل هذه الاشارات ، ودراسة الخلايا العصبية في بنيتها الجزيئية الجوهرية أما الآن ، فانهم يسعون الى تحديد العلاقات بين هذه النشاطات الداخلية وادراكاتنا ، وتصرفاتنا ، وصورنا الذهنية ، وافكارنا ... وعبر هذا الفيض البحثي ، تبدو « النفس » بالتأكيد تصورا عتيقاً .

ان من شأن تحطيم الحاجز بين الدماغ والنفس ان يعني في الوقت نفسه انهاء الفاصل بين علم الأحياء وعلم النفس ، وبين العلوم المسماة « الحياتية » وعلوم « الانسان » .. وبذلك ، بتنا نرى انعقاد أواصر التحالفات ضد ما هو طبيعي : علماء الرياضيات يجرون البحوث بالتعاون مع علماء الاحياء وعلماء النفس ، والفلاسفة يعملون مع المعلوماتيين .. ان هذه التحالفات المختلطة ناجمة عن علم جديد ، مفتوح ومتعدد الميادين المعرفية ، تحت اسم غريب : « الادراك » ، الذي يتمحور موضوعه حول دراسة سيرورات المعرفة ، والفكر ، والتعلم ، والعقل . انه الحدث السعيد ، الذي يصفه عالم الاحياء والباحث العلمي « فرانسيسكو فاليرا » بانه « ثورة نهاية القرن الكبرى » .

ان من يذكر العلم فانه انما يعني بذلك ايضـا التكنولوجيا . وتطبيقاتها معروفة . فبعد الحاسبات الآلية الخبيرة و « الروبوتات » الشهيرة اليـوم ، هنالك جيل آخر من الأدمغة الصناعية في طريقه الى الظهور . غير انها لم تعد مصممة على قاعدة المبادىء المعلوماتية القديمة ، التي استنفدت قواها ، بل على اساس من الشبكات «الخلوية العصبية الصناعية » وفق النموذج الدماغي. وستكون قادرة على الفهم ، والعقلنة ، ان لم نقل التأثر وطرق أعتاب شـكل ما من أشكال التفكير .

يقول البروفسور « جان بيير شانجو » : المعروف عالميا ، ومدير احـد مخابر معهد باستور ، مايلي بصددعلم الفكر الجديد :

ان الفصل بين الجسـد والنفس هو من الشرور التي بقينا نعاني منها منذ ديكارت . وتفاقم خطر هذا الشر مع بداية القرن عند ظهور الحركة السلوكية ، التي ركزت قبل كل شيء على السلوك ، دونما اهتمام بالدماغ ، وزاد مجيء التحليل النفسي الطين بله بعد أن فصل بالتدريج الحياة النفسية عـن ركنها البيولوجي . واعتقد أن هذا الفصل اليوم لم يعد مجديا : لقد تلاشى مع تقدم العلوم . وبتنا في الوقت الحاضر نتلمس الأسس المادية للفكر البشري ، وندرس خصائص الخلايا العصبية التي تتيح صياغة التصورات الذهنية ، والاحتفاظ بها في الـذاكرة والعقلنة والتفكـير والفهم ... ومـن الوضح ان ذلك يعني الناس جميعـا ، وبالأخص الفلاسفة . لقـد تفجرت الحـدود بين العلوم والاختصاصات : انّنا نتحدث الآن عن « علوم ادراكية » للإشارة الى التضافر بين الرياضيات ، والبيولوجيا العصبية ، وعلم النفس ، والمعلوماتية .....

لقد بدات منذ عدة سنوات دراسة الدماغ بالمستوى الاساسي : الخلية العصبية . هنالك ما يقرب من ١٠٠ مليار خلية عصبية في الدماغ البشري . انه رقم هائل . واصبح بوسعنا ان نسجل نشاط خلية واحدة منها لنحـدد ماهية مساهمتها في عمل الدماغ . وقد اكتشفنا ان لكل خلية عصبية تخصصا محددا جدا . وهكذا ، فان القشرة البصرية منظمة كخارطة لشبكية العـين ، اي للعالم المؤثر فيها : وتنشط مثل هذه الخلية العصبية عندما تكشف العين

شعاع ضوء ذا اتجاه محدد جدا . اما الخلية المجاورة فتقوم بذلك حيال اتجاه مختلف قليلا . وبذلك ، تتألف كل منطقة في الدماغ من خلايا عصبية ذات وظائف متباينة : التحقق من الشكل ، واللون ، والحركة في الحقول البصرية ، على سبيل المثال . اما الخلايا العصبية في القشرة الجبهوية ، المتطورة جدا عند الانسان ، فانها مرتبطة بالفكر العقلاني . وفي الجزء الصدغي ، هنالك خلايا عصبية متخصصة جدا ، وتلعب دورا في تمييز الوجوه . وهذا ما درس لدى القرد المتنبه ، الذي يمكن « نقر » واحدة من خلاياه العصبية ، بواسطة نطب كهربائي مصغر ، وتسجيل نشاطها الكهربي ، اي الكشف عن ذبذباتها العصبية ومن شان ذلك ان يتيح تحديد ما اذا كانت هذه الخلية العصبية « تعمل » حين تعرض امام القرد وجوه ـ جانبية ، وامامية ، بعيون وبلا عيون الخ . . . النتيجة : وجود خاصية مدهشة ، فبعض الخلايا العصبية « تستجيب » فقط للوجوه الامامية ، وبعضها الآخر للوجوه الامامية والجانبية ، واخرى للنظر . وهناك مثال آخر : الالوان . لنتناول دفترا احمر اللون . اننا نراه بهذا اللون الاحمر دائما ، مهما كان نوع الاضاءة ، شمسية ام صادرة عن مصباح كهربائي ام عن نار الخشب او غيره . مع ذلك ، وبالمصطلح الفيزيائي ، فان تركيب اطوال الموجة الضوئية المنبعثة من الدفتر مختلفة تماما في كل حالة عن الاخرى ولقد تاكد ، لدى القرد ، ان للدماغ علاقة في هذا الامر ، لانه « يقوّم » اللون الاحمر عن طريق خلايا عصبية متخصصة تميز اللون ، وليس طول الموجة . وهذه النتيجة مقبولة القياس لدى الانسان ، دون شك .

اذن ، فتخصص الخلايا العصبية هو شان دماغي . ولكن هنالك ترابط شديد الغنى بين مناطق الدماغ . ولكل خلية عصبية ذاتية خاصة ، غير انها تساهم في الوقت نفسه بعمليات تحتشد فيها خلايا عصبية اخرى تقع في مناطق شديدة التباين في الدماغ . ومع انه لا تتوفر حاليا « خارطة » محددة على صعيد الخلية العصبية ، الا ان هنالك تقنيات تتيح تحديد المناطق الدماغية التي تنشط في اطار وظيفة ما .

ان العلاقات التي عقدناها مع محيطنا تكيف دماغنا . وخلال النمو والتطور ، يوجه نشاط الدماغ سيرورات توضع ترابطات الخلايا العصبية . فاذا ما كان الوليد مصابا مثلا بـ « الساد » CATARACTE (تكثف في عدسة العين يمنع الابصار) ، الذي يجعل عدسة العين معتمة ، وإن لم تجر له عملية

جراحية عاجلة ، فانه سيبقى ضريرا ، لان ترابطات الخلايا العصبية التي لا تنشط خلال الفترة الحاسمة لن تتوطد بالشكل الصحيح . إن الدماغ يتطور بالتفاعل مع العالم الخارجي . وليس هنالك دماغ يشبه دماغا آخر شبهاً فعلياً . كما يمكن أن يكون هناك اختلاف في سطح بعض المناطق الدماغية. لنأخذ مثلا مناطق اللغة . انها تقع عند غالبية الاشخاص في نصف كرة الدماغ الايسر ، لكننا نجدها في النصف الأيمن عند آخرين . اذن ، هنالك يمناويون ويسراويون في اللغة . لكن ذلك لا ينعكس ، على ما يبدو ، على اليسراوية أو اليمناوية اليدوية . ان النصف الايمن يوجه اليد اليسرى ، والنصف الايسر اليد اليمنى . اذن ، يستخدم اليسراوي اليدوي بالاحرى ، نصف دماغه الايمن على صعيد المقتضيات الحركية . غير انه ليس من المعروف فيما اذا كان مرد هذا الاختيار الى اللاتناظر الفطري للدماغ . على كل حال ، ينبثق التخصص لنصفي كرة الدماغ في وقت مبكر جدا عند الوليد . ماذا عن مناطق الدماغ التي تشكل ركائز النشاط الأكثر تطورا ، كالاستدلال والمنطق مثلا ؟ ـ في الحقيقة ، تسخّر مثل هذه الركائز مجموعات معقدة من ميادين الدماغ في العمل . بوسعنا مثلا الإيحاء بفكرة الحيوان (حيوان ما) بعدة طرق : كان تلفظ اسمه ، أو تكتب هذا الاسم ، أو ترسم شكل الحيوان . وحينئذ ، تتباين الميادين الدماغية الحسية الناشطة وفقا للحالات ، وهو أمر منطقي (مناطق السمع في الحالة الاولى والبصر في الأخريين) ، الا انه توجد ايضا منطقة اخرى تقع في القشرة الدماغية اليسرى ، التي « تشتعل » في كل مرة بالنسبة للتكييفات الثلاث . ويرتبط ذلك على الارجح بمنطقة ذات علاقة بمعنى الكلمات . وهكذا ، فاننا هنا ازاء نوع من « تشريح » علم الدلالة .

عندما ينظر المرء الى وجه شخص امامه ، تشكل الخلايا العصبية في مناطق دماغه البصرية صورة تشبه قليلا ما تتلقاه شبكية عينه . ولكن ، تنشط ايضا خلايا عصبية أخرى في قشرته الدماغية الجبهية ، لان رؤية وجه الآخر توحي عند المتلقي بافكار اخرى . ان شبكة الخلايا العصبية الناشطة في وقت النظر هي على جانب كبير جدا من التعقيد . وعندما يعيد هذا المرء التفكير بذلك الوجه ، في وقت لاحق ، فستكون الصورة الذهنية ناقصة ، ذلك ان الخلايا العصبية الناشطة في هذه الحالة هي أقل عددا . إذن ، يحتفظ الدماغ بأثر هذا الوجه ، على نحو منقوص . فما سر هذه القدرة على الاحتفاظ به ؟. في

الواقع ، سيرورات التـذكر ما تزال عصية على التفسير مع ذلك ، يمكن ان نتصور ان هنالك تغيرات جزيئية بمستوى الترابطات العصبية تتيح او تمنع مرور السائل العصبي . وهذا ما من شأنه ان يشكل « صوراً » او أشكالاً كامنة تعود الى الانبعاث في الوقت المناسب . وبالطبع ، يمكن ان يكون للخلية العصبية نفسها عدة أبواب مفتوحة ، تهيئها للمشاركة في تركيبات مختلفة . ولا ننس ان بوسع الخلية العصبية الواحدة أن توجـد ١٠٠,٠٠٠ ترابط مـع مثيلاتها ، علماً ان في الدماغ ١٠٠ مليار خلية عصبية . إذن ، فلنتصور عـدد التركيبات التي يمكن ان تخلقها هذه الشبكة الهائلة . ويمكن لهذه الخلايا ان تنشط على نحو متعمد ، حين تركيز الانتباه ، بل حتى دون ذلك ، اي في أثناء الاحـلام .

اما فيما يتعلق بميداني الفرح والحزن مثلا ، فبوسعنا القول إنه مـن الصعب ان نحلل الحالات الانفعالية تجريبياً ، وليس بالمستطاع التعامل الا مع مظاهرها الخارجية . ومن المعروف ان المنطقة الدماغية الاكثر ارتباطاً مباشرة بهذا الامر هو Systeme Limbique ، إحدى اقسام « الجمل » في القشـرة الدماغية . مع ذلك ، لا تتوفر حولها معلومات كثيرة ، ولو انها المنطقة التـي تستهدفها المهدئات ، ومضادات الاكتئاب والكثير من العقاقير ..

هل يترك التبغ تأثيراً ما على الخلايا العصبية ؟. قد يدهش البعض أن نقول إن دماغ المدخن يختلف عن دماغ غير المدخن ، ذلك ان التبغ يترك تأثيراً كيميائياً على الدماغ . إنه يزيد من عدد مستقبلات النيكوتين (جزئيات تثبت « الأستلكولين » ، وهـو مادة تؤدي دوراً على صعيد التشارك بـين الخلايا العصبية ، في الدماغ) . إلا أن لهذه المستقبلات علاقة بالانتباه او الذاكرة . ولكي يؤدي الدماغ قدراته هذه على نحو كامل ، فانه بحاجة دائمة الى النيكوتين بالنسبة للمدخن . إن دماغ المدخن ، بمستقبلاته الزائدة ، لا يعمل بالصورة المثلى في غياب النيكوتين . إذن ، هنالك نوع من التبعية والخضوع . بذلك ، يغدو المدخن ، بشكل ما ، معاقاً دماغياً . ولكن ماذا لو كف عن التدخين ؟ حينذاك ، يلزمه عدة اشهر كي يصبح عدد المستقبلات في دماغه عادياً وطبيعياً كما كان . ولا يعني ذلك ان ليـس هنالـك تأثيرات اخرى على الجسـم ، ان النيكوتين نوع من المخدر العنيد والمزعج . ومما لاشك فيه أن من شان هـذه

المعارف الجديدة حول عمل الدماغ ستتيح إحراز خطوات متقدمة في ميدان الذكاء الصناعي. إن الحاسبات الآلية اليوم لا تنجز سوى الحسابات الاساسية، ولكن بسرعة كبيرة جداً . إنها تحاكي اعمالاً بسيطة ، وتوجه « الروبوتات » الصناعية او المسابر الفضائية . وقد سمي ذلك بـ « الذكاء الصناعي » . وهنالك محاولة لنسخ الدماغ الحيواني ، او بالاحرى تقليد المنظومات المركبة من الخلايا العصبية . وهكذا ، تم التوصل الى استنساخ سباحة الشلق (نوع من السمك) وتقليد تغريد بعض الطيور والتقاط المعلومة البصرية على غرار شبكية العين الطبيعية . غير ان ذلك ليس إلا آليات أولية حتى الآن ، إذ انه يلزم الانتقال الى مستوى آخر اذا كان الهدف هو التوصل الى آلات تفكر حقيقية ، ونعني بذلك العقل ، اي صياغة الاستراتيجية . ان الحاسبات الآلية الحالية لا تفعل اكثر من الخضوع للاستراتيجيات الجاهزة التي تدرج في برامجها ؛ كما انها في عوز الى التجربة المفتوحة على العالم الخارجي ، وهي غير قادرة على التعلم . اما الدماغ فهو يتعلم ، اي انه يضع النقاط ، بالمصطلح الخلوي العصبي ، التي يستند اليها من اجل صياغة استراتيجيات جديدة وتحديد الاهداف الجديدة . وفي الذكاء البشري ، ليس بالامكان فصل البرنامج عن الآلة . إن الدماغ يبني نفسه بالتدريج ، منذ الولادة ، بالتفاعل مع العالم ، والمعرفة هي التي تكيفه . وليس بمقدور الآلة بلوغ هذه القدرة . وكانت قد صممت آلات عن طريق ما يسمى بـ « الخلايا العصبية الصورية » : عناصر دارات تتميز بالعديد من خصائص الخلايا العصبية وقادرة على عقد علاقات مع الخارج . وتستطيع بعض الشبكات معرفة اخطائها الخاصة بها . وقد تمكن عالمان ، « سجنوفسكي » و « روزنبرغ » ، من صنع آلة وسمها «رنت توك» ، وهي قادرة على تعلم القراءة ، حيث تقوم بقراءة النصوص الانجليزية ، بصوت مرتفع ، بمرافقة معلم بشري . وفي البداية ، تقرن الآلة ما بين عناصر النص والصوت . ثم ، وبعد فترة من « الرغي » ، تغدو قادرة على « لفظ » الانجليزية المحكية بدقة ٩٠ ٪ . إنه مستوى معقول ، ولو انها لا تفهم ما تقرأ ، عدا عن عجزها في مضمار التمتع بالنوايا . وفي الحقيقة ما نزال بعيدين جداً عن ميدان الارادة والعواطف والاهواء على هذا الصعيد .

ماذا عن الاشراق او الالهام العقلي ، الذي « يأسر » احيانا دماغ المبدع او الباحث ؟ . من المعروف اننا نقلب في بعض الاحيان قضية ما في جميع الاتجاهات،

ونستعين بالكثير من الامكانات .. ثم فجأة ، وبعطفة فكرية ، تنبثق فكرة . تلك هي الشرارة . فخلال التفكير ، تتلاحق تركيبات خلوية عصبية ، او لنقل تصورات ذهنية ، على نحو صدفوي الى حد ما . ثم ، فجأة ، تدخل إحداها في رجع مع الاخرى . وبوسعنا ان نتصور هذا « الاشراق » على انه فيضان في القشرة الدماغية الجبهية يطفى على Systeme Limbique وعلى هذا النحو ، يبرز تناغم بين العقل والمتعة . وهذا ما نلمسه مثلا عند التأثر بتحفة فنية . غير ان المجموعات الخلوية العصبية المشاركة في ذلك تكون متباينة . إن الفن لا يثير في المرء متعة جمالية وحسب ؛ بل يحرك العقل ايضا . ان نفهم التحفة الفنية فذاك اعتراف بايقاعاتها ، واشكالها ، وثقافة تحملها ، وتمييز لها ، وإدراك لمعانيها . إننا نرى اللوحة بالعينين ، والدماغ ـ وخصوصا قصه الجبهوي ـ إنها المتعة والعقل . ومع التجربة ، نتوصل مثلا الى تمييز اللوحة الاصلية عن اخرى نسخها تلميذ فنان . ففي لوحة اصلية مثل « بييتا » لمايكل انجلو ، اكثر ما يستهويك هو الطريقة التي رسمت بها اليدان ، وثنيات الثوب ، وتناغم الالوان ، وطلاقة الادوات ، ودقة الخط وسرعته ، وهو ما لا يتسنى لتلميذ ناسخ . وعندما ندرك مهارة الفنان ، يتولد لدينا ايضا نوع من الاشراق . غير ان ذلك ليس على غرار « السهم الناري الدماغي » ، وليس فيه شيء من نوبة الصرع .

إن من يدرس تطور الانواع ، وتطور الدماغ ، ويشرح عمل التفكير ويفسر الابداع الفني ، لا بد وأن يستعين بنظرية التطور الداروينية . ذاك على ما نعتقد مبدأ تنظيم ذاتي اساسي . في تطور الانواع ، التنوع آت من الجينات (المورثات) ، اما الانتقاء فينشأ على مر الاجيال : يستمر الافراد الافضل تكيفا مع المحيط ، في حين ينقرض الآخرون . تلك هي الداروينية الكلاسيكية . ويمكن سحب وجهة النظر هذه على الخلايا العصبية ، ولكن في هذه الحالة ، لا يعود الانتقاء يطال الجينات . فخلال تطور الدماغ ، وعبر الموجات المتلاحقة من تكون الترابطات العصبية ، هنالك فيض ، ثم انتقاء : عند حدوث التفاعل مع الخارج ، تتوطد بعض تلك الترابطات ، وتنتهي اخرى . وهذا شكل من أشكال الداروينية العصبية . ويمكننا ان نرصد هذا المبدأ حتى في صياغة الفكر : تدخل الخلايا العصبية في نشاط متزامن ، وتحدث تركيبات مختلفة ، وتتشكل تصورات متسلسلة ومترابطة . واذا ما تناغم احدها مع حالة داخلية او

خارجية ، فانه يأخذ طريقه الى الذاكرة ، وهو ما لا يحـدث مع التصورات الاخرى . وهذا نوع من الداروينية الذهنية . ويمكن ايضا تطبيق هذا المبدأ على تطور المعرفة . وتكمن قيمته في عدم ارتكازه الى مسبب خارجي ..

ومع ان المرتكز التحليلي هنا مادي ، إلا ان الفكـر المادي ليس نوعا من الأيديولوجيا . إنه اختصاص قائم على محاولـة ضرب صفح عن كل ما هو ميتافيزيقي ، وموقف طبيعي بالنسبة لعالم البيولوجيا العصبية ، الذي يهتم بالاسس المادية للحياة النفسية . ومن شأن ذلك ان يقود الى نوع من الزهد الذهني ، لان السيرورة المادية تتطلب اعادة النظر الدائمة ، والنقدية لمعتقدات الذات وانتماءاتها الفكرية . ويفرض ذلك صراعا مستمرا مع الرؤية الناقصة حيال دماغنا ووظائفه : إن الادعاء بأن دراسة الدمـاغ لا تنهض إلا بالكيمياء العنصرية يعني تجاهل تعقيد تنظيمه ، وتطوره ، ونموه ، في محيط اجتماعي خاص . علينا ان نبذل كل جهد ، ودائما ، من اجل استعمال العقل ، وان نناهض في الوقت نفسـه ما ليس بعقلي الانتماء ، اي ما ليس مرتكزا علـى المعرفـة العلميـة .

المصدر : مجلة « الاكسبرس » الفرنسية .

عمر أبو ريشة
في ذكراه السنوية الأولى

فواز خيو *

● إذا لم تستطع أن تكون إلهاً فكن نبياً ، فإن لم تستطع فكن إنساناً .

○ عمر ابو ريشة

● إننا لا نودّع اليوم سفيراً ما ، كثر هم السفراء الذين يأتون ويذهبون ، إننا نودّع في هذا الرجل القيم العظيمة للانسان .

○ نهرو

* فواز خيو : صحفي وشاعر من القطر العربي السوري .

حين يرحل النسر تنحني القمة بخشوع لوداعه لانه الوحيد الذي يجعلها ماهولة .

حين ينكسر السنديان تسري رعشة في أوصال الأشجار والعصافير ، والينابيع تكسر مجراها وتكفر بالسهول .

ايها الطيف الشفاف .. ايها الحلم الجميل المؤلم ..

كنتَ تمرّ كالشعاع نستضيء بنوركَ ولا نقدر أن نلمسكَ .

نستفيءُ بحضورك من حرّنا ، من حرقتنا .

ايها الودود .. كنتَ ثورة على القدر فكيف تغدر بنا ؟

كيف تصفعنا وتمضي هكذا ؟ ونحن بأمس الحاجة لقطرة ماء .

إلى فردوسك المنشود أستاذي الجليل .. واسلم للخلود ..

حـوار

نحن في صدد شاعر وديع المظهر لكنه بركاني الجوهر ، الطفل المسنّ الذي يعيدك الى البدايات ، الى البراءة المقدسة في الزمن الصنمي ، الطفل الذي يأتي من المدرسة فرحاً ليقول لإخوته : اليوم صفق لي الطلاب واخذت علامة العشرة وعمر أبو ريشة رغم المجد الكبير الذي أحاط به ، رغم التاريخ الكبير الذي يمثله ، وعلاقاته الواسعة مع كبار القادة والمفكرين في العالم ورغم الثروة الشعرية والفكرية التي خلفها وراءه فهو يفاجئك بهذه الروح الطفولية العذبة التي هي المحرك الاهم للابداع ، واللهب الجميل الذي تستوي عليه القصيدة دون أن يلطخها الشحار والدخان .. نهر من الحزن ، باقة من البارود والغضب، جبل لا نهاية له من الكبرياء والعزة بالنفس ، طفل في الثمانين هكذا كان عمر ابو ريشة الذي لم يبدل وجهه او حنجرته خلال حياته ، في الزمن الذي يقتني فيه الكثيرون أطقماً من الأوجه والمواقف ..

الحديث عن عمر مسؤولية كبيرة سيما وانه من القلائل الذين يشعرون بالظلم الفادح وهذا الظلم يتجلى في الحزن المرير الذي يوشح عباراته عندما يحكي عن غربته الطويلة وغيابه عن الساحة الادبية العربية لأكثر من ربع قرن .

عمر ابو ريشة لا يعترف بالمذاهب الادبية التي تقسّم الشعراء والمبدعين مثلما تقسم المدرسة التلاميذ على الشعب ، وفي اي مذهب يمكن ان نصنّف شاعراً كهذا ؟ فهو رومانسي الطبيعة ثوري النزعة كلاسيكي المظهر إنه بحق مذهب خاص في الشعر العربي مع العلم انه لا يؤمن بالاشتباكات الجانبية بين الشعر القديم والحديث ، يقول هناك شعر فقط أو لا شعر مهما كان ثوبه ولهذا ظل عمر معاصراً شاباً لا يشعر ان الزمن يستطيع استباقه أو الحدّ من طفولته وشبابه ولهذا سيظل عمر معنا خلال القرون القادمة .

● **ولادة القصيدة عند عمر :**

سألته مرة ما رأيك بشعر المناسبات ؟ قال : الحياة كلها مناسبات ، هناك شعر . وهو يعني ما يقوله فالمناسبات المتعارف عليها هي المناسبات التقليدية التي تجلب القصائد الرنانة والتي تكون غالباً طاقة صغيرة تدخل منها الفئران الى صالون الشعر الانيق وتقضم الكتبات التي يستريح عليها الشعراء ، وعمر يعرف ذلك لكنه يقصد ان الحياة لحظات متغيرة متواصلة وكل لحظة هي مناسبة بحدّ ذاتها ، وهو الصياد الذي يصطاد المناسبة .!. حدث عابر قد لا يكترث به احد ، يصطاده المبدع ليقدّم لنا حكمة جميلة وهكذا عمر ، كان في قريته نسر يستريح على قمة صغيرة واغترب عمر وغاب وحين عاد لم يجد النسر ، سأل عن النسر قالوا له عاد ، وكانت قصيدة النسر الرائعة :

اصبح السفح ملعباً للنسور	فاغضبي يا ذرا الجبال وثوري
إن للجرح صيحةً فابعثيها	في سماع الدنى فحيح سعير
هجر الوكر ذاهلاً وعلى	عينيه شيء من الوداع الاخير
ايها النسر هل اعود كما	عدت أم السفح قد امات شعوري؟

وذات مرة تركب بجانبه في الطائرة صبيّة اسبانية جميلة فيداعبها ويبتسم لها فتبتسم له ويسألها وتجيب وتكون هذه القصيدة :

كلُّ حـرفٍ ذلَّ عـن مرشـفها … نشـر الطيب يمينـاً وشمـالا
قلت يا حسـناء منْ انتِ ومـن … ايّ دوح افـرع الغصـن وطـالا
فاجـابت انـا من انـدلـسٍ … جنـة الـدنيـا عبيراً وظـلالا
وجـدودي الـح الـدهـر عـلى … ذكـرهم يطوي جنـاحيـه غـلالا
فنمـا المجد عـلى آثـارهـم … وتحـدّى بعـدما زالـوا الزولا

والتأمل عند عمر له فضاء فسيح جميل حيث يسرح خيالاته في كل مناسبة فياتي بعيد ثمين جميل .

وعلى الرغم من طبيعته المكهربة التي يفرّغ شحناتها في قصائده السياسية وعلى الرغم من القلق الدائم الذي يسيطر عليه جرّاء الوضع العربي المتداعي والخطر الصهيوني الذي يجعله دائماً جريح الكبرياء والشعور ، يضاف الى ذلك القهر الذي رافق حياته ، والتشرد المرير ، كل ذلك لم يثنه عن تخصيص مساحات كبيرة للتامل في الطبيعة ، في الوجود ، في سرّ الخلق ، والحكمة من وجود الانسان ، هذا التامل كان الباعث لكثير من القصائد والتقرّب من الله فالتصوّف ، ومن السهل أن تكتشف ان قلبه عامر بالايمان فاسمعه يقول : حين تشاهد امرأة جميلة تقول سبحان الخالق ، لا بد من وجود فنان مبدع وراء هذه الصورة :

عـرفتْ بكِ الله بعـد الضلالِ … فـدلَّ البـديـع عـلى المبـدعِ

ورغم الدمار والظلم الذي يعم الارض فقد احبّ هذا الكوكب لانه اجمل الكواكب في نظره وكان يدعو دائماً للسلام والمحبة والحفاظ على الارض من الدمار .

هنا يبيّن لنا ماهية قصيدته ولماذا يكتبها من خلال خطاب صغير لحبيبته فيقول :

تصفين ، اغنيتي رفات اجنحـةٍ … ما مستها في ليـالي شوقـه وترْ
نثرتهـا مـن جراحاتٍ مضمدةٍ … ومن منى ليس لي في جودهـا وطرْ
ما احزن الورد لم يُعرف له عبق … واضيع الغصن لم يقطف له ثمرْ
لا تسـاليني ما ترجـوه اغنيتي … بعض الطيور تغنّي وهي تحتضرْ

● آلية القصيدة عند عمر :

اذا كان القارىء يغرق في الجو العام للقصيدة وينساب مع الايقاع والقافية ويكاد يغفو احيانا في ظل جوقة القصيدة وهذا وينساب مع الايقاع والقافية ويكاد يغفو احيانا في ظل جوقة القصيدة وهذا يصرفه عن الانتباه والتدقيق في مفردات القصيدة وصورها ، فان عمر لا يسمح للقارىء بأن يأخذ هذه الاغفاءه فالقارىء يظل متحفزاً رغماً عنه ، يخزه الشاعر في كل جملة وينقله من صورة الى اجمل وكانه في معرض جميل ويخبىء له اروع اللوحات حتى النهاية ، ويطفىء الأنوار فيخرج القارىء مدهوشاً مبهوراً وهذا بيت القصيد عند عمر او « كبسة الفلاش » فيتركه في اغماءة ويمضي فرحاً لان سحره قد اخذ مفعوله ونراه يؤكد مراراً فيقول : البيت الاخير هو مذهبي في الشعر ، ويقول انا شاعر قصيدة ولست شاعر بيت ، وهنا يغمز من قناة البعض الذين تحتوي القصيدة عندهم بيتاً او ابياتاً قليلة من الشعر والباقي من الحشو ...

انه يمارس لعبة بريئة على القارىء او حيلة بريئة فهو يملك البراعة في الاستهلال والادهاش عند الختام ، يقدّم طعماً للقارىء يغريه فيتبعه وفي النهاية يفجر صرخته ، وقد ابدع فيها عمر ابداعاً لا مثيل له في الشعر .

يرسم في قصيدته منحنى ، يبدأ هادئاً ثم يرتفع الخط بشكل منحني حتى قمته وقبل أن يبدأ الخط بالنزول ينسحب ويترك القارىء يسقط سقوطاً حراً ، فقد يصاب بنوبة حزن او ادهاش او إغماء لكنه يصحو والنشوة تجري في عروقه .

الفيتها ساهمة شأردة تاملا
طيف على اهدابها كرّها تنقلا
وماج فيها رعشة حرى وشوقاً منزلاً
ناديتها فالتفتت نهداً وشعراً مرسلا
طوّقتها بالشذا مطوّقاً مقبلا
فما انثنت حائرة ولا رنت تدللا
ولا درت وجنتها من خجل تبدّلا
كانها في طهرها اطهر من ان تخجلا

* * *

معاذ خلال الكبر ما كنتُ حاقـداً ولا غاضباً ان عاب مسراي عائبُ
فكم جبل يقفو على النجم خدّهُ واذيـالـه للسـائمـات مـلاعبُ
نظرتُ الى الدنيا فلم الف عنـدها صـغيراً اداري او كبـيراً اعـاتبُ

* * *

● الصورة الشعرية عند عمر :

الصورة الشعرية عنده مجنحة شفافة مطلقة ، تحمل القارىء على جناحيها الى عوالم من ندى ودفء وضوء ، مثلما يحملك الطبق الطائر الى دنياه فيريك أضواءها ويعيدك مصاباً بالدّوار جراء هذه الرحلة فالصورة عنده لولب متحرك يشبه الموشور فهو لا يشفق على القارىء رغم رقته .. يعتمد التكثيف اللانهائي من خلال مزج الالوان التي تلهب روح المتلقي .

اخاف عليك من خوفي عليك
كانها في طهرها اطهر من ان تخجلا
والطيب يفضح فجوة النهد

واحيانا يلسعك بصورة داثئة ، هي صعقة متغلغلة في الأعماق لا نستطيع ان نعرف اللحظة التي عاشها حين ابداع هذه الصورة وهي بالتاكيد لحظة الخروج عن اطار الزمان والمكان ، لحظة السباحة والغوص في اعماق الاعمـاق ، لحظة التوهج الروحي والفكري ، لحظة اتحاد العقل الباطن بالظاهر ، لحظة اتحـاد الحواس لابتكار صورة شعرية او لوحة فنية او لحن موسيقي ، هذه اللحظات لا يعيشها الا الفنانون العظام ، أما الذين اشبعتهم القشور فليست لديهم القدرة او الرغبة في التوغل نحو الاعماق .

وكان طبيعياً ان يحب شعراء المرحلة الرومانسية في انكلترا مثل ووردزورث وكيتس وشللي وبايرون الـذين يعتبرون بحق اروع مجموعـة مرت عـلى الشعر الانكليزي .

« في القديم كان الانسان ينظر حيث يشاء يلاحظ وكان الارض مغطاة بطبقة من النور السماوي الشفاف ، اما الآن فان الانسان ينظر حيث يشاء لا يجد شيئاً من هذا وكأن مجداً ما قد ولى من الأرض ..

« وردزورث »

● **شاعر الموقف والموقف السياسي :**

كان عمر صرخة في الزمن الأخرس كان جحيماً على المتآمرين والمستعمرين ، وكان نعيماً على القلوب اللاهثة وراء الدفء والضوء في ذلك الزمن الذي يوضع فيه الانسان العربي تحت الرقابة وهو في رحم امه ، الحلم يمر على الرقابة والرقابة تمر على الرقابة ، كان عمر مظاهرة صاخبة تحمل لافتة مكتوباً عليها : اطلقوا سراح الوطن والارض ، مات عمر وظلت اللافتة مرفوعة في شعره الخالد ...

وهل هناك احد لا يذكر قصيدة امتي التي تشكل سابقة في الشعر العربي والعالمي ، حتى المتنبي لم يهج كافوراً إلا بعد مغادرته مصر ، وحادثة الكرماني مع القائد المغولي التي يذكرها التاريخ دائماً هي اقل من هذه القصيدة ..

لا يلام الذئب في عدوانه ... إن يك الراعي عدوّ الغنم

ويقف في رثاء صديقه بشارة الخوري يلقي قصيدته المشهورة ويعرّج على زعماء ذلك الحين فيقول :

خافوا على العار ان يمحى فكان لهم
على الرباط لدعم العار مؤتمر
ان حوربوا هربوا سبحان خالقهم
عاشوا وما شعروا ماتوا وما قبروا

وعمر كان شاعر الموقف ، كان إنساناً فوق كل اعتبار ، كان مخلصاً لحزنه وللجراح التي وشحت روحه وارضه ، ولا بد هنا من ذكر موقف تاريخي له وهو : كان دائماً ينتقد سعد الله الجابري رئيس الوزراء في اواخر الاربعينات ، وحين مات الجابري ، وقف وقال قصيدته المعروفة التي يقول فيها :

انا يا سعد ما طويت على اللؤم … جناحي ولا جرحت اعتقادي
يشهد الله ما انتقدتك إلا … طمعاً أن أراك فوق انتقادي
وكفى المرء رفعة أن يُعادى … في ميادين مجده ويعادي

● **شاعر الاناشيد الوطنية :**

بالرغم من أن تربتنا انجبت الكثيرين من الشعراء الذين نعتز بهم ، فمن الصعب ان نجد شاعراً اكثر التصاقاً بالأرض وضمائر الناس ومصيرهم ، شاعراً شمولياً عريقاً ، يعطي إمارة الشعر حقها من المجد والرفعة مثل عمر أبو ريشه ، والشاعر الحق امبراطور لا يصعد الى منصة التتويج على جنازير الدبابات ، ولكن مثلما يزف الدفء الى ارواح الناس ويؤمن بهم يؤمنون به ويزفونه الى منصة التتويج ، هكذا كان لوركا ، إيلوار ، بوشكين ، أراغون ، ريتسوس وآخرون ، وهكذا كان عمر ، وليس اكثر من القصائد التي لا نستطيع ان نرى مجدنا بدونها :

يا عروس المجد تيهي واسحبي … في مغانينا ذيول الشهب
كم لنا من ميسلون نفضت … عن جناحيها غبار التعب
شرف الوثبة ان ترضي العلا … غلب الواثب ام لم يغلب

تقضي الرجولة ان نمد جسومنا … جسراً فقل لرفاقنا ان يعبروا
يصفع الذئب جبهة الليث صفعاً … إن تلاشت انيابه والأظافر
إن للمجد دمعة حين تلقى … جثة الليث بين أيدي الكلاب
ما ارخص المجد إذا زارني … ولم يكن لي معه موعد

وكان النزيف عنده يلون كل عبارة من عباراته وكبريائه ففي هذه القصيدة القصيرة يختصر الكثير الكثير :

رب طوقت مغانيا جمالاً وجلالا
كيف نمشي في رباها الخضر تيهاً واختيالا .

وجراح الذل نخفيها عن العزّ احتيـالا
ردّها قفراءَ إن شئت وموجّها رمالا
نحن نهواها على الجدب إذا أعطت رجـالا

● **اخيرا :** مسك الختام او ختام المسك مع المرأة ..

بقدر ما كانت روحه متعطشة للوطن الآمن الجميل العادل الحر العزيز ، كانت روحه متعطشة للمرأة الوطن ، الام الحبيبة التي تستلقي روحه على ذراعها وتلقي اعباء التشرد والقهر والعذاب المرأة التي يأوي اليها من الزمهرير والاشباح والعواصف والغربة لكل هذا ، كانت المرأة عند عمر شيئاً سامياً قديساً ويقول : اعتز بأني لم اجرح شعور المرأة بكل اشعاري ، فقد احب المرأة روحاً وإنساناً وإن كنا لا ننكر عليه غرائزه فقد كان يعرف كيف يهذّب غرائزه ويجعلها وسيلة من أجل تصعيد الحب والرقي به الى درجة التصوف :

ما تعدّت ثورة الشوق الشفاها

وفي احدى قصائده يقول :

وســرنـا في جـلال الصمت ... فـوق منـاكـب الخلـد
وفي الحـاظنـا جـوعٌ ... على الحـرمـان يستجدي
وشـعرك مـائـج والطيـب ... يفضـح فجـوة النهـد
فكنـا غفـوةً خـرسـاء بـين الخـدّ والخـدّ

واعتقد أن المأساة الاولى التي حدثت في حياة عمر هي التي رسمت ملامح روحه وطبيعته ونظرته الى المرأة فعندما عاد الى بريطانية ليتزوج حبيبته بعد ان استأذن اهله وجدها مسجاة على النعش وهنا قال قصيدته الملحمية خاتمة الحب .

ما أرى الموت مطفئاً شعلة الحسن ... ولا بـالمـزيـل سـحر الجمـال
جفنك اليـوم مثل جفنـك بالأمس ... كسـاه الفتـور يتـم المثـال

فكانّ الإغماض فيه تعاسٌ | او حياء او نشوة من دلالِ
زادك الموت فوق حسنك حسناً | وكساه ببردةٍ من جلال
مثل ورد يرف بعد قطافٍ | وشهابٍ يشعّ إثر زوالِ

* * *

وكان عمر صاحب كبرياء جميل في التعامل مع المراة اذ لم يسمح لعاطفته ان تزلّه وهنا يخاطب امراة حاولت أن تعود اليه فيقول :

يكفيك مني ان تكوني | في فمي لحناً شقيا

ويخاطب أخرى فيقول :

فإن أبصرتني ابتسمي | وحييني بتحنانِ
وسيري سير حالمةٍ | وقولي كان يهواني

* * *

وحادثة تمر معه في نيبال وفيها اجمل ما يتجسد الكبرياء ، حيث يزور حبيبته متأخراً عن الموعد فتعبس في وجهه وتكون هذه القصيدة :

قالت مللتكَ اذهب لستُ نادمةً | على فراقك ان الحبّ ليس لنا
سقيتك المرّ من كاسي شفيت بها | حقدي عليك ومالي عن شقاك غنى
قالت وقالت ولم اهمس بمسمعها | ما ثار من غصصي الحرى وما سكنا
تركتُ حجرتها والدفء منسرباً | والعطر منسكباً والعمر مرتهنا
وسرتُ في وحشتي والليل ملتحف | بالزمهرير وما في الافق ومضُ سنا
ولم اكد اجتلي دربي على حدسٍ | واستلين عليه المركب الخشنا
حتى تراءى وراكي رجع زفرتها | حتى لمستُ حيالي قدّها اللدنا
نسيتُ ما بي ، هزّتني فجاءتها | وفجّرت من حناني كلّ ما كمنا
وصحتُ يا فتنتي ما تفعلين هنا ؟ | البرد يؤذيك عودي لن أعود انا !

خاتمة :

بعد هذا العرض هل تراني استطعت القاء الاضواء المناسبة على شخصية عمر وشعره ؟ ان النقد قد لا يضيف شيئاً الى شعراء من هذا الطراز واحياناً اقول يجب ان يضع الانسان كل النقد جانباً ويترك لنفسه فسحة كي يتأمل ويقرأ ويستمتع بهذا الشعر لان النقد وخاصة الاكاديمي منه يفقد المادة حرارتها ودفئها فليس هناك اروع من ان يقف الانسان امام لوحة جميلة يشبع روحه من دفء الوانها بعيداً عن التفسير والشرح وتحميلها ما لا تحمله ، او ان يسمع الانسان لحنا موسيقياً خلاباً بعيداً عن الناقد الموسيقي الذي يدخل في تفصيلات البناء الهرموني والطابقي الخ من المصطلحات فليس هناك اجمل من ان نترك الروح تهفو وتنساب حيث الدفء دون وسيط او سمسار وان كنت قد سمحت لنفسي الخوض في هذه الدراسة فليست اكثر من محاولة بسيطة في رد بعض الجميل لمعلم اشعر بالفخر والاعتزاز باني آخر الذين تعلموا على يديه فتأثرت به انساناً وشاعراً وكان مثلي الاعلى وايقونة تحفظني وتمنعني من السير في الطريق التي لا تؤدي الى الوطن او الى الانسان .

ذهب عمر وعزاؤنا انه سيبقى نخلة شامخة على ضفاف الوطن يفيء بظلها كل عشاق الشعر والوطن ، وسيبقى نبعاً يروي مساحات اليباس في صدورنا وأرواحنا ، وسيظل دائماً يوقد المشاعر والضمائر ويدفعها نحو ما يجب أن يكون .

* * *

آفاق المعرفة

نافذة على العالم

ترجمة وإعداد :
كمال فوزي الشرابي

آداب

●● مقابلة مع الشاعر والروائي الفرنسي جان كيرول J. CAYROL ، بمناسبة صدور طبعة لاعماله الشعرية الكاملة عن دار نشر سوي SEUIL باريس .

* كمال فوزي الشرابي : شاعر ومترجم وباحث من القطر العربي السوري ، من اعماله (قبل لا تنتهي) و (الحرية والبنادق) .

صدرت مؤخرا الاعمال الشعرية الكاملة للشاعر والروائي الفرنسي جان كيرول (المولود عام ١٩١١) في مجلد ضخم يحوي اكثر من ثمانمئة صفحة عن دار نشر (سوي) . في بداياته كان كيرول شاعراً يسائل الله ، ثم أصبح روائياً يعرف اين يجب ان يضع قدمه في طريق الحياة . ونادراً ما يتلفت هذا الكاتب الى ماضيه على عكس ماتوحي به روايته (الانسان في المرآة الارتدادية) . انه مسكون على الدوام بالنار ذاتها التي تدفعه الى الابداع والتي يتحدث بها الينا .

حديثه مباشر يخلو من التكلف او الحذلقة . فالكلمات التي تسيل من شق قلمه بشكل عفوي هي دوما الكلمات الافضل وبخاصة حين تقول بدقة ما نبحث عن ايصاله الى القارىء ... وهكذا فان شعر جان كيرول يجد صوره ، وهو ملآن بها ، في مناسمة الحياة اليومية ، ويتغذى من كل ما يحيط بالشاعر .

ومع ذلك فان جان كيرول لم يكن قط شاعراً بسيطاً الى حد السذاجة . واذا كان يجب انتظار نهاية الحرب لنرى في اشعاره تاريخ العالم والفظائع التي ارتكبت فيه ، فان بعض مجموعاته الشعرية المنظومة قبل عام ١٩٤٠ توقظ فينا اصداء محذرة ومنذرة ، بل ان الشاعر ليؤدي فيها دور التوعية وحتى دور الحراسة . يقول في مجموعته (العصر الذهبي) الصادرة عام ١٩٣٩ :

« ان مدّ الجحيم يخشى صُراخي » .

ونلمس آلام الشاعر مع الحياة ، وخصوصاً بعد ان مر بمعسكرات الاعتقال النازية ، في رواياته اكثر مما نلمسها في قصائده . وتقدم لنا القصائد احياناً علامات تعبر عما في نفس الشاعر من تعلق بالحب والوقائع الطبيعية . ونقع في هذه القصائد ، بدءا من الخمسينات ، على عالم يزخر بالازهار والنباتات والحيوانات والثمار ... انها لفترة هدوء واستقرار بعد حقبة العنف والغضب . ثم يتوقف كيرول عن الشعر مؤقتا لينصرف الى تأليف الروايات وذلك ما بين كتابيه (لاجل جميع الازمنة ، ١٩٥٥) و (يوميات شعرية ، ١٩٦٩) .

وحين يعود صوت الشاعر الى الانطلاق ، فاننا نلمس فيه تحمساً جديداً لثورة ايار ١٩٦٨ ، مع ان الجراح القديمة ما زالت تتفتح احياناً . يقول :

« ستمر العاصفة من ثقوب ماضيَّ / على ذاكرتي ان تتعمى من جديد »

وكان الشاعر احب ان يستذكر او يبدع بشكل جديد ما مر به من احداث وانفعالات خلال خمسين عاما ، فاصدر مجموعته الاخيرة (القصائد ـ الفاتيح) قبل (الاعمال الكاملة). وهاهي مجموعته غير المنشورة (من يوم ليوم) مسكونة بابتسامات تنبض بالحياة اكثر من اي وقت مضى ، وانها لابتسامات شاعر سعيد لكونه مازال في صحبة الكلمات ، حتى لو كان يقطب جبينه احيانا غضب البشر .

كتب جان كيرول في الصفحة الاخيرة من هذه المجموعة بالانكليزية : ((**انا في نهايتي كما كنت في بدايتي**)) . ومازال في الثمانين من عمره يعشق الشعر ويعيش للشعر .

● **ان تجمع في مجلد واحد اعمال كاملة لخمسين عاما ، هل هذا شيء مثير ام مرعب ؟**

ـ مثير . حين تسلمته بكيت . وحين اعدت قراءته ـ ذلك لاني لا اعيد ابدا قراءة ما كتبت ـ وجدته جيدا . عمل يستاهل الجهد والعذاب ...

● **الم يخطر ببالك ان تنتقي مختارات من قصائدك ؟ قلت عن قصائدك الاولى انها كانت ((تهديلات شعرية)) . الم تكن على الدوام رفيقا ببداياتك !**

ـ نعم ، هناك مجموعات لم ادرجها في (الاعمال الكاملة) .

● **قررت اذن ان تبدا في وقت ما ...**

ـ نعم ، في عام ١٩٣٥ .

● **ماذا كان يوجد من قبل ؟**

ـ كتابان ، طبعا على نفقة المؤلف .

● **وخصوصا ذلك الكتاب الذي سددت نفقاته من بيعك دراجتك وآلة تصويرك ؟**

ـ نعم . ومازلت املك نسخة سرقتها من احدهم . اما بقية النسخ فقد احرقتها لعدم جودة ما تضمنته . ثم اسست دارا للنشر (نحل وافكار) وفيها نشرت كثيرا من النصوص . نصوصي انا بالطبع ثم نصوص الآخرين ... انا هاو ولست محترفا .

● **فاذن قبل ١٩٣٥ كان لك عرابون شهيرون كجوزيف دلتيل DELTEIL وجول سوبر فييل ...**

ـ نعم ، ولي مراسلات طويلة مع دلتيل ... وكنت ارى ايضا الشاعر فرنسيس جامس JAMMES . عندما كنت في السابعة عشرة من عمري قدمت لرؤيته في بوردو ، فقال لي : **« اذا مت فانت الـذي ستعنى بأولادي ! »** ، فنظرت اليه وقد اصابني الذهول !

تأثرت كثيرا بسوبر فييل وكافكا وريلكه ، وبخاصة كافكا . وكثيرا ما كتبت عن الحرب في عام ١٩٣٩ ، اي قبـل الحرب تماما ، وكتبت الى ماكس برود ليرسل اليّ برسوم كافكا عن الآلة التي تقتل الانسان ... لكني لم اقرأ كافكا الا في معسكرات الاعتقال ، في موتها وزن ، حيث قلت لنفسي : **« آه ! ها انذا اخيرا مع كافكا ! »** ، وتلقيت ضربة عنيفة بعقب بندقية ففهمت ... ولطالما اهتممت بكافكا وخصوصا ب (المستعمرة الاصلاحية) التي كانوا يسمونها آنذاك (سجن الاشغال الشاقة) للبحث عما يريد قوله .

● **هل كان لقاؤك بالثورة السريالية سابقا لقصائدك الاولى ؟**

ـ نعم ، كان سابقا لها . كان عمري ست عشرة او سبع عشرة سنة . ولكن تأثير السريالية كان عظيما ! هناك اربع وقائع لها اهميتها الكبرى في حياتي:

هناك اولاً الثورة السريالية طبعا . وثانيا ذهبت لحضور محاضرة في كندا ، وفجاة اقبل نحوي عالم فيزيائي كبير ، وقال لي : **« كيرول ، اننا ندعوك الى الغداء . نحن ، علماء الفيزياء ، نعقد مؤتمرا ونريدك انت بالذات »** . وانا الذي لا اعرف شيئا في الفيزياء ... كان امرا في غاية الاهمية لديّ ان أوجد مع جميع هؤلاء الفيزيائيين من انحاء العالم . ثم صنعت لهم سلسلة كتب اطلقت عليها اسم « حدوس INTUITIONS » .

ثم صنعت في دار سوي سلسلة كتب اسميتها « الكتابة » ، وكنت اعمل وحدي واتلقى بين ستمئة وسبعمئة مخطوط في السنة . كان عملاً مرهقا . وكان عندي حاسة تمييز فنشرت كل شيء . ولا آسف على نشر اي كتاب مادمت على علاقة دائمة بدار سوي . ولقد وجدت لهم عددا لا بأس به من الكتاب ...

● تحدثت عن وقائع اربع : السريالية ، « حدوس » ، « الكتابة » ... فما هي الواقعة الأخيرة ؟

ــ شعرت بانفعال شديد عندما وجدت نفسي ذات يوم ، في قصر الاليزيه، امام الجنرال ديغول واندره مالرو يقول له : « **سيدي الجنرال ، اقدم لـك كيرول** » . تلك هي الاشياء التي اتذكرها اكثر من سواها . ثم كانت ثورة ١٩٦٨ ...

● سنعود اليها . لنتحدث اولاً عن الشعر ، وهو احد اعظم الشعارات في حياتك قبل الرواية .

ــ نعم ، اضف الى ذلك انني سانشر منه ايضا في العام القادم !

● يحس الانسان ان هذا الشعر يستدرجها اعمالك كلها . هل احسست به على هذا النحو ؟

ــ كلا ، على الاطلاق . اكتب لانني لا ادري ماذا اصنع . اكتب كما لو انني استعمل فرشاة اسناني او كما لو انني اغسل يديَّ . انا لست محترف كتابة على الاطلاق ، انا هاو ــ هناك « هوي » التي تعني « احب » في كلمة « هاو » . واذا كنت اكتب فلكي استنجد ، لكي اكون مع الآخرين . الآخرون هم الذين يهمونني .

● منذ مجموعاتك الاولى يوجد عددٌ من الموضوعات ...

ــ لا افهم حين يتحدثون عن الموضوعات . غالبا ما تحدثوا عن الكاثوليكية بينما المقصود هو مسيحية وثنية !

● صحيح ، الكلمة الاولى في هذا الكتاب ــ المجلد هي « يا إلهي ! » . انك تتوجه بحديثك الى الله ولكن بطريقة فيها شيء من العتاب والتمرد . لديك شيء من الايمان الشديد والشك الشديد في الوقت ذاته .

ــ كنت اتحدث هكذا . ومــع اشخاص كالشاعر المتدين بيير ايمانويل EMMANUEL كنا نتحدث عن الله كما لو اننا نتحدث عن جوبيتر !

● **هل كان الله مخاطباً مريحاً لانه لم يكن يجيب ؟**

ــ نعم . كنت احب كثيراً نموذجاً من الاشخاص الذين لا يتحدثون البتة، وهو بريس باران BRICE PARAIN الذي كان فيلسوف الكلام . كنا نذهب لنتناقش في مشرب صغير قرب منشورات غاليمار . شرح لي باسهاب أن على المرء ان يحاور نفسه مادام المسيح قد مات ، وانه لا يوجد مخاطب جدير بأن يوجه المرء حديثه اليه .

● **هل لهذا السبب شعرت بان الليل حضوراً قوياً في اعمالك من بدايتها الى نهايتها ؟**

ــ نعم ، وهذا يشكل لديّ كلمة ــ مفتاحاً . لديّ كلمات في غاية الاهمية ككلمة « الموت » . هذا غريب ، ما اكتبه هو نوع من التنبؤ ، من الشعور المسبق . وكنت اعلم انه يوجد اناس سيمتعضون لما كتبته ، ولذلك الفت (الانسان الاخير) .

● **وفيما يتعلق بالليل ، بشكل خاص ؟**

ــ هناك كلمة « ليل » وكلمة « موت » ، وغالبا ما تتكرران . شيء غريب ، لديّ حس بالدعابة المفجعة . انا متشائم سعيد ، هذا هو المقصود ! ان اعقد ما يجابهه المرء هو الشيخوخة . اتقدم في السن ولكني لا اشيخ . هذا امر شديد التعقيد ...

● **في عبورك السنين عبرت ايضا احداثا رهيبة ، وخصوصا الحرب ...**

ــ عرفت الحرب جيداً ... ولكني لم اتألم . والله وحده يعلم ما إذا كنت قد ضربت واهنت ، ثم ضربت واهنت ، ولكني لم اتألم قط . انا انسان نشيط ، وكثيرا ما مارست الرياضة ، وكنت قويا جدا في السباحة ، ومقبولا في كرة المضرب . وكثيرا ما مارست رياضة التخييم . وحين وجدت ان عليّ ان انام على الاسمنت لم اهتم ، بينما كان الآخرون في وضع رهيب .

● **لكنك عبرت مع ذلك اوقاتا صعبة جدا ...**

ــ بلى ، صعبة جدا . فقدت اخي ... لكني انا كنت اعلم انني سأعود. وكنت اعلم انني لا استطيع ان انكر معرفتي باخي .

● **هل كان يكتب هو ايضا ؟**

ــ نعم ، كتب قصائد . ثم انه كان خصوصا احد مكتشفي البنيسيلين. ولقد مات حتما بسبب اعمال التخريب التي لم يستطع النازيون تحملها .

● **بعد ان عدت كتبت قصائد وروايات ايضا .**

ــ كتبت كيفما اتفق ... وجاء الكاتب السويسري البير بيغان لرؤيتي وقضاء عدة أيام عندي وسألني ماذا اصنع . اجبت : « **اكتب شيئا ما ...** ». كنت على علاقة طيبة مع جميع الناس . وكدت ذات يوم ان اغدو شيوعيا . وما منعني هو ان الشيوعيين حظروا عليّ الدخول في سلسلة مراتبهم . لكن بول ايلوار كان احد كبار أصدقائي ، وهو انسان له قيمته الكبرى واهميته العظمى .

عند العودة من المعسكرات جاء اناس لا اعرفهم للبحث عني في القطار ، واخذوني الى بوردو حيث اقيم . قرعت جرس الباب . فتح ابي . نظر اليّ وقال : « **ماذا تريد ، يا سيدي ؟** » كانت صدمة رهيبة ! في تلك الحقبة كنت مخطوبا ، وفي خلال ثمان واربعين ساعة دمر كل شيء . لذلك ذهبت الى باريس ودمرت بدوري كل شيء ، كل شيء ! حتى حين حصلت على جائزة رينودو RENAUDOT في عام ١٩٤٧ كنت مع بعض الاشخاص وفجأة تركتهم وانطلقت . كنت اريد فقط ان اكون وحدي ... وفي عام ١٩٥٨ يظهر ان لا احد كان يستطيع الاقتراب مني حسب أقوال الناس الذين يعرفونني ...

● **في سنوات مابعد العودة كتبت في احدى قصائدك : « تدق اجراس التاريخ اعنف دقاتها » ، وهذا صحيح لان التاريخ في قصائدك يقبل فجاة ، ومن دون ما اختيار منك ، انه هنا .**

ـ التاريخ الصغير للتاريخ ! كتبت ضد التاريخ . وقد استقبل ما كتبته بشكل سيء . وكان لديّ أكثر مما يكفيني من العاملين في المستندات والمحفوظات ... على المرء ان يكون انسانا حاضرا في الوقت الحاضر . عشت كثيرا حرب الهند الصينية ، وحرب الجزائر ، وكانت ثورة ٦٨ امرا جوهريا . اشتركت في الهجوم مع المتظاهرين ، وقفت للظلم بالمرصاد ، طبعت مناشير ثورية للطلاب ...

● بين الوقت الذي عدت فيه من معسكرات الاعتقال وعام ١٩٥٥ ، الوقت الذي توقفت فيه عن كتابة الشعر لمدة ثلاثة عشر أو اربعة عشر عاما ، كنت تحاول ايضا ان تعثر ، كما يبدو ، على شيء ما يدوم رغم كل شيء .

ـ نعم ، عانيت كثيرا من المعسكرات . احد اصدقائي ، وهو عضو في الغستابو ، هو الذي استجوبني . ومن البدهي القول ان ذلك كان في منتهى القسوة ، بلى في منتهى القسوة . ولكني عشت المعسكرات كشيء غير واقعي ، ولذلك كتبت كتابا يبدو لي مهما جدا ، وقد اكتشفه كل من اندره بريتون وجان ـ بول سارتر وهو (عازار بيشا) . وقد نشرت في مجلة سارتر (الازمنة الحديثة) ، والقيت محاضرات بطلب من بريتون ...

● كنت انسانا جريحا يتأمل جرحه ؟

ـ انا انسان حي ، وقد بقيت على قيد الحياة ... ولحسن حظي وجدت علاجا ذا مفعول قوي . ولكن منذ اربعين عاما عشت كوابيس مزعجة جدا ! حتى حين كنت اشعل الضوء ، كانت الكوابيس تبقى ...

● هناك آثار للحرب حتى في قصائدك الاخيرة .

ـ نعم ... ولكني لم اكتب عن المعسكرات لان ثمة كتابا رائعا يتحدث عنها (هو الجنس البشري) لروبير انتيلم ANTELME . وقد وجدته كافيا .

● امر غريب ! تتحدث عن الشعر وغالبا ما تتحدث عن الاشخاص . هل الاصدقاء ـ وهم موضوع آخر منذ البدايات ـ هم أهم من الكلمات ؟

ـ الكلمات مهمة أيضا كالاصدقاء ، وذلك لان الكلمات تعطينا كائنات . اتكلم فأنا اذن موجود .

● **في قصائدك كما في رواياتك تعبر عن عزلة العودة من المعسكرات . على انك كنت قادرا على تحويل هذه العزلة الى شيء ما . هذه العزلة إذن هي في الوقت ذاته حقيقية ومزيفة ، أليس كذلك ؟**

ـ كلا ، كانت عزلة حقيقية ، وكان الامر في غاية المشقة . السينما هي التي انقذتني . جلب لي المخرج كريس ماركر MARKER كاميرا ، وحين بدأت اصور احسست أنني استطيع بالفعل ان أغدو انسانا آخر .

● **بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٩ لم تنشر اية قصيدة . هل السينما هي التي حلت محل الشعر ؟**

ـ نعم ، كنت اعمل كثيرا في السينما . وكنا ننطلق انا وكلود دوران DURAND لصنع افلام قصيرة . لا يمكن الآن صنع أمثالها لانها تكلف غاليا جدا .

● **ومع ذلك ، وقبل ان تتوقف بقليل عن كتابة الشعر موقتا ، بدأت بوضع تعريف لفنك الشعري وخصوصا في استهلالات مجموعاتك ك (الكلمات هي ذاتها مساكن) . وقلت انه يجب على الشعراء الا يكتبوا شعرا مبهما ...**

ـ انا مفيد من اجل أن يكون الشعر مفيدا . ويقوم منهجي في التفسير الادبي على التواصل . تسمح لي الكلمات ان اقول الاشياء . ولذلك واصلت الكتابة خلال عشر سنوات في احدى الصحف . توقفت الآن الا فيما يتعلق بفرنسيس بونج PONGE الذي كتبت عنه مؤخرا احدى المقالات .

● **كنت في الواقع وعلى الدوام صحفيا .**

ـ بلى .

● **كيف ينتظم عمل كاتب يكتب الشعر والرواية ، ويعمل في السينما ، ويعمل ايضا في الصحافة ؟ كيف تراك تنتقل من مجال الى آخر ؟**

ـ الادب هو الاعماق في فكري . يجب ان يكون في ذاتي تنظيم ادبي خارق اجهله . لذلك كان من المستحيل ان اقول لك لماذا اكتب . ومن مزايا هذا التنظيم الداخلي لديّ مثلا ان الضجة لا تزعجني .

● اذا كنت قد مارست نظم الشعر ، كما تروي لنا في كتابك (كان هناك ذات مرة جان كيرول) ، فان ذلك قد تم بسبب حبك للتنويع في كتاباتك ...

ـ هذا صحيح .

● ... وتقول ايضا ان بعض الاغاني هي لديك اهم مـن بعض الكتب المعروفة جدا . هل يمكن ان يكون الجانب التكراري في الاغنية هو الذي قادك الى الشعر ؟

ـ نعم ، واشعار اندره بريتون : « **جزيرة البلور / حيث الحب يشبه/ القلق المنطفىء / في دم الشمع / في حداد الصيف** » . كل شيء يأتي من هنا . القلق المنطفىء ، دم الشمع ، حداد الصيف ... يمكن القارىء ان ينظر جميع عناويني : (برد الشمس) ، (مدى ليلة) ....

● وما هو مكان الاغنية ؟

ـ كتبت عددا لا يحصى من الاغاني .

● بعض قصائدك يحمل عنوان « اغنية » . هل هي اغان حقيقية مـع موسيقا تدور في بالك ؟

ـ نعم ، صنعت خمس عشرة اغنية وبخاصة للمغنية الفرنسية الشيرة جولييت غريكو GRECO ، ولإشخاص لا يقلون عنها شأنا ....

● وهل تعتقد ان هذه طريقة شعبية لصنع الشعر ؟

ـ هناك اغنية واغنية ، كما تعلم .... انا مولع بالاغنية . كتبت خمس عشرة اغنية ، ولكنني لم اعد اتذكرها . اعرف الغناء واعرف تاليف الموسيقا .

كانت أمي عازفة بيان خارقة ولا ادري لماذا لم اتعلم العزف على هذه الآلة . لم اتعلم الموسيقا في حياتي ولكني استمع اليها طوال الليل . اغان محلية ... ولكنني لا استسيغ الروك كثيرا .....

● هل لتذوقك الاغنية علاقة بشكل شعرك ، هذه القافية الفنية ، الكسلى قليلا ؟

ــ الكسلى قليلا ، صحيح . وآمل ان يسكبوها في قالب موسيقي . هذا ممكن .

● اية اهمية تمنحها لشكل قصائدك ؟ هل تخضعها للاوزان العروضية ؟

ــ لا ادري ....

● والقافية ، ولو كانت فقيرة ، هل هي طوع يديك ؟

ــ القافية تأتي وحدها او انني اتسلى بها . مثال : اذهب الى بوردو مرة في الاسبوع ، وبعد ان استقل القطار ابدأ بكتابة قصيدة انهيها فيه ، فانا اكتب على الدوام على ضجة العجلات ودويها . استطيع ان اكتب قصيدة في اربع دقائق ! لا ادري من اين يأتيني ذلك . اقول لنفسي ان لدي تنظيما خارقا يتدبر امر كل شيء .

● كتبت في مكان ما : « القصيدة تشعل النار في كل كلمة » . صحيح انك تتناول الكلمات حيث توجد ، وانك لا تبحث عن الكلمة النادرة ، حتى انك لا تملك الا مفردات فقيرة !

ــ الاحظ ذلك عندما اذهب الى باريس ؛ اصغي الى المحادثات والتقط ما فيها ؛ حتى ليبدو الامر وكأنه مخترع !

● قبل ان تتوقف فجاة عن كتابة الشعر في عام ١٩٥٥ ، تحدثت عن « الشعر المنزلي » في كتابك (لاجل جميع الازمنة) . هل مازلت تتمسك بهذا الشعر ؟

ــ نعم ، انه اكثر الشعر اهمية لدي . ان اكون مفيدا ، سهل القراءة . يجب الا يتورط الشاعر في ابحاث خارقة ! كتبت قصائد للاطفال ، وهــذا ما يهمني . والشاعر هو الشيء الوحيد الذي لا يهمني !

● **في المجموعة ذاتها تصف مطولا ما هي القصيدة المثالية لديك . (كيف نحسن استعمال الشعر) نص من ثلاث عشرة صفحة ! هل تعتقد انك بلغــت هذه القصيدة ؟**

ــ لم اطرح على نفسي قط هذا السؤال ! قلت ذلك لمجرد العلم ما اذا كانت الكلمات لا تذبل كالازهار . هذا هو المقصود . لكن الشعر يتعذّب ويظلم يوما بعد يوم . عرفت جيدا رينه شار CHAR ، وكتبت عنه . ما من احــد يتحدث عنه الآن . يتحدثون اكثر عن لاعب كرة قدم من الدرجة الثانية ! ما هو غريب على الرغم من كل شيء انني اتلقى كثيرا من الرسائل حــول قصائدي ، وخصوصا من الاجانب الذين يهتمون بالشعر .

● **هذا يطمئنك الى ان الناس يحبون الكلمات ؟**

ــ نعم . حتى لو كانت الكلمات من اي نوع ! اجمل جملة سمعتها كانت في احد المطاعم من شخص كان يأكل محارا . قال : « **لا احب المحار لانه مملوء بالماء !** » . هذا هو الشعر لديّ . اجد هذه الجملة بالغة الروعة . لو انني استطيع كتابة مثلها في حياتي !

● **حين يقرأ الانسان كتبك البعض منها تلو البعض الآخر ...**

ــ يجب الا يقرأ كل شيء دفعة واحدة ! انا لا اقرأ هكذا . افتح الكتاب على صفحة واقول لنفسي : « **ترانى حقا كتبت هذا ؟** » . ولو اعطيتني مبلغــا كبيرا من المال على ان اتلو عليك نصا من نصوصي لما استطعت . وانا عاجز ايضا عن ان الخص لك رواية من رواياتي .

● فاذن اذا قرأ المرء مجموعاتك البعض منها تلو البعض الآخر يعثر فيها على اصداء متشابهة من مجموعة الى اخرى ...

ــ اذا كنت اكتب فلكي احيا ، ولكن اكون ، ولكي اغدو غير قابل للتدمير . الوجود لديّ شيء في منتهى الاهمية وكذلك الحياة والطفل ...، ليس لديّ اطفال . حين كان بوسعي ان احصل على طفل كنت سجينا . اهتم كثيرا بشؤون اطفال امريكا الجنوبية وبوغوتا وافريقيا وسواها ... الاطفال عندي هم كل شيء .

● **اكثر من الكلمات ؟**

ــ نعم ، لو وجب عليّ أن أنقذ طفلا مقابل ان احرق كل شيء لحرقت كل شيء . اكتب لطفل ... لطفل عرفته في اثناء وجودي في معسكر الاعتقال . لم يكن يتحدث الفرنسية، كان يرتجف من الحمى. كان مسموما. لاجل هذا الطفل انا أكتب ... مازلت اتذكر هذا الطفل واقفا امامي . عثرت مؤخرا على قصيدة (مازلت اسمعه) وهي مهداة اليه . كان ذلك فوق احتمالي . وسيظل دوما فوق احتمالي ان أرى ان هناك اطفالا تساء معاملتهم، ويموتون... شيء رهيب!

● **بين الاصداء التي تسري من مجموعة الى اخرى هناك عنوان من عام ١٩٥٢ (الكلمات هي ايضا مساكن) ، ثم كتبت في عام ١٩٥٥ : « كل قصيدة هي اقامة في منزل » تراك تتلاعب بالكلمات ؟**

ــ نعم ، اتلاعب دوما بالكلمات . يمكن التلاعب بها مع انها جدية . المحادثة التي يمكن ان احصل عليها مع الكرام الذي سيأتي لرؤيتي هذا المساء هي ايضا مهمة . لست كاتبا . انك لترى امامك انسانا عاديا . ما اتمناه هو أن استطيع العيش قليلا ايضا .

● **من الصعب التصديق انك لست كاتبا .**

ــ انا اصدق ذلك . اقول لك هذا ما دمت في سبيل اعادة قراءتي منذ ثلاثة ايام . القصائد ، استطيع كتابة قصائد عندما اشاء ، وحيثما اشاء ، ولديّ منها كومة هنا . ولكن تجب اعادة النظر فيها لانها كتبت بسرعة كبيرة . المهم هو الاختراع ، المخاطرة ، المغامرة ... هناك اناس يبحثون عن الحلم في المخدر ، اي ان ما يبحثون عنه قبل كل شيء هو ان يحلموا .

● **الحلم بدل الحياة ...**

ــ نعـــم .

● **هل كنت دوما تفضل الحياة على الحلم ؟**

ــ اردت ان احيا لاحلم . انا منحدر من اسرة رائين . كانت امي رائيــة خارقة لانها تنبأت بموتها في عام ١٩٧٠ او ٧١ . تراءى لها انهــا موجودة في عيادة ، ثم رحلت بعد ستة اشهر من رؤياها . لكني نادرا ما اشاهد التلفاز . افكر في الاطفال الذين يشاهدونه ، ليس هناك سوى دماء تسيل ...

● **تنظر الى الاحداث الجارية او احداث الساعة نظرة مؤلمة . وفي نهاية كتابك الاول (يوميات شعرية) كتبت : « بصبر اراكم القذارة / اخرج منها ملوثاً ، منهوباً ، مدمراً ، / ومع ذلك كان لديَّ ما يكفيني من الصحارى / والادغال الشخصية والتوحش » . لماذا وجب عليك ان تمر ايضاً بعذاب العالم ؟**

ــ عشت حرباً . وهنا ، في عام ١٩٦٨ ، عشت ثورة . ولا تشابه بينهما .

● **ولكن ألم تسأل نفسك لماذا عدت الى الشعر عن طريق الاحداث الجارية؟**

ــ كلا ، لم اطرح على نفسي مثل هذا السؤال . كل ما افعله هو ان اجد اجوبة عن اسئلة لا اعرفها . واحد الاسئلة التي لا اعرفها هو سؤالي عن نفسي اي عن معنى حياتي . لكني لا استطيع ان اعطيك الا اجوبة . لا اعرف السؤال ماذا يكون . الادب ، وهذا هو الشيء المقلق والمزعج ، يطرح على ذاته اسئلة . لا مجال لطرح اسئلة . وما من احد يجبرك على الكتابة ، وهذا هو الشيء الفظيع!

● **لماذا عدت اذن الى كتابة الشعر في عام ١٩٦٨ ؟**

ــ حاولت ان اكتب نثراً في عام ١٩٦٨ . ثم قلت لنفسي ان ما كتبته شيء تافه فمزقته . فعلت ذلك بدافع الحدس . وغالباً ما اكتب بهذا الدافع فانا انسان طائش . افعل الاشياء بلا تفكير ، ولكني افعلها . افعل اشياء مجنونة . حتى القصيدة عندي طائشة .

● وحتى غياب القصيدة ؟

ــ نعم . يمكنني ان استغني عن كل شيء !

● ومع ذلك كتبت في ((القصائد ــ المفاتيح)) ان الانسان بلا قصيدة ينقصه الهواء . ولا يمكن الاستغناء عن الهواء !

ــ لا يمكن ، صحيح .

● فاذن لم تعد تكتب شعراً ؟

ــ في الماضي كنت لا استطيع الاستغناء عن الشعر ، اما الآن فاستطيع . لا شك في ان من يكتب الشعر الآن هو انسان مجنون !

● وعاد اليك هذا الجنون في انكسار ايار ١٩٦٨ ؟

ــ نعم ، عشت تلك الفترة بمنتهى العنف ... كنا مع (منشورات سوي) نصنع مناشير ، وكنا نعيش كابوساً . عرفت ان تغيير المجتمع قد بدا ، ولكنه مجتمع منحدر . لو شاهدت التلفاز قليلا لتاكد لك ذلك ! ولكن على الناس ان يتسلوا ، ان يخاطروا ...

● هل كتبك هي العاب ايضا ؟

ــ هي العاب ولكن المجتمع فيها هو اللعبة المقصودة . انها ليست العاباً اجتماعية ، وهذا هو الفرق .

● نلاحظ احياناً في رواياتك بذوراً لروايات تالية ...

ــ تعرف انني لا اكتب بيدي بل اضرب على الالة الكاتبة . لا اصنع مسودات . اعرف ماذا يعني الشطب ولكني اجهل التسويد . هكذا تسير الامور ...

● هل عملت دائماً على هذا المنوال ؟

ـ نعم ، عندي تهيج في الاعصاب ولعلي لهذا لا اكتب . وهو تهيج رفض اي طبيب معالجته . قال لي طبيبي الحالي: «**كيرول ! لن امس تهيج اعصابك!**». في هذا الصباح رأيت رؤيا لمجرد ثانية : يداً تمتد على الحائط امامي ... لا استطيع تفسير ذلك . القصيدة تشبه هذه الرؤيا . هناك يد تمتد اليك ، تلامسك لثوان ثم تختفي ...

● هناك ماضيك كله بجراحه التي لم تندمل ... ولكن لديك ايضاً فتيل اشعال ، وتمرد . تقول : « احتاج الى ان احتد » ، لكان هذه الطريقة هي طريقتك في القبض على الاشياء والحوادث . اما زلت على طبعك هذا ؟

ـ نعم ، والوقت كله . استطيع ان اغضب . لا يكفي المرء ان يتقدم في السن ، بل يجب الا يشيخ . المشكلة كلها هي في ان يبقى على حاله ، وان يتوصل الى عدم ترك الكلمات تذبل في يديه او تضيع منه ... هناك جملة تقول : « **يجب ان نصنع من الكلمات الشائعة كلمات غير مستعملة** » . وهذا هو تماماً ما افكر فيه ...

●● الكاتب الالماني الكبير ارنست يونغر E. JUNGER يكتب عن غبرييل غارثيا ماركيز وروايته الاخيرة (الجنرال في متاهته) .

يعتبر الكاتب الالماني الكبير ارنست يونغر (المولود عام ١٨٩٥) احد الامثلة الاكثر نموذجية في العالم عن هؤلاء الكتاب الذين تؤلف المشكلة الجوهرية لديهم الحفاظ على حقوق الفرد وعلى القيم العالمية للمجتمع . ان يونغر يؤمن بالوطن الناهض وبالفرد الذي يبنيه . وفي كتابه (العامل) يعلن عن حضارة المستقبل . شخصيته قوية ، واسلوبه ممتاز ، وكان له وما زال تأثير كبير في عدة اجيال من الكتاب .

وها هي منشورات جوليار الفرنسية تعيد في مجلد ضخم نشر مؤلفه (يوميات الحرب) ، وهو يشكل ثلاثة من اربعة كتب تابع فيها الكاتب الاحداث والوقائع التي جرت بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ اي في اثناء الحرب العالمية الثانية . وكانت

هذه الكتب قد صدرت عن دار نشر كريستيان بورغوا تحت عنوانين (حدائق ودروب ، ١٩٣٩ — ١٩٤٠) و (يوميات باريسية أولى وثانية ، ١٩٤١ — ١٩٤٥) حيث نجد يونغر يشترك في الحرب على خط سيغفريد ، وفي الريف الفرنسي ، ويجد نفسه وقد احتل بلاداً وعاصمة كان يزداد شعوره مع الأيام بانه ينزل عليها ضيفاً لا محتلا .

اما الكتاب الاخير من هذه اليوميات لدى منشورات بورغوا وعنوانه (الكوخ في الكروم ، ١٩٤٥ — ١٩٤٨) فهو يتحدث عن تدمير المانيا وهزيمتها واحتلالها ، كما يعطينا معلومات واسعة ودقيقة تتعلق بعدة احداث هامة ومنها حدث المؤامرة ضد هتلر التي كان يونغر مشتركا فيها .

يتابع ارنست يونغر ، الذي احتفل بعيد ميلاده السادس والتسعين هذا العام ، كتابة يومياته بعد كتابه الذي صدر مؤخراً عن دار غاليمار وعنوانه (سبعون تمحي) ومنه اقتطفنا هذا المقال الذي كتبه عن غبرييل غارثيا ماركيز. ومع أن يونغر لا يتحدث عادة عن الكتاب المعاصرين ، الا انه خالف القاعدة هذه المرة وكتب عن الكاتب الكولومبي العالمي وعن روايته الاخيرة (الجنرال في متاهته) .

ماليا (جزيرة كريت) ١٦ ايلول ١٩٩٠

انهيت اليوم قراءة (الجنرال في متاهته) لغابرييل غارثيا ماركيز ، وكان البير فيدلي الذي قرأه لدى صدوره قد نصحني بقراءته . انها سيرة مسبوكة في رواية عن رجل الحرب والسياسة سيمون بوليفار (١٧٨٣ — ١٨٣٠) . حياة قصيرة ولكنها ملأى . وكان فشلها ذريعاً .

قلما نعرف الأشياء التي حدثت في مطلع القرن الماضي بامريكا الجنوبية . وقد قدم لنا مسافرونا الكبار معلومات أفضل تتعلق بعنف الطبيعة هناك . اما المنازعات السياسية فقد غطت احداث الثورة الفرنسية وحروب نابليون عليها رغم أن هذه الاحداث قد وجدت هناك من يهتم بها. ودامت القلاقل والاضطرابات والثورات في امريكا اللاتينية حتى يومنا هذا ، ولم تسفر عن اية قرارات واضحة ومستقرة . وظل حلم بوليفار في « ولايات متحدة تضم امريكا الجنوبية » ، اي

من المكسيك حتى الكاتب هورن نوعا من انواع اليوتوبيا . والواقع ان القوة التاريخية التي من شأنها خلق هذه الولايات كانت صغيرة ، وينطبق ذلك على جميع تلك المناطق المحيطة بخط الاستواء. وفشل بوليفار لأنه كان يمثل استثناءً. ولم يكن على اية حـال في مستوى العظمة التي تطلعت اليهـا شعوب امريكـا اللاتينية ، ولا في مستوى نابليون .

ويحدد غارثيا ماركيز نصه بنظرات بعيدة الى الوراء ، الى العام الذي توفي فيه بوليفار بعد ان استقال من مهامه في كانون الاول ١٨٢٩ ، وبعد ان انطفأت جذوة حياته في كانون الاول ١٨٣٠ . ويصف لنا الكاتب نزعاً بطيئاً تقطعه الرجفات ويتدرج شيئاً فشيئاً حتى النفس الاخير .

النثر جيد اذا استطعت ان اثق بالمترجم . عدد الاسماء التي يزلقها هذا الكاتب في الجملة مدهش . اضف الى ذلك الصور القصيرة المبرة : **« بعد قليل ، هبت عاصفة من المطر والرعد وتركت المدينة في حالة غرق » . « اغنيات الحب هذه كانت جميلة جدا وهي تعزف على الهارب بحنان منع العسكريين من ان يتحدثا بلغة القلب ما دام نسيم البحر لم ينته من حمل آخر الذرات في رماد الموسيقا »** .

وتذهب المعرفة الحميمة للمجتمع الخلاسي في ابسط شيائه وكذلك الطبيعة الاستوائية الى ابعد التفاصيل دقة وحياة **« في العهـد الاستعماري ، كـان المسافرون الاوروبيون يدهشون لرؤية السكان البدائيين ينيرون طريقهم بفضل زجاجات ملأى بالحشرات المضيئة . واصبحت هذه الحشرات فيما بعد درْجة لدى الجمهور ، وراحت النساء تستعملهن كزينات ضوء في شعورهن ، وتيجان جمر على جباههن ، ومشابك فوسفورية في مشدّاتهن »** .

ويقدم غارثيا ماركيز هنا حكاية . كان بوليفار في دور النزع حين استيقظ في غرفة نومه على رؤية مخلوقة ملائكية تدخل عليه . كانت فتاة في العشرين من عمرها زُينت شعرها بتاج من الحباحب . ووجدها ضابط الحراسة من الغرابة بحيث انه تركها تمر ، ولعله فكر في ان الجنرال قد يستمتع بصحبتها .

وحدث في الواقع ما توقعه الضابط : ((اكتشف بوليفار دفعة واحدة تالقات الفضيلة التي يؤثرها بالتقدير لدى المرأة وهي الذكاء غير المروّض (...) نزعت شريطها ثم صفت الديدان المضيئة في داخل جذع من جذوع قصب السكر احضرته معها ، واضطجعت بالقرب منه .

((تحدثا في اشياء لا رابط بينها ، وفي الدرجة الأولى عن صحته . فرجاها الجنرال ان تتفحصه فراحت تجس باناملها كل قطعة من جسده . ووجدته اكثر هزالاً مما قد يخطر بالبال . وبدا الراس وحده ملكاً لانسان آخر اذ كان سليماً . وتحدثا عنه بينما كانت هي تستسلم على هنيهات لنوم خفيف وهي تتابع في نومها اجوبتها . لم يمسسها طوال الليل ، كان يكفيه ان يحس بالقـرب منـه حرارتها الطفولية .

((كان الصمت في منتهى النقاء (...) حتى ان الكلاب هاجت حين نهضت على اطراف قدميها لئلا توقظ الجنرال ، وسمعها تتقرى باناملها مزلاج الباب .

((قال لها : ارّاحلة انت ، ايتها العذراء ؟

((اجابته (بضحكة طروب) : ((ما من فتاة تظل عذراء بعد ليلة معك ، يا صاحب الدولة !))

ولا ينقل غارثيا ماركيز عُاتق اشخاصه بالمتطلبات الاخلاقية . والواقع ان للجنرالات علاقة خاصة بالموت . واذا كانوا غير ذلك فانهم لن يرتفعوا الى مستوى مهامهم ولن يستطيعوا سـوى الإضرار بمصالحهم . هل يجب عندئذ التخلص من الجنرالات ؟ قول متهور ، ذلك ان كثيراً من الاشخاص ، حتى في الحرب الاهلية ، يتطلعون الى هذه المرتبة ، ، فيشبهون بذلك الى حد ما معلمي المدارس الذين يتطلعون الى مراتب اساتذة الجامعات . وثمة نوديون سعداءُ لم يتخرجوا من مدارس حربيـة كتروتسكي مثلا ، قد آثروا التكيف مع هـذه المرتبة .

كان نابليون يتمتم حين تصل النار الى ذروتها : ((تلف هائل)) . وفي محادثات ما بعد الحربين العالميتين سمعت بعضهم يقول : ((حيث يقطع الحطب تتهاوى النشارة)) .

وفي احد الانحسارات أمر بوليفار باطلاق النار على ثمانمئة سجين وقعوا في يديه . ولم يعف حتى عن الجرحى الذين كانوا ممددين في المشافي . وقال في نهاية حياته انه لم يأسف لاقدامه على هذا الامر ، وانه لو استطاع لكرره وفق ما تقتضيه الظروف .

وليس لهذا الموقف استثناءات في الحالات الخاصة التي تتعلق بالاصدقاء أو الاقرباء أو الأشخاص الذين خدموا الدولة . وتحدثنا محفوظات الدول عن اشياء كثيرة من هذا القبيل حتى يومنا الحاضر .

ومما يذكر في هذا الصدد أن وصيف غرفة بوليفار رآه يقاوم دموعه عندما سمع صوت اطلاق الرصاص الذي قتل صديقه الجنرال بيار PIAR في الساحة الكبرى بمدينة انغوستورا — وهي مدينة كان بيار نفسه قد حررها من الاسبانيين قبل بضعة اشهر .

وكانت قد جرت محاكمة سريعة حكمت على بيار بالموت بتهمة التمرد والخيانة ، ووافق بوليفار على الحكم ولكنه تراجع عن تجريد المتهم من رتبته العسكرية . وتم تنفيذ الحكم أمام الجمهور .

« وكان آمر سرية الجنود قد رفع بقايا كلب ميت تتنازعه العقبان المفترسة ، واغلق الشوارع المجاورة ليمنع الحيوانات الشاردة من المس بكرامة التنفيذ ، ورفض لبيار الشرف الاخير في ان يعطي السرية أمر اطلاق النار بنفسه . وعصب له عينيه عنوة ، لكنه لم يستطع منعه من ان يودع الناس وهو يقبل المصلوب ويحيي العلم » .

هذه المحاكمة تلقي الضوء على تفكير جيوش التحرير التي يقودها خلاسيون مجهولو الاصل . فبعض ضباط هذه الجيوش كانوا قد انتسبوا الى المدارس الحربية الاسبانية ، واختلطوا بالمجتمع الراقي على قدر متفاوت من المساواة . ولا ينظر الى الهيدالغو او النبيل غوتيرا بهذه النظرة الا في قريته . وحتى بوليفار نفسه كانوا ينسبونه الى سلف زنجي .

وكان الجنرال بيار رجلاً هجيناً الّب الفقراء والمعدمين والمولدين على الارستقراطية البيضاء في كاراكاس . بينما جاء بوليفار الى العالم كاحد اغنى

الورثة سواء بالعبيد او بالاراضي المملوكة . وكان نموذجاه روسو ونابليون ، ويجب ان نضيف اليهما بلا شك تولستوي في حال اطلاعه على اعماله .

ويكبر معنى الكلمات الاخيرة كلما اقتربت من الكوني الانساني فيما وراء الروائي والشخصي .. ولعلها كانت الكلمة قبل الاخيرة حين هتف بوليفار : **« يا الهي ! كيف اخرج من هذه المتاهة ؟ »** .

●● (عينا كلب زرقاوان) لغبريل غارثيا ماركيز ، ترجمته الى الفرنسية آني مورفان A. MORVAN ، منشورات غراسيه ، باريس .

بعد ان تعب غبرييل غارثيا ماركيز من غزارة المنشورات المقرصنة ورداءتها في سريانها اينما كان بامريكا اللاتينية ، قرر ، في عام ١٩٧٤ ، ان يصدر هذه المجموعة من حكاياته الاولى . وفيما عدا (مونولوغ ايزابيل وهي تبصر المطر على ماكوندو) ـ وقد كتب في الاصل لياخذ مكانه في الفصل الثامن من روايته الاولى (اوراق في الزوبعة) ـ لا يوجد هنا سوى نصوص خطها قلم فنان لم يبلغ بعد الرابعة والعشرين من عمره ويبحث بشكل خاص عن الخلاص من تأثير وليم فوكنر . وتذكرنا الجمل الطويلة المزينة لحكاية (مرارة لاجل ثلاثة مسرنمين) بـ (وردة لاجل اميلي) التي لم يستطع حامل جائزة نوبل في المستقبل ان يخفيها لكثرة ما قادته قراءاته الى الميسيسيبي قبل ان ينتج لنا صورة من عدة صفحات عن بطلته التي انسحبت من العالم .

وبالعكس ، فان (المراة التي كانت تصل في الساعة السادسة) مستوحاة من اقصوصة (القتلة) لارنست همنغوي . ويجد المرء لذة كبرى في الاطلاع على هذه التأثيرات في نصوص نشرت مؤخرا بالفرنسية ، ذلك ان غارثيا ماركيز كان آنذاك حديث الانتساب الى عالم القصة الا انه كان يحاول طبع قصصه بطابعه الخاص . وقد يكون من قبيل الاعجوبة ان نرى الى اي حد عرف هذا الفنان ان ميدانه سيكون منذ البداية ميدان العزلة والانفراد والموت . وتنقصه السخرية لكي يبلغ اشخاصه مرحلة الخلاص السعيد لسكان ماكوندو في (مئة عام من العزلة) .

اما الآن ، وفيما يتعلق بهذه النصوص التي تمثل ، في راي ماريو فارغاس إيوسا « حقبة ما قبل التاريخ » لهذا العمل ، فلا نجد سوى نجاوى نفسية لشاب مات ، او لتؤام انعزل بسبب وفاة اخيه ، او لنساء مللن لكثرة ما غازلهن الرجال . وبسبب الهم الكبير لوضع اصوات الاحياء والاموات في سنفونية العالم خطأ تراجعياً ، فالاشخاص مخطط لهم لكنهم غير مرسومين ، ويبقى العمل موحىً به . وهنا نقع على ابداع غريب اكثر مما نقع على « واقعية سحرية » لطالما أشاد النقاد بها فيما بعد . انه لأدب اقليم إكثر مما هو ادب وقائع . فالصحافي الشاب هيرالدو الذي يشغل امسياته بالتمرين كان مع ذلك يتقدم على طريق قرينه ماكوندو حيث سيقود وراءه العالم باسره . ونتابعه وهو فتى ، غير مجرب ، تعروه رعشة استبطان ، لذا كان يجب على هذه المهمة في التعرف على اشخاصه ان تنفتح على غزو مطلق .

فنون

●● الموسيقار الفرنسي سيزار فرانك CESAR FRANCK بمناسبة مرور مئة عام على وفاته (١٨٢٢ — ١٨٩٠) .

اذا كان فن الالحان بحاجة الى مسوّغ على الصعيد الفلسفي او على الصعيد الانساني ففي اعمال سيزار فرانك نجد هذا المسوّغ .

من اين ياتي سحر هذه الاعمال ؟

قالوا عن فرانك انه يجسد الموسيقا اي انه موسيقي صافٍ تمكن دراسة اعماله في حدود ذاتها ، من غير ان يكون من الضروري الكلام عن الرجل لشرح عبقرية الفنان . والحقيقة ان هذا الراي خاطىء ، اذ لا بد من دراسة روح الفنان والقراءة في اعماقه حين نكون امام الاعمال الموسيقية العظيمة التي ابدعها لنا .

وعلى هذا لم تكن روح سيزار فرانك سوى تسامٍ وطيبة تقترنان بالنبل والصفاء . ولقد انعكستْ روحه في اعماله بلا تباهٍ ولا تصنع ، مع هذا الصدق

المطلق والتواضع المحبب في لغة تعبر عن حياته الداخلية ، وعن وعي صاف لمهنته . ومن هنا نرى أن موسيقاه ليست ينبوع متعة عقلية وحسب ، بل هي أيضاً مفتاح ذهبي يفتح الأبواب لأسمى التأملات الميتافيزيائية . وإننا لنحس لدى سماع موسيقاه أن أرواحنا تتطهر وتسمو . لذلك كانت أنغامه مرجعاً أخلاقياً دائماً لنا، وصورة لما يجب أن تكون عليه النفس البشرية من ترفع فوق مستوى الحقارة والشر . أضف الى ذلك أن هذه الألحان تدخل العزاء والسلام الى نفوسنا ...

ولد سيزار فرانك عام ١٨٢٢ في مدينة لييج ببلجيكا من أسرة والونية الأصل. في الثانية عشرة من عمره انتقلت أسرته للاقامة بباريس، وحصل أفرادها على الجنسية الفرنسية .

بدأ دراساته الموسيقية مع العازف والمؤلف الموسيقي التشيكي الشهير أنطوان ريشا Reicha (١٧٧٠ ــ ١٨٣٦) الذي كان استاذ هكتور برليوز وفرانز ليست والموسيقي إدوارد Elwart وعازف الكمان البارع دانكلا Dankla . وكان ريشا قد عاش بفيينا من عام ١٨٠٢ الى عام ١٨٠٨ مقرباً من صديقه بتهوفن، وله بعض تآليف موسيقية يرقى بها الى مستوى أعمال سيد الموسيقيين. ومن المحتمل أن يكون فرانك مديناً لريشا بعبادته الموسيقا الجادة ، الآلية والسنفونية ، وبحبه التنويع وكذلك بمعرفته المتينة للاتباعيين الألمان .

بعد وفاة ريشا ، انتسب فرانك الصغير الى المعهد الموسيقي ، وبقي فيه من عامه الخامس عشر الى عامه التاسع عشر ، وخرج منه بجوائز أولى في العزف على البيان والأرغن والمتابعة. وكان أبوه يدفعه الى مهنة العازف الماهر والأستاذ. وحين بلغ الثامنة عشرة ألف (ثلاثيات) ناجحة قال عنها ليست : **« انها تثير الاعجاب . وانها أرفع مستوى في النوع ذاته من الأعمال التي نشرت في السنوات الأخيرة »** . وعمل ليست كثيراً لاطلاع الناس عليها في ألمانيا بينما بقيت مجهولة في فرنسا .

أخذ فرانك يعطي دروساً ليعيش . وتزوج في عام ١٨٤٨ ممثلة شابة هي نفسها ابنة ممثلة . وفي السادسة والعشرين من عمره تحرر من الوصاية الأبوية وأصبح عازف أرغن مرموقاً في عدة كنائس على التوالي ، وظل يمارس

هذه المهنة حتى وفاته . ومن هنا ما نلمسه في موسيقاه من طابع ديني وصوفي ، اضف الى ذلك هذه السمات الابتداعية التي اتصفت بها . واعطى ما بين عامي ١٨٦٠ ـ ١٨٦٢ (ست مقطوعات للارغن) نطلع فيها على ما تميزت به اغانيه وترانيمه من طابع شخصي .

تقدم لنا المقطوعة الاولى ، وعنوانها (فانتازيا) اغنية بسيطة احتفالية من مقام دو الكبير ، يتبعها تناغم صوتي تذكرنا الانغام فيه بالموضوع الفاغنيري حول النوم في المشهد التعزيمي لاوبراه (الوالكيري LA WALKYRIE) .

اما المقطوعة الثانية فعنوانها (المقطوعة السنفونية الكبرى) وهي ذات اتساع وضخامة في مطلعها . وقد شيدها فرانك على المبدأ الدوري مع تتابع في التطورات والتغيرات الطبقية الصوتية التي كان يملك سرها .

والمقطوعة الثالثة عنوانها (استهلال ومتابعة وتنويع) وهي ذات بساطة ومتانة مدهشتين . ونفهم هنا لماذا كان ليست يقول ان فرانك تقمص روح باخ الكبير .

وفي المقطوعة الرابعة وعنوانها (رعوية) تقع على رائعة صيغت بمنتهى العذوبة والصفاء . والخامسة عنوانها (صلاة) وهي تصور لنا فكراً تأملياً حيث الارغن الكبير يتعذب في محاورة ملامسه . ونجد فيها نبرات الم وقلق تقع عليها في عمله (تنويعات سنفونية ، ١٨٨٥) .. ونصل الى السادسة التي عنوانها (خاتمة) وفيها تتألق صلاة خاشعة ، وتناغم جريء .

ولفرانك مقطوعات كثيرة كتبت لتعزف على الارغن يضيق المجال عن تعدادها . وله ايضا (ثلاثة الحان) للجوقة وهي من اجمل الحانه . وحين اشتعلت حرب ١٨٧٠ بين الالمان والفرنسيين كان فرانك منهمكاً في تأليف عمله الرائع (المسرات) وهو مستوحى من (الموعظة على الجبل) كما وردت في انجيل القديس متى . وفي شهر تشرين الثاني ١٨٧٠ ذاع نبأ ان العاصمة ستستسلم الى الالمان ، ونشرت احدى الصحف هذه القصيدة : « انا باريس ، مليكة الحواضر ... ريح عاصفة تهب ، ولكني لن انحني قبل ان يجف ثديي وقبل ان يرهقني الجوع . ستعرون بضربة ذراعي وستفرون الى الراين . وساتناول معزفي واغني عليه نشيد الظفر ... »

تحمسْ فرانك فالف مقطوعة موسيقية عنوانها (باريس) لم تعزف الا في عام ١٩١٥ بسبب ملاءمتها لظروف الحرب العالمية الاولى . وهي ملأى بالحرارة والدعوة الى البطولة والفداء .

الا ان كارثة ١٨٧١ لم تلبث أن أوحت اليه بمقطوعة عنوانها (الفداء) . وفيها مقطع سنفوني يؤكد انتصار النور على الظلام، والحق على الباطل، والخير على الشر .

ثم كتب فرانك قصيدة سنفونية عنوانها (الأيوليت LES EOLITHES) — من ايول EOLE اله الرياح في الميثولوجيتين الاغريقية والرومانية . والايوليت هم سكان منطقة الايوليد القديمة في آسيا الصغرى ، وهذه المنطقة هي مكان ولادة الشعر الغنائي — . وقد استوحى فرانك هذه القصيدة السنفونية من اشعار الشاعر الفرنسي البرناسي لوكونت دوليل ، وهي من الموسيقا ذات البرنامج على راي فرانزليست وهكتور برليوز . ولا تقل في متانة تركيبها عن سنفونية كاملة . وهي تحوي خمس حركات ، وتعتبر من الاوجه الجمالية آية في العذوبة والنقاء . ولعل فرانك تأثر فيها بموسيقا (تريستان وايزولده) لريتشارد فاغنر , ذلك انه كان يعشق فاغنر ويتعمق في دراسته على الدوام .

وفي عام ١٨٨٢ ابدع فرانك مقطوعة سنفونية مفرقة في الابتداعية المضيئة عنوانها (الصياد اللعين) وهي تعبر عن قلق الروح الانسانية تجاه اهوائها ونزواتها .

وفي العام ذاته كتب اوبرا عنوانها (هولدا HULDA) عرفت للمرة الاولى في مونت كارلو . وهي أسطورة نرويجية تصور في اطار وحشي تنافس امرأتين في حب رجل واحد . وحين يهجر البطل إيولف حبيبته هولدا انتقم منه بقتله وترمي بنفسها في امواج البحر . وفي هذه الاوبرا مقاطع نخص بالذكر منها باليه (الشتاء والربيع) .

في عام ١٨٨٣ نظم فرانك قصيدة سنفونية في موضوع مستمد من قصيدة (الجن) الشهيرة لفيكتور هوغو ، وقد بنيت على توسع التناغم الايقاعي وتطوره مع حدة متناميه في التعبير . وبينما ارخى الشاعر العنان لمخيلته في الوصف

والتعبير نقل المؤلف الموسيقي هذا المقطع المستوحى من (الف ليلة وليلة) الى مأساة مثقلة بالانفعالات . ورأى فرانك في الجن ارواحا شريرة ترمز الى غرائزنا وترهق النفس البشرية بالغوايات الخطرة . والجمل هذه الارواح الشهيرة من النفس البشرية مركزها المفضل ، مع ان النفس تحاول دوما الدفاع عن ذاتها وجوهرها . انه لصراع رهيب ينتهي بانتصار الطيبة والعذوبة .

وسرعان ماتوالت الروائع في الظهور خلال السنوات الاخيرة من حياة الفنان . ويبدو لنا وقد صب اهتمامه بخاصة على موسيقا البيان كانه اراد منحنا ادبا بيانيا جديدا . وهكذا الف في عام ١٨٨٤ هذا الصرح الفخم الذي سماه (استهلال ولحن كورالي وتتابع) . ويعتبر هذا العمل قمة الاعمال البيانية في جميع الازمنة بحسب راي بعض النقاد . وكتب الاديب والناقد الموسيقي الكبير رومان رولان في عام ١٩٠٧ في مؤلفه (موسيقيو اليوم) يطري اعمال فرانك وبخاصة هذا العمل العبقري النادر .

نصل الى (التنويعات السنفونية للبيان والاوركسترا) وقد الفها فرانك في عام ١٨٨٥ . وهي تمثل من دون شك اكمل ماقدمه لنا من اعمال فنية . وفيما يلي تحليل لهذه التنويعات :

منذ البداية ، وفي لون من الوان الاستهلال الممتع ، يقدم لنا فرانك النزاع بين عنصري موضوعه • ايقاع عنيف ، شبه عدواني من الاوركسترا ، يتصدى له البيان بالتوسل الفنائي • وبفضل هذه المناظرة المبدئية من العواطف ، وهي مناظرة نحا فيها فرانك منحى بتهوفن ، وستصبح المطلب الحيوي للعمل ، يأخذنا المؤلف من ايدينا ويوجهنا في اتجاه التطور المأساوي حيث نجد على التوالي هذين المنصرين يتجابهان ثم يتحدان ، يتعارضان ثم يلتحمان ، من غير ان يتخليا عن فرادتهما الاولى •

ويمكن ان نلمس في هذا العمل ثلاث حالات شعرية • الحالة الاولى ذات شعور عاطفي صرف ، يقودنا ، في شكل استهلال ، الى العرض الكامل للموضوع بوساطة البيان ، اي حتى اللحن السريع (اليغريتو ALLEGRETTO) الشبيه باللحن المتباطئ (اندانتي ANDANTE) الذي فيه يجتمع ويتكامل العنصران اللذان كانا حتى الان مختلفين ، متعارضين ، وذلك في صيغة حنان تشوبها الكآبة والسلام •

الحالة الثانية ، وهي النواة الموسيقية الحقيقية لـ (لتنويعات) في حد ذاتها ، تمتد من هنا حتى الخاتمة ، فتتطور بين ابلغ الترنيمات التعبيرية ، لتمر من الصفاء الحنون الى التامل الديني ، من غير ان تنسى، بانطلاقها السامي، اثارة الحماسة فينا . وتجب الاشارة بخاصة الى لحظة السلام والهدوء التي تسبق الخاتمة ، كانها تحرر فينا التطلعات المبهمة التي لا ندري تماما هل هي ملأى بالدموع او بالامل ، بالاسى او بالحنان . ويقودنا الانفعال الى حدود السر والكشف . لحظة جمال كامل ، قلما نجد لها مثيلا الا في بعض اعمال الموسيقيين العباقرة .

اما الحالة الثالثة ، ويذكيها عزف صريح ، وتتميز بعفوية نشطة وسخية، فانها تشكل الخاتمة ، التي يؤمن ايقاعها الراقص لهذا العمل الاكثر تلوينا والاكثر تحركا لدى فرانك ، نهاية تتالق بالبهجة والفرح المضيء . ويكشف لنا التناقض مع الالحان التعبيرية السابقة عما احس به قلب الموسيقي الكبير الذي تصورها من ثقة وبراءة وحرارة ، ومن حماسة تفيض بها شيخوخته الكريمة المعطاء التي استطاعت ، رغم نفرات حياة بلا انتصارات ولا مراتب عليا ، ان تحتفظ بهدوئها السري وتسوغ هذا الاعتقاد بان من يستمع الى موسيقى فرانك لا يغدو فقط موسيقيا اكمل بل يغدو انسانا افضل .

وهكذا نرى ان (التنويعات السنفونية) هي احد اكثر الاعمال كمالا وصفاء في العالم . وهي لا تنسينا بالطبع تنويعات شومان الملأى بالنضارة والسحر ، ولاكونشرتوات ليست التي تنتزعنا من الارض وتقودنا الى حدود الانفعال الانساني والحماسة ، لكنها اكثر غنى بالموسيقا ، واكثر عمقا بالالهام، بحيث تنقلنا الى عالم آخر لاتعرف الحنين اليه سوى الارواح المصطفاة ، بلى، لكي نحب موسيقا فرانك ونفهمها يجب ان نكون في حالة رضى .

وتدل (الصوناتا للبيان والكمان من مقام A ماجور ، ١٨٨٦) على طواعية العبقرية لدى هذا الموسيقار وعلى قدرته على التعبير عن خلجات النفس البشرية بمختلف الاشكال . ففرانك يبدع في كل نوع رائعة من الروائع . وهذه الصوناتا هي اجمل صوناتا للبيان والكمان وجدت منذ ان وجدت الموسيقا بحسب راي العالم والناقد الموسيقي الفرنسي جي. غودوفروا ــ دو مومبين DEMOMBYNES . ويجب الاستماع الى ادائها الرائع من قبل العازفين السوفيتيين الكبيرين ديفيد او يستراخ (كمان) وسفياتوسلاف ريختر(بيان).

منذ القرن الثامن عشر ، حيث كان دور البيان مقتصرا على مرافقة الاوركسترا مرافقة ثانوية ، تحولت الصوناتا الثنائية واكتسبت الالتان قيمة متساوية تقريبا لدى موتسارت وبتهوفن . على ان المساواة لم تكن كاملة ، بل كانت الكمان هي المسيطرة . ومع ذلك كان التقدم مستمرا : ففي المانيا نقع على صوناتتين رائعتين لشومان ، ثم تالقت الصوناتات الثلاث لبرامس . وفي فرنسا نقع على صوناتا لهاتين الالتين الفها ادوار لالو عام ١٨٥٥ ، ثم صوناتا الكمان الجهير — الفيولونسيل او التشيلو — لسن صنس في عام ١٨٧٢ ، وصوناتا الكمان لغبرييل فوريه — وهي افضل الحانه — في عام ١٨٧٦ . وها هو فرانك اخيرا يقدم لنا اجمل صوناتا متوجا بها هذا التطور الطويل . وستكون صوناتا فرانك في اصل ماابدعه الموسيقيون من بعده . وتعتبر هذه الصوناتا اول نجاح جماهيري له ، ولم يلبث ان نقلها كمشعل الى شتى انحاء العالم العازفان الشهيران ايسايهISAYE وبوغنو PUGNO فامنا لها اوسع انتشار ممكن

في عام ١٧٧٨ الف فرانك قصيدة سنفونية للاوركسترا والجوقة الغنائية عنوانها (بسيشه) . وتروي المقاطع الكورالية حكاية بسيشه وايروس او النفس والحب ، وترسم لنا الاوركسترا ماساة العاطفة بينهما . هناك صفحات تصويرية ساحرة كاختطاف الانسام لبسيشه ، وجمال الحدائق التي يعيش فيها ايروس . ومن ابدع مافيها المحاورة بين الحب والنفس وهي التي قال عنها الموسيقي الفرنسي فنسان داندي « انها محاورة سماوية بين روح نقية وملاك كريم » . لحمة هذه القصيدة السنفونية لحمة متينة ، غنية ، عذبة تدعو الى التامل والنشوة بينما الجملة الغنائية فيها تعبيرية ذات ايحاء ونبل . ويرى بعض النقاد ان في هذه القصيدة جنسية خفية ، تستعير جوها التناغمي والتعبيري من (تريستان وايزولده) ومن (الصبايا الازهار) لريتشارد فاغنر والواقع اننا لانجد فيها هذا الولع المجنون ولا هذه الشهوة المعدية اللذين يثيرهما سحر فاغنر ، ولكن نلمس فيها اسلوبا شاعريا يذكرنا بعري الصور التي ابدعها الشاعر الفرنسي اندره شينيه ، وبلوحات كل من الرسامين الفرنسيين جيرار وبرودون .

ويؤلف فرانك في الفترة الواقعة بين ١٨٨٦ و ١٨٨٨ عمله الشهير (السمفونية) . وتتميز بالتوازن والمتانة في عمارتها المرنانة . وتعتبر من اجمل سنفونيات العالم بما فيها من غنائية وحنان ، وعمق ونبل في الايحاء . ليست

لهذه السنفونية بالطبع دينامية السنفونية التاسعة لبتهوفن ، ولكن ليس فيها بعض مانراه من سطحية وابتذال في السنفونية المذكورة . هنا نقع على الامتداد الموسيقي الحالي من الثغرات والاسهابات ، كما نقع على الغنى التناغمي المتوازي ، وعلى نفحة مؤثرة من التأمل والبطولة .

في اليوم التاسع عشر من نيسان ١٨٩٠ عزفت أوركسترا الشركة الوطنية الفرنسية (الرباعي الوتري) لفرانك وكان نجاحه عظيما ، وهو اول نجاح قد عرفه فرانك بعد ان بلغ الثامنة والستين من عمره . ويعتقد كثير من الناس ان هذا العمل هو افضل اعمال الموسيقار ، وذلك لان من المتفق عليه انالرباعي هو اسمى الاشكال الموسيقية واصعبها واكثرها تجريدا ..

وفي عام ١٨٩٠ أصيب سيزار فرانك بحادث اليم اذ صدمته حافلة وهو يعبر الشارع . ولم يلبث ان توفي . ووجدوا تحت مخدته (ثلاث مقطوعات للجوقة) . وتعتبر هذه المقطوعات وصيته الموسيقية . المقطوعة الاولى عادية، اما الاثنتان الاخريان فهما رائعتان ، اذ نحس بان فيهما ينبوعا من الغناء والصفاء والتفاؤل والهدوء . ولا يمكن اي انسان لدى سماعهما الا ان يتخلى عن القلق الذي يعانيه ، او عن الحزن الذي يساوره ، أو عن الحقد الذي يتاكل قلبه . موسيقا سماوية ملأى بالنبل والبساطة والغنى والسمو تفتح امام المستمع ابواب فردوس خيالي لا اجمل منه ولا امتع .

علوم

●● هل يتساوى الحاسوب مع العقل البشري ؟

مقال للبروفسور جاك ارساك J. ARSAC ،

استاذ الاعلاميا في معهد المعلمين العالي بباريس .

حين ظهرت الحواسيب بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٥ رأى العلماء انها لا تملك قدرة خارقة في الحساب وحسب ، بل انها تستطيع ايضا استعمال الحروف ، كالحروف التي تكتب بها مثلا . ومنذ ذلك الحين لم يقتصر مجال استعمالها

على الحساب العددي . وبات النور مشروعات هائلة : التوثيق الالي ، ترجمة اللغات ، آلات التعليم ، لعب الشطرنج ، حل النظريات ..

وانطلق العلماء هربرت سيمون، وهو يحمل جائزة نوبل للاقتصاد، ونيفيل NEWEL وشو SHAW في كتابة برنامج عام لحل المشكلات : فلاحة تحمل بيضها لتبيعه في السوق ... وكانت النتائج الاولى مشجعة بحيث انهم نشروا مقالا حماسيا في عام ١٩٥٩ . واكدوا أن بطل العالم في الشطرنج سيكون حاسوبا بعد عشر سنوات ، وستكتشف هذه الآلة وتحل نظرية هامة في الرياضيات ، وسيصور سلوك الناس على الحاسوب . واضافوا انه لن يوجد قطاع من الفكر الانساني لايستطيع الحاسوب التطرق اليه في المستقبل القريب.

كتب هيوبيرت دريفوس ، وهو أستاذ الفلسفة في جامعة بركلي ، تقريرا عنوانه (العقل الاصطناعي والالخيمياء) يبين فيه ان العقل البشري يتعذر تبسيطه امام عدد محدود من الآليات ، وان من المستحيل اذن صنع عقل آلي . وكانت فضيحة كبرى واتهما بالظلامية (نزعة الى اعاقة التقدم وانتشار المعرفة) كما قيل لي في عام ١٩٨٥ بمانشستر : ((انتم من هؤلاء الذين كانوا يعتقدون ، في القرن التاسع عشر ، ان الشيء الاكثر ثقلا من الهواء لا يتمكن ابدا ان يطير)) . وقاد فلاسفة آخرون كلوكاش وجاكي المعركة ذاتها ضد الفكرة القائلة ان العقل الاصطناعي لا يمكن صنعه .

على ان سيمون ونيفيل وشو كانوا قد قدموا تنبؤات لمدة عشر سنوات. في عام ١٩٦٩ تبين ان هيوبيرت دريفوس كان صادقا في كلامه : فالحاسوب لم يصبح بطل العالم في الشطرنج ومازال عاجزا عن ذلك حتى ايامنا ، ولم يجد حتى الآن اية نظرية رياضية جديدة هامة ، ولم يستطع علماء النفس ان يقولبوا السلوك الانساني . وفي هذه الايام ، لا في عام ١٩٦٩ ، يبقى الحاسوب عاجزا عن التساوي مع الانسان في جميع نشاطاته الثقافية . والف دريفوس كتابا عنوانه (مالا تستطيع الحواسيب عمله) وصدر مترجما الى الفرنسية تحت عنوان (خرافات العقل الاصطناعي وحدوده) . وكانت فضيحة جديدة .

بيد ان الباحثين في العقل الاصطناعي هبوا للعمل . فلا يكفي ان نحاول تغذية الآلات بامكانيات « المحاكمة » ، بل يجب اعطاؤها معلومات . وهكذا ولدت

فكرة نظام الخبرة . وكانت هناك نجاحات صريحة : فاكتشف « بروسبكتور » منجما من الموليبدين (وهو فلز أبيض كالفضة قابل للكسر) . وقرر اليابانيون آنذاك ان ينسفوا جيلا من الحواسيب ، وأن يضعوا فورا آلات من « الجيل الخامس » تغذيها معلومات المحاكمة وقدراتها .

لم يؤخذ الامر في البدء مأخذ الجد . ولكن في عام ١٩٨٣ اطلق ادوارد فايغنبوم FEIGENBAUM تحذيرا للشعب الامريكي قال فيه ان اليابانيين سينجحون ، وانهم سيتجاوزون قدراتنا على الصعيد التقني اذا لم نبذل قصارى جهدنا لتحقيق عقل اصطناعي . ورد هيوبرت دريفوس على هذا القول بكتاب جديد عنوانه (العقل فوق الآلة) . وفي عام ١٩٧٦ صرح استاذ اعلامي آخر هو جوزيف فايزنبوم WEIZENBAUM ، باعتباره باحثا في العقل الاصطناعي ، انه لم يقصد قط الى اختراع عقل آلي ، وانه لا يعتقد ان ذلك ممكن .

وهكذا احتدمت معركة كبيرة على صعيد الافكار . فما من تجربة تثبت اليوم ان الحاسوب قد بلغ مستوى القدرة الانسانية لا في الشطرنج ، ولا في انظمة الاختبارات ، ولا في النظريات الرياضية ، ولا في فهم اللغة الطبيعية ، ما عدا حالات ضعف ممكنة على الدوام لدى فرد متخصص اذ يمكن لأفضل لاعب شطرنج ، مثلا ، ان يجد فيه تسلية . والسؤال المطروح هو في معرفة ما اذا كنا نستطيع ذات يوم ان نصنع عقلا اصطناعيا . وهذا السؤال يضع في البحث ثلاثة تساؤلات فلسفية كبرى . فدراسة اللغات الطبيعية على الحاسوب تمارس بدءا من الشكل الوحيد للكلمات والنصوص . فاذا نجحت فمعنى ذلك ان كل ما يحويه الكلام يمكن استنتاجه من الشكل الوحيد للنصوص ، فالافتراض اذن بان لهذه النصوص معنى هو بلا جدوى : ذلك ان المعنى ليس له واقع . واخذ بعض المناطقة ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، كفريغيه ورسل وفايتهيد على عاتقهم بناء انواع من الكلام شكلية (يمكن اختبارها انطلاقا من شكلها الوحيد ، وخالية من كل معنى ، حتى لو استطعنا عند الاقتضاء ان نلصق بها تفسيرا) . هل يمكن ان يقال كل شيء بمثل هذه الانواع من الكلام ؟ نعم ، ولكن بشرط واحد هو ان نستطيع خلق عقل اصطناعي .

اذا كان كل شيء شكليا ، فكل شيء يمكن الحصول عليه بتحويلات شكلية، اي بحسابات تستند الى رموز . وعلى هذا فان كل محاكمة هي حساب ، كما اكد ذلك توماس هوبس في (اللاويثان) في القرن السابع عشر . والفكر المرهف بحسب باسكال لا وجود له . والحدس ليس سوى محاكمة لا واعية كما يرى جان ـ بيير شانجو CHANGEUX ولووف LWOOF . اننا نعمل ونحن نخضع لقواعد ، وسيتجاوز خبراء الآلة الانسان في قدرته على الاختبار. وعلى العكس من ذلك ، واذا حصل هذا الامر ، فمعناه أن جميع محاكماتنا هي حسابات . واذا كانت كل محاكمة حسابا ، فالحكم الأخلاقي يكون عندئذ هو نفسه حسابا ، وهذه اجابة عن تساؤل افلاطون . ولكن ماذا يحل آنذاك بالقيمة الاخلاقية للعمل ؟ وماذا يحل بما نسميه « حرية » ؟ وهل يستطيع الفكر ان يحتفظ بالواقع ؟ هنا نعثر على افكار جان ـ بيير شانجو .

وهكذا ففيما يتعلق بالتساؤل عن امكانية وجود عقل اصطناعي تنعقد ثلاث مسائل ؛ هل للمعنى وجود ؟ هل ثمة محاكمات لا تكون حسابات ؟ هل الفكر موجود ؟ وتتعلق الاجابة بمعتقدات كل انسان . ويقول فايفنبوم بصراحة انه يعتقد بان الفكر آلة وان كل محاكمة هي حساب . ويعتقد دوغلاس هوفستاتر HOFSTADTER ان كل شيء قابل للشكلية . ويرى هذان العالمان ان العقل الاصطناعي ممكن . ويعارض فايزنبنوم بقوة وباسم الكرامة الانسانية والاخلاق هذا الراي ....

اعتقد ان للابحاث في العقل الصناعي ناحية جيدة هي انها تساعدنا في ان نرى بوضوح داخل نفوسنا ؛ ومن المؤكد انه يوجد ـ اكثر مما نعتقد ـ عدد كبير من النصوص الفقيرة بمعناها ، وهي لا تصلح لان تترجمها الآلة . وبالمقابل فهناك مجالات تتحول فيها محاكماتنا الى حسابات ، وتصنعها الآلات افضل منا . ولكن العبور الى اقصى الحدود يبدو لي مستحيلا . فانا أومن بوجود الفكر والحدس والمعنى . اذهب حتى الى الاعتقاد بان العلم لن يحسم هذا النقاش ابدا . سيكون هناك على الدوام نجاحات جديدة تدفع البعض الى ان يهتف : ارأيتم ، سننجح . كما سيكون هناك عدد كاف من الاخفاقات يدفع الآخرين الى ان يجيبوا : كلا ، لم تتوصلوا بعد الى ما تبتغون . ولن يجيب العلم عن هذه الاسئلة الاساسية حول الانسان .